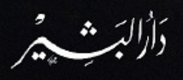


بِئْرُ الحَيْرَةِ



رواية

عفاف سعيد







بئرُ الحيرة



الطبعة الأولى

1439 هـ

2018 م

اسم الكتاب: بئرُ الحيرة

التأليف: عفاف سعيد

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 272 صفحة

عدد الملازم: 17 ملزمة

مقاس الكتاب: 14x20

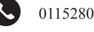
عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2018/13728

الترقيم الدولي: 978 - 977 - 278 - 695 - 4







دار البشير للثقافة والعلوم

elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com

01152806533 - 01012355714





بئر الحيرة

رواية

عفاف سعيد





إهداء

إلى قلبي الذي ما زال يؤمن..

أنّ الحبّ الحقيقي لا يموت.



إلى الأرواحِ الهائمة في بئرِ الحيرة..

لا تلوموا إلّا أنفسَكم التي لم تجْدلوا لها

حبالَ القوّة لترتفعوا بها عند سقوطكم..

فلم تجدوا إلّا المرورَ في ذلك النّفق المظلم

المؤدّي إلى بئرِ الندم؛ حيث لا نجاة.



عفاف سعيد



منذُ قديم الزمان، قتل قابيلُ هابيل، فكتب القتل على أهل الأرض، وألقى أخوةُ يوسف أخاهم في غيابة الجبّ، تلك البئر السحيقة المظلمة التي ابتلعته ساعاتٍ- لا نعلم عددها- في حيرةٍ من أمره، تدور في رأسه الصغير الظنونُ والأفكار.

ألقاه إخوتُه في البئر وحيدًا خائفًا لا يعلم له جريرةً أو ذنبًا حتى مرّت عليه قافلة النّجاة، بينما أغرق إخوته أنفسَهم بأيديهم في بئر أعمقَ وأوسع، تتردّى فيه أنّات أرواحهم المعذّبة وصرخاتُ أنفسهم الحيرى من هوْل ما صنعوا.

بالأمس القريب، كانوا في بئر الحيرة يفكّرون في الكيد لهذا الغلام الذي خطفَ منهم قلبَ أبيهم، واستولى على حبّه، فبيّتوا أمرهم وتخلّصوا منه وهُم يجهلون أنّهم قد انتقلوا بخُدعتهم عبْر نفقٍ مظلم ضيّق إلى بئر الندم حيث لا نجاة. تختنق بداخلهم كلّ معانى الأخوّة والوفاء بالعهد لتصبح أنّات ندمِهم المكتومة داخلَ أنفسهم أسيرةً لا تقوى على الخلاص إلى أنْ شاء الله بالغفران.

لقد حرّك إخوة يوسف تلك الصخرةَ العتيّة، وفتحوا بئر الحيرة للإخوة من بعدِهم ليسقطوا كما سقطوا، فهل سيلتهم بئرُ الندم كاملَ البشر كما التهمَهم، أم أنّ منهم مَن سيستطيع أن يجدلَ لروحه حبالَ القوة والصبر ليرتفع فوق الحيرة والندم؟

كانت صبيّةً ابنةَ أربع عشرة عندما حكتْ لهم معلّمة الدين قصةَ نبيّ الله يوسف وإخوته، تابعتها بعينين أصابتهما الدّهشة والشغف، كلّما زادت أرادت المزيد..

وصفت جمالَه وخلقَه وروحَه الطاهرة التي تفوقُ كلّ وصفٍ، وهي تنظر ناحيتها بابتسامة تعرف سرَّها، فأخجلتها فأشاحت بعينيها بعيدًا..

يصفُها الكثيرُ بالجَمال والخلق والرّوح الطيبة، لكنْ أين هي منه؟!

وهبها الله عيونًا زرقاء بزرقةِ البحر الصافي، ووجهًا صغيرًا أبيض مستديرًا متشرّبًا بحُمرة، فمًا ورديًّا تحيطه غمازتان، شعرًا كحريرِ عباءة سوداء.. جمالُ الروح والطبع جعلاها كفراشةٍ جميلة هادئة، تجذب عيونَ الجميع حتى زميلاتها، أحبَبْنها فكانت موضعَ أسرارهم المبكّرة.

حكتْ لها أيضًا عن حبّ أبيه، وحبّ كلّ مَن يراه له، هل يمكن لإخوةٍ أن يفعلوا هذا بأخيهم!؟ يوسف الصديق كاد له إخوته فألقوه في البئرِ طفلًا، بلا ذنبٍ غير الحبّ "حبّ أبيه"، ألقوه في السجن بلا سببٍ غير الحبّ "حبّ امرأة العزيز له"، فهل الحبّ ذنب؟

كانت صغيرةً على أنْ تعي ما هو الحبّ، ترسّخ في عقلها وقلبها أنّ الحبّ شيء عظيم، قد يصلُ بنا إلى الجُبّ أو السجن، صغيرة هي على أنْ تعي رغبةَ امرأة العزيز فيه، هل كانت تحبّه أم أرادت امتلاكه فحسب؟

سارتِ المعلمةُ بين الصفوف وهي تُكمل بصوتها الجميل الذي لم يغبْ عن آذانها يومًا، طويلة ممشوقة مهيبة، فأضافت لكلّ شيء هيبة، كلّ كلمة تنطقها تقعُ في قلبها كالنّقش على الحجر، لم تكن تعلم- حينها- أنّ خيوطًا كثيرة ستمتدّ لتصنع بينها وبين قصّة يوسف غزلَ عمرها.

مسحت دموعها وهي تصف حزنَ أبيه وعَمَاه، فقد كانت تعشق أباها، حتى حلم الملك رأته أمام عينيها، رأت السبعَ بقراتٍ السّمان والسبعَ العجاف، العام الذي يُغاث فيه الناس، رأتهم يفرحون ويعصرون، الشخصيات تتحرّك أمام عينيها، شعرت أنّ قلبها تحوّل إلى ريشة تهيم في فضاءٍ واسع مضيء عندما أبصر أباه، وسجد الكلُّ له في مشهدٍ جميل.

خرجت من شفتيها كلماتٌ خافت أن يسمعها غيرها "سأنجب ولدًا، وأسمّيه يوسف".

سمعت المعلمة خطواتِها في الممرّ الطويل بين الفصول وهي تهرول خلفَها بعد انتهاء الحصة، تحاول أنْ توافق خطواتها الواسعة، استدارت باسمةً كأنّها توقّعت ما جاءت من أجله "ما الذي تريدين أن تعرفينه؟"

بابتسامة خجولة سألت: "هل الحبّ ذنب لنُعاقب عليه بالجُبّ والسجن؟"

اختفت ابتسامتُها وبقى شبحُها، تنهّدت تنهيدةَ مَن ذاقت من الحبّ الكثير، قالت وقد اختفتِ ابتسامتها تمامًا: "الحبّ ليس ذنبًا يا أسرار، الذنب هو التفريط في الحبّ".

قالتها وانصرفت، فُتح باب المدرسة للانصراف، وخيالُها يفتح أمامها بابًا لم يُغلق، شعرت بظلّه خلفها، لم تلتفت، تخجل دومًا من الالتفات، تخجل من نظرةِ عينيه التي تلتهم تفاصيلها، لكنّها تحتمي في ظلّه أكثرَ ممّا تحتمي في سريرها من برد الشتاء القارس في الإسكندرية، قليلًا ما يقف لمحادثتها فيسألها عن حال خالته، لم يُحادثها اليوم.

دخلت البيت على صوت أمّها وأختها "منى" تتشابكان في الحديث كعادتهما، عشرُ سنوات تفصلها عن أختها الوحيدة، لم تشعر يومًا أنهم عشرًا، كأنّهم بحرٌ عميق تقف كلٌّ منهما على شطٍّ منفصل، وادٍ بينَ جبلين شاهقين وضِعت كلٌّ منهما على قمّة أحدهما..

دخلت غرفتها والصراع يشتدّ بينهما، كالعادة هناك خاطبٌ سترفضه "منى" دون رؤيته، مسكينة "علية" أمّها، أصابت ابنتها الكبرى بذرةُ عنادٍ لا يعرف أحدُهم مِن أين أتت؟! تمتلك من الجَمال ما يجعل بيتهم مزدحمًا دائمًا بمَن يريدون خطبتها، فلا يمرّ أسبوعٌ إلّا وفي البيت خاطبٌ، إلّا أنها لا

تُعير أحدًا بالًا مهْما كانت مميزاته، لا تشعر بقلب أمّها المتمزّق الذي يتمنّى الاطمئنان عليها، "منى" لا تمنح أحدًا منها ما يستحقّ، كأنّها جاءت إلى الدنيا لتقف كالحجر في وجْهِ نهرِ حياتهم تمنعه من التدفّق بانسياب.

أخمدَ نارَ حديثهما الملتهبِ صوتُ أبيها إبراهيم:

- هل سنبقى على هذه الحال كثيرًا؟!

انسحبت "منى" - كعادتها- دونَ أيّ تبرير لرفض ذلك الخاطب كغيره، بينما انطلقت "علية" تشرح وتصفُ بعصبية لإبراهيم أنّ تلك الحال لم تعدْ تعجبها، ابنتها لا تعطيها مبررًا للرفض، لا تبلّ ريقَها الجافّ بكلمة طمأنينة أنّ هناك مَن تنتظره، تتمنّى لو استطاع إبراهيم إرغامها.

لم تحصل منه إلّا على كلماتٍ قليلة قبل أن يغادر المطبخ إلى غرفة نومه:

- لن أغصب إحدى ابنتي على الزواج، الفتاتان جميلتان؛ لا داعي للقلق.

***

لم يلحظ أحدٌ ممّن في البيت أنّ كلّ عامٍ يمرّ يأخذ معه شيئًا من الحظّ والنصيب، فكما يتبخّر الماء تبخّرت سنوات "منى" العشرينيّة النضِرة فتوقّف المطر وحلّ محلّه الجفاف، تراجع الأسبوع إلى شهر، والشهرُ إلى اثنين، حتى

جاء عامٌ كاملٌ لم يطرق بابَهم راغبٌ في خِطبتها، سبعُ سنواتٍ مرّوا سريعًا كمَن يرمي جمرات الحجّ في موسمٍ غير مزدحم، سبعُ سنوات كانت كافيةً لينتشر بين النساء في الإسكندرية ما لم تستطعْ "علية" أنْ توصله لمسامع زوجها، اتّهمها القليلُ بالغرور والتكبّر، وهمس الكثير بما لا يليق، أصبحتْ "منى" - لفترةٍ - موضوعَ حديثٍ للنساء حولهم، مع تساؤلٍ غامض.. "لماذا لا ترغب في الزواج!؟"

العيون يملؤها الشكّ، والألسنة حادّةٌ حاضرةٌ بالاتّهام، تستمتع النساء دائمًا بتلك الحكايات عن الشرف والتفريط فيه، وخصوصًا ممّن رفضت "منى" أبناءهم. وكعادة البشر، وقعت حكايتها منهم في زحامِ الحكايات، نسوْها أو تناسوها بعد أن تخطّت "أسرار" العشرينَ بعام، لم تقع عينُ أمٍّ عليها إلّا وأرادتها لابنها، ومَن الذي لا يهفو للجَمال والعقل والرّوح الرقيقة المهذّبة!

مرّت السبعُ سنوات السّمان، فهل سيعقبهنّ سبعُ عجاف؟

الحسرةُ تملأ قلبَ عليّة، تلتهم نارُها كلّ يوم قطعةً منه، حتى أصبح صدرها فراغًا، لا تعرف كيف تُخرج ذلك اللهيب في وجه "منى"، الذي جفّ كجفاف حظّها، تباعدت بينهما المشادّات حتى سكن الصمتُ الفراغَ الكائن بين "منى" وأيّ مَن في البيت، وبالذات أسرار، لا تتشاركان في شيء إلّا في الغرفة، حتى الأَسِرة منفصلة، لا أحاديث ليليّة كالتى تسمع عنها مِن

صديقاتها، لا نزهات على الكورنيش مع الترمس واللّب والذرة المشوي كبنات الحي، حتى جلسات الشرفة المُمتعة تنأى عنها، الجدارُ الذي يفصلهما يزداد سمكًا بمرور الأيام، الغروبُ والصمت يلفّان شقتهم الصغيرة المكوّنة من غرفتين وصالة ومطبخٍ صغير، وحمّام أصغرَ منه، أجملُ ما فيها تلك الشرفة المطلّة على البحر، تنبعث منها رائحتُه الساحرة مُمتزجة بروائح الياسمين والورد التي تعلن عن نسماتِ اقتراب المساء، وتحمل معها همهمات عليّة وإبراهيم..

- هل سنترك "منى" على تلك الحال؟ قلت لك كثيرًا إنّ هذا الحال لا يُعجب أحدًا، مرّت السنوات ولم يتزحزح حجرُ رأسها شبرًا.

لم ينقذ إبراهيم مِن بدء ذلك الحوار الثقيل إلّا صوتُ هاتف البيت، آخر ما توقّعه أن يكون المتّصل إسماعيل، تعجّب وإسماعيل يعتذر عن المجيء مساءً لأنّه ليس بالإسكندرية، زاد من تعجّبه أنه طلب لقاءه غدًا ظهرًا على مقهى فاروق. كان الحديث سريعًا، فلم يستطعْ إبراهيم الاستفسار عن أيّ شيء، لاحظت "علية" انشغاله فتساءلت عن المتّصل:

- إسماعيل يريدني أنْ أنتظره غدًا ظهرًا على مقهى فاروق، لا أدري ما الأمر!

***

جلس إبراهيم على تلك المقهى العتيقة التي تتنفّس جدرانُها سحرَ البحر والتاريخ بمدينة الإسكندرية في انتظار صديقه الوحيد، احتار في هذا الأمر الذي دفع صديقه للقائه خارج البيت الذي لا يمرّ يومٌ إلّا وهُما في شرفته الصغيرة المطلّة على البحر يلعبان الشطرنج ويحتسيان الشاي، لمَحه يعبُر الطريق مسرعًا يبدو عليه الإرهاق، لا يعلم لماذا شعرَ في تلك اللحظة بالعُمر الذي مرّ يعدو أمام عينيه كحريقٍ شبّ وقرب على الانتهاء، كأنّه عربة فقدوا السيطرةَ عليها فانطلقت بهِم بلا شفقة على أنفاسهم المُسنّة اللاهثة التي اقتربت من الانقطاع، هلْ هو الشيب الذي غزا شعرَ إسماعيل وذقنَه، أم التجاعيد التي أحاطت عينيه بهالاتٍ واسعة كالمتاهات التي سحبتْ أعمارهما في لعبة الحياة التي لا مخرجَ منها إلّا نهايتها، أم أكتافه التي حملت فوق ما يُحتمل فتهدّلت في استسلامٍ لواقع الحياة المرير، أم هي نظرةٌ حزينة امتلكت عينيه كتبت عقدهما يومَ أن علم أنّه عقيمٌ لن يحظى يومًا بنعومة كفّ صغيرة تتوارى في كفّه الضخم، تتململ بجانب جلبابه الفضفاض، تحاول في هرولة اللحاقَ بخطواته السريعة وهو ذاهب إلى صلاة الجمعة؟! تلك السكين لم تُغرز في قلب إسماعيل فحسب، بل خرج نصلُها من ظهره ليصيب صدرَ صديق عمره.

استقبله بابتسامةٍ لا تزيد وجهه الطيّب الودود إلّا نورًا وبهاءً، همس إسماعيل معتذرًا، سحب الكرسى المقابل له وهو يلهث..

– سامحني تأخّرت عليك، لم يشغلني عنك إلّا البضاعة الآتية من القاهرة، ضيّق علينا كبارُ التجار الرزق، واحتكروا السوق؛ فاضطررتُ للتعامل مع أحدِ تجّار الجُملة بالقاهرة، كنت أظنّ أني أبحث عن رزقي فحسب، فصار الرزق رزقيْن.

حاول إبراهيم أن يرفع عن صديقه الحرج:

– على أيّ شيء أسامحك! كلّ ما شغلني الموضوع الذي لا يمكننا التحدّث فيه بالبيت ليلًا في الشرفة، جال بخاطري أشياء كثيرة لا أعتقد أنّ أحدهم هو الحقيقة، لكنْ ما هو الرزق الذي صار رزقيْن؟

نظر له إسماعيل نظرةً مطمئنة، وهو ينادي صبي القهوجي الذي لبّى النداء سريعًا، طلب كوبيْن من الشاي مع ساندوتشات من الكبدة الإسكندراني الشهيّة المميّزة، ملامحه تنبأ أنه سيموت جوعًا..

– لا تقلقْ خيرًا إنْ شاء الله، الحاج ياسين تاجر القاهرة الذي أتعامل معه رجلٌ بكلّ معاني الكلمة، ماتت زوجته منذ عدّة أشهر، تاركةً له طفلًا في الثالثة من عمره.

ثمّ نظر إلى إبراهيم، التي ظهرت على وجهِ علاماتُ الشّفقة لذلك الطفل الصغير الذي فقد حنانَ الأمّ مبكرًا..

– رحمها الله، وصبّره على فراقها، وأعانه على تربية طفله الصغير، البيت عندما يخلو من الزوجة يصبح كالقبر لِمَن استوى عمله، فلا هو ينعمُ بالنعيم، ولا هو يذوق العذاب، لكنّه يخشاه، الزوجةُ الأنسُ والونس، قنديلُ الحياة الذي يشعّ الحبّ فيدفّئ البيت كلّه.

اتسعت ابتسامة إسماعيل لكلام صديقه، يعلم أنه يُقدّر المرأة، وزاد تقديرُه لها بعد زواجه من عليّة، فانتهز تلك الفرصة ليفتح موضوعًا لم يردْ أنْ يفتحه هناك في بيت إبراهيم.

– هذا هو بيتُ القصيد، الرجل يشقى بوحدته، مَن يخدم ويهتمّ اليوم لن يهتمّ غدًا، هو لم يتجاوز الخامسة والثلاثين تملؤه الرجولة والشباب، مِن عائلة ثريّة وكبيرة، وعزّةُ نفسه تمنعه أن يفرض ابنَه على الآخرين.

– الزّواج هو الحلّ الأسلم ليجد مَن تدفئ أيّامَه، وتصون ولدَه.

قالها إبراهيم بعفوية دون تفكير، لكنّه بعد أن نطقها تحوّلت إلى طلقة رصاصٍ أخرجها من فوّهة فمه لتنطلق إلى عقله مباشرة:

– هل تقصد ما فهمته يا إسماعيل؟!!

تناول إسماعيل الساندوتشات من يدِ الصبي الذي وضع الشاي على الطاولة بلهفةٍ تُعلن عن أنّه لم يتناول شيئًا طيلة النهار، أخذ عدّة قضْمات وهو يوجّه كلامه لإبراهيم:

- لمَ لا؟ لقد سمحت الثقةُ بيننا أن يسألني عروسًا مناسبةً له، فكّرت في ابنتنا "منى"، لكنّي لم أعرض عليه الأمر، انتظرت أنْ أشاورك أولًا بالرغم من أنّني أراه مناسبًا جدًّا.. لو لم يكنْ هناك مانعٌ نحدّد مقابلة يمكن أن يكون الخيرُ باطنها.

- لكن "منى"!! (قالها إبراهيم بتردّد..)

- لا أحد يدري أين النصيب والقسمة، كلّ يوم يمرّ تثبت لنا الأقدار أنّها فوق الزمان والمكان والمفروض، تقفز فوق الجبال وتعبرُ البحار، تقرّب البعيد وتُبعد القريب، الأقدارُ فوق كلّ واقع أو خيال.

شرد إبراهيم بأفكاره، تنهّد وهو يفكّر في تلك البنت العنيدة التي لا يعرف مِن أين أتت بذلك العناد الذي يملأ رأسَها وقلبها، تمنّى في بعض الأوقات أن يرجّها بشدّة علّه يسقط منها وينتهي الأمر، لا هو ولا "علية" يمتلكان جذورَ نبتةِ العناد في أرواحهما، فمِن أين أتت "منى" ببذرتها؟ ومَن الذي رواها فصارت شجرةً تقفز أغصانها الجافّة من عينيها فتجرح كلّ شيء وكلَّ معنى؟ (ردّ عليه باستسلام)

- "منى" سترفض.

لم يهتمّ إسماعيل بذلك الرأي القاطع، يرى من وجهةِ نظره أنّ الحاج ياسين رجلٌ لن تعوّضه الأيام لُمنى، تعامل معه ورأى مِن أخلاقه وكرمه وأمانته ما لم يرَ من أحدٍ، طلّته كلّها رجولة ووسامة وبهاء.

أسرع ليحطّم صخرة حزن صديقه التي يضيق بها صدره:

- رفض!! الحاج ياسين رجلٌ لا يُرفض يا إبراهيم، إنّه يمتلك كلّ ما يتمنّاه قلبُ فتاة؛ رجولة، ووسامة، روحٌ جذابة، كرم مادي وأخلاقي، قد يكون أرملًا وأبًا لطفل صغير، لكنّ ذلك لا يعيبُه، كثيرات يتمنّينه، لكنّه رجل عاقل ورزين، يريد فتاةً من بيت أصيلٍ تقف بجانبه في محْنته، تصونه وولدَه، وسترى من السعادة والكرم ما يفوق واقعَها وخيالها.

وقع إبراهيم في الحَيرة، يعلم صديقه جيدًا، وأنّه لن يورّط نفسه في أمرٍ لا يضمنه..

- أعرف أنك تملك القدرةَ على وزن مقادير الرجال بميزانٍ حسّاس.

ابتسم إسماعيل لصديقه ابتسامةً خبيثة لن يفهمها غيرُهما، وهو يقول:

- والنساء أيضًا يا إبراهيم.

ضحك الاثنان، واغرورقت أعينهما بدموع ضحكاتٍ عجوزة متقطّعة، لكنّها في آذانهم لا تفرق عن أصواتِ ضحكات شبابهما شيئًا. الشيخوخة لا تصيب كلّ الأرواح كما تصيب جميعَ الأبدان، شباب الطيّبين لا يرحل، هو فقط يغوصُ في أعماقهم، يغذّي أرواحهم التي لا تشيخ، لا يطفو إلّا في عيون أحبّاء يروْنهم كلّ مرّة كأوّل مرّة.

تنهّد إبراهيم وتوقّفت ضحكاته، سرح بنظرِه بعيدًا إلى أبعدَ من ثلاثين عامًا..

- والنساء يا إسماعيل، لكنّي لا أعرف ماذا أفعل؟ مِن ناحيتى لا يوجد أيّ اعتراض، يكفيني أنّه من طرفك، تعرفُ كم أتمنّى زواج البنتين ليستريح قلبي تجاههما.. لكنّك تعرف "منى" كما أعرفها، تخطّت الثلاثين لكنّها ما زالت بكرًا، وفكرة أنه أرمل وأبٌ لن ترضيها، خصوصًا وهي في مقارنة مستمرةٍ بأختها الصغرى، ستوجّه لنا الاتهامات المعتادة في التفرقة بينهما، لنصل إلى ما نصلُ إليه كلّ مرّة من تعبِ القلب والرّوح، ثمّ الرفض، كما أنّني عاهدت ربّي إلّا أغصبَ فتاةً منهنّ على الزواج.

نظر له إسماعيل نظرةَ أسى، هل عاقبته الأقدار بعدم الإنجاب أم كافأته؟ الإنجاب ليس بالنعمة في كلّ أحواله، بل قد يصل إلى حدّ النقمة في بعضها، يرى بعينيه معاناةَ إبراهيم مع ابنته..

- كما ترى وتحسب، فكلّ ما تراه سيكون خيرًا، كلّ ما كنت أتمنّاه أن يحضر لمقابلةٍ واحدة؛ علّه يكون هديةَ الأقدار إلينا ونحن برفضنا نقطع رزقَنا بأيدينا، الأقدار لا تكرّر الهدايا لمَن يرفضها، ولا تمنح النورَ لمَن أراد أن يحيا في الظلام، الكثيرُ ممّا نضيّعه عن جهل بقيمته لا تعوّضه الأيام.

لم يجدْ إبراهيم بعدَ ما قاله إسماعيل في حقّ الحاج ياسين إلّا أن يطقطق رأسه وهو يقول:

- سأفاتح "علية" في الأمر علّها تستطيع أن تؤثّر على ابنتها، وترضى بلقائه، وسأخبرك بما حدث ليلًا، سأنتظرك.. عليك دور شطرنج من أمس.

ضحك الاثنان ضحكةً لا تخرج من القلب إلّا في حضرة الصديق المرآة، تنظر إليه كأنّك تقف أمام مرآة روحك، هو أنتَ وأنت هو، كلّ الشوائب العالقة غسلتها أمطارُ الوفاء والتضحية عبْرَ سنوات من التمحيص الشديد والاحتراق في موقد المواقف، تنقّي القلوب والأنفس والأرواح، تصقل المرآةَ لتصفو صورةُ الروح المتطابقة دون الملامح؛ فتصبح أوضحَ وأزهى كلّما مرّت الأيام.

***

مَن يسعى دومًا إلى الظلام تاركًا كلّ طاقات النور؛ حتمًا سيموت قلبه متعفّنًا لم يمسّه ضياءُ الحبّ، ومَن تمسك أصابعه بناي مغلق فستنقطع أنفاسُه قبل أن تسمع آذانه نغمةً واحدة يطرب لها قلبُه.

اتّجه إبراهيم مباشرة إلى بيته ليزفّ الخبر لزوجته علّها تستطيع أن تقنع "منى" بالموافقة على رؤية العريس، يدعو الله أنْ يجعل فيه الخير ليرتاح قلبُه من ناحية ابنته الكبرى التي أرهقت روحَه وهو يحاول أن يسحبها برفقٍ من الكهف المظلم الذي استولى على روحها، لا يعلم مَن أرشدها إلى طريقه، أم أنّها هي مَن فتحته بإرادتها، يحلم أنْ يجدها في بيت زوجها تنعمُ بالرّاحة

والاستقرار بدلًا من القلق النفسى الذي يكسو قلبها، ويغطّي ملامحها الجميلة التي شوّهتها بالغيرة والعناد.

هل يوجد في الحياة مَن يفضّل الظلام على النور، حبْسَ الروح عن انطلاقها، الحياةَ على أرض تشقّقت تحت قدميه دون أن يهفو إلى قطرة مطرٍ تروي ظمأه؟

اصطحبته أفكارُه وتنهيداته المتكرّرة مع كلّ فكرةٍ طوال الطريق، ولم تستودعْه إلّا أمام باب شقته عندما استقبلته "علية" بالترحاب، لا تضنّ عليه بمحبّة أو تفاهم، تحنو عليه كأنّه ابنها الذي لم تنْجبه، وأخوها الذي لم تحظى به، وأبوها الذي فقدته، وهو رجل يعلم أنّ الرزق ليس مالًا أو ولدًا فحسبْ، يحمد الله أنْ أعطاه من الرزق في "علية" وإسماعيل ما قد يفيض على أهل الأرض بالخير، الزوجة الصالحة التي يبرق معدنُها ويزداد غلاوةً كلّما مرّت الأيام، والصديق الذي انصهرت روحاهما فصارتا روحًا واحدة.

لمحت "علية" في عينيه بريقًا كأنّ عينيه العسليتين تغرقان في بحرٍ من التفكير، أصبح ابراهيم من فرط حبّها له وطول العشرة كالبحر الصافي التي ترى ما بداخله دون أي عناء، ابتسمت له وعلى وجهها الكثيرُ من التساؤلات، بادرها هو بسؤاله:

- أين البنتين؟

- "أسرار" في كليّتها، ومنى عند خالتها.

أبدى إبراهيم امتعاضه وهو يردّد اسمها:

- محسنة!!

- هل لها خالة غيرها! تعلم مدى قربها منها، لا أريد أن أضيّق عليها الخناق، يكفيها ما هي فيه.

هزّ إبراهيم رأسه بأسفٍ حاول أن يخفيه عنها حتى لا يجرح مشاعرها، يخشى أن تكون "منى" اللّمسة السحرية التي ستُخرج الماردَ النائم لأكثر من ثلاثين عامًا في مِصباحه الذي لم يُغلق على الماضي بسهولة في جرّة الذكريات، لا يريده أنْ ينطلق الآن ليحطّم كلّ ما استطاع أن يرمّمه طيلة السنوات الماضية.. بادرها بخوف:

- محسنة أختك الوحيدة، لكنّني أخشى من علاقتها بمنى، محسنة لم تنسَ الماضي، وأخشى أنّها تريد أن تشارك "منى" في حصادٍ لم تشارك في زراعته، ولم تروِه بقطرة ماء واحدة، ولن تحصد منه إلّا المرّ والجراح.

تنهّدت "علية" تنهيدةً تحمل رائحة الحسرة والحزن الذي يملأ قلبها على تلك الأخوة الضائعة..

- كلّ ما يجول في خاطرك لا يترك عقلي، لكنّي أراها دومًا مهمومة، مَن في عمرها تزوّجن ولديْهنّ ذرية، الحمد لله.

لم يتخيّل يومًا أن توصف إحدى ابنتيه بتلك الكلمات، الحبّ المجرّد النقي من الجنس الآخر لا يقبع إلّا هناك، في قلب أبٍ لبناته أو قلب أمٍّ لذكورها، حبّ الوالدين هو الوردةُ الوحيدة التي لا تمتلك أشواكًا، تمنح عطرَها بلا قيْد أو شرطٍ أو ثمن، تسعد بالذبول من أجل نضارتهم، هل يُعقل أن يُقال هذا على منى؟! لقد كانت جميلة وقتها، لا يعلم لماذا فعلت ذلك بنفسها؟ يرى في عينيها انتظارًا لمجهول لا يقوى على جذبها بعيدًا عن أرصفته، بينما يخشى أنْ يمرّ سريعًا فيمزّقها، تمرّدت كثيرًا على نصيبها، وسابقت السنوات فسبقتها، حتى اتّهمها كلّ مَن حولها بالتكبر والغرور، هل كان عليه أنْ يرغمها على الزواج قبل أن يعبرَ عمرُها سنواتِ العشرين على بساط الريح مع سندباد الأحلام الذي لم يأت، عاد من تلك الأفكار ليتساءل: "هل يمكن لأنثى أن تحبّ رجلًا فرضته عليها الظروف، أم أنّ تلك الظروف ستصبح قشرةً شمعية سميكة لن تذيبها إلّا حرارة مشاعر مرتفعة غالبًا ما يضنّ بها الرجال؟"

لم يشدّ إبراهيم من أفكاره إلّا صوت "علية":

- لا أحد يفوته نصيبه، لن يهرب أحدٌ من قدَره، علّه خيرًا.

قالتها وهي لا تتوقّع المفاجأة التي سيفاجئها بها..

- علّه خيرًا، إسماعيل أحضر لمنى عريسًا.

- إذا تدخّل إسماعيل في أمرٍ يكون كلّه خيرًا.

أنقذها إبراهيم من عربة الأمنيات قبل أن تصل بها إلى سماء الأحلام، ثمّ تُسقطها أرضًا:

- أرمل، وعنده ولدٌ عمره ثلاث سنين.

لم تستطعِ السيطرةَ على نفسها، فضربت صدرها بكفّها عدّة مرّات..

- لا أظنّها ستوافق، خسارة.. تمنّيت أن تزور الفرحة بيتنا، رأيتني في تلك اللحظة أطلق الزغاريد، وأسقى الشربات، لكن..

ثمّ نظرت إليه بأسفٍ وحزن، نكّست رأسها في الأرض وهي لا تفكّر في شيء إلّا الحظّ العَثِر..

- حاولي معها، الرجل تاجر ثري، وستحيا معه في كرمٍ وسعادة، العمر يمرّ كالقطار السريع، وقطار شبابها قطعَ بضعَ محطّات، أختها لم تعدْ طفلة، صارت في العشرين، وجَمالها الفاتن يسرقُ منها الأعين في كلّ مكان، أنا لن أكرّر خطأي مع منى، إذا زار "أسرار" نصيبُها سأسلّمها إليه وأنا راض، لن أنتظرَ حتى أرى البنتين في نفس الحال.

أرادت أن تُسرّ له أنّ "منى" لا تترك لحظةً لا تقارن نفسها بأختها الصغرى، لكنْ ما عساها أنْ تفعل مع تلك الفتاة التي أغلقت قلبها وعقلها بأقفال، وألقت بمفاتيحهم حيث لا تعلم هي نفسها..

تتردّد روحها في هوّةٍ سحيقة لا تعلم "علية" مداها، كلّما حاولت محاصرتها بأسئلتها لتطمئنّ عليها فرّتْ منها دون إجابات واضحة، كأنّها هي نفسها تجهل الإجابة.

يعرف هو كلّ ما تعتقده "علية" سرًّا، يشعر بقلبه النقي أنّ "منى" حظيت بكثيرٍ من طباع خالتها، تريدُ أن تفرض على الجميع ما تتوهّمه لتستمتع بحيرتها، وحيرة مَن حولها معها.

***

القلوبُ كالبحار تتدفّق دماؤها كما تتدفّق الأمواج، تغسلها النّبضات كما تغسل الأمواج بحارها، تنبض دومًا لحبّ الحياة وليس لمعناها، تتفتح لكلّ ما هو صافٍ، وتشتاق لكلّ ما هو رائق، حتى تشفّ جمال الروح كما تشفّ مياه البحار الصافية عن أعماقها، انتبه الاثنان إلى صوت الباب يُفتح لتدخل منه "أسرار" الزهرة النديّة التي لم تتفتّح بعد، يلتفّ حولها النحل طمعًا في رحيقها، تأبى أن تتفتح إلّا لَمن يهواه قلبُها لتعطيه من الرحيق ما يشتهي وأكثر، يتهافت على خطبتها كلّ مَن تقع عيناه عليها، حتى من عِليةِ القوم وأغنيائهم في الإسكندرية، بالرغم من ضيقِ حالِ تجارة والدها، ورقّة معيشتهم، تعني لأبيها الحبّ والدلال والطيبة يعشقها كما لم يعشقْ أحدًا من قبل، شعر عند ولادتها بأنّ الله ألقى عليها محبّة منه، لم يرها أحدٌ إلّا ووقع

حبّها في قلبه، لن ينسى إبراهيم يومَ احتضنها ونظرَ في عينيها، فرأى ملائكيّة سماوية تخرّ لها القلوب والأرواح.

ألقتِ السلام، قبّلت خدَّ أبيها القبلةَ التي تحوّل قيظ أيامه إلى نسمةٍ من نسمات الربيع على بحر الإسكندرية وقتَ الغروب..

- عليكم السلام يا حبيبتي.. كيف حالك يا قمري؟

- الحمد لله، لكن مَن منّا القمر؛ أنا أم أنت؟ أنت مَن ينير سماءنا بالحبّ، ويمنح قلوبنا الطمأنينة، أنت الأبُ والأخ والصديق.

ضحك إبراهيم ضحكةً من قلبه، وابتسمت "علية" بدلال، لاحظت "أسرار" بوادرَ غيرةٍ تظهر في عينيها ووجهها لتضحك ضحكتَها الرائعة، وتظهر لآلئ فمِها، انتشر عبير ابتسامتها في المكان، وهي تغمز لأبيها بعيونٍ زرقاء احتوت بحرَ الإسكندرية بداخلها.

حظيت "أسرار" بلون البحر في عينيها، ووصف أعماقه في اسمها، وحظيت روحُها بصفاته.. هي سرّ النسيم العليل والرائحة الذكية التي تهبّ على حياة أبويها، روحُها تشبه أمواجه الهادئة في أيام الصيف وهي تستقبل أشعةَ الشمس كأنّه فتاة جميلة تصطبغ وجنتاها بالحمرة خجلًا من محبّيها..

- سأرضى بحُكمك يا عليّة، مَن يمكن أنْ يمتلك أبًا كإبراهيم، ولا يعشقه ويحبّه؟

ضحك الثلاثة ليقطع ضحكتَهم جرسُ الباب، ظهر "منى" على وجهها عبوس لسنواتٍ مُقبلة يُخرس أيّ بهجة في القلوب، ألقت السلام ثمّ اتجهت إلى غرفتها مباشرة، حثّ إبراهيم "علية" على النهوض خلفَها لإبلاغها بما اتّفقا عليه، لملمت "علية" ابنتها الباكية في أحضانها، ظهرت في عينيها دموعٌ حاولت إخفاءها..

- خيرًا يا "منى".. خيرًا.

وجّهت لها "منى" نظرات اتّهام لم تعدْ توجّه لها غيرها..

- مِن أين سيأتي الخير! لا أحدٌ في هذا العالم يشعر بي، يكفيكم حبّكم لأسرار، ودلالكم لها، والسعادة التي تنثرونها عليها وعلى أيّامها.. ولم لا؟!! أليست فتاتكم الجميلة الطيبة الصغيرة المدلّلة، تهواها القلوب وتتابعها الأعين، ولا تخرس عن صفاتها الألسنة..

اضطرت "علية" أن تبتلع دموعَ عينيها وهي تحاول أنْ تُخفي اختناق صوتها..

- هل يعي قلبُك ما تقولينه؟! أنا وأبوكِ لا نحبّك! أنت ابنتنا الكبرى التي جاءت بعدَ يأسنا من الذريّة، أنت ابنة عمري، وأختي قبل أن تكوني ابنتي، ثمّ إنّ "أسرار" هي مَن تمنحنا السعادة بمَرحها وروحها الطيبة، وهل يقلّ جَمالُك عنها شيئًا؟! يا فتاتي لكلٍّ جَماله، لكنْ تبقى القلوب هي مَن تشعّ النور لإظهاره أو تبعث ظلامًا لإخفائه.

خرجت من شفتي "منى" كلمتان حائرتان يبدو أنهما استقرّتا بينهما كثيرًا فلم تستطع إبقاءهما أكثرَ بالرغم من عدم رغبتها في نطقهما..

- لماذا إذًا؟

- لماذا إذًا!! ماذا تقصدين، أخبريني.. ألست أمّكَ وخزنةَ أسرارك، ودليلَ طريقك؟!

صمتتْ لتكمل "علية":

- لا تسمحي لأحدٍ أن يجعل منك موقدًا يحرق علاقتك بأختك، عندما نغادر أنا وأبوك الحياة لن يبقى سواكما، إنْ تفرّقتما لن تجدا مَن يهبكما الحبّ الخالص دون مطامع، وإذا اجتمع قلباكما فلنْ يهدمكما بشر.

استمعتْ إلى كلمات أمّها بسخرية وامتعاض، لا تدري أنّها ستعي الدرس يومًا، لكنْ متأخّرًا..

- أختي!! إنها السبب فيما إنا فيه، إتقانها لدور طيّبةِ القلب حبيبةِ الجميع لتخطفَ قلوبَ مَن حولنا جعلني في عزلة، تقف بجانبي فأختفي كما يُخفى البدر المحاق.

- لِمَ كلّ هذا الضيق من أختك؟ هل هي وسوسات خالتك التي تملأ أذنك بها؟ هل استسلمت لشيطانها، ونسيت ما علّمتك إيّاه طيلة عمرك؟

لا أرى سببًا يجعل النارَ تشتعل في قلبك على أختك التي تعاملك بالإحسان والحبّ إلّا إذا كان هناك ما لا أعرفه.

اجتاح القلقُ والتوتّر كلمات "منى" وهي تجيب:

- خالتي! وما ذنب خالتي فيما نقول؟ وما هو الذي لا تعرفينه؟

نظرتْ "علية" إلى ابنتها بيأس، تحاول أنْ تهدي قلبها للنور، تظنّها "منى" ساذجة، سيأتي اليوم وتعلم مَن الساذج، ربتت على كتفها بحنانٍ، أرادت أن يصلَ إلى قلبها علّه يدفئه ويخرجه من برودته..

- عمّك إسماعيل أحضر لك عريسًا.

لفتتِ الكلمات انتباهها، مضى وقتٌ طويل منذ أن تقدّم لها ذلك المدرس الذي رفضته دون أن تراه كغيره، فكأنّه كان يُمسك بمقبض باب حظّها فأغلقه خلفه، فلم تسمعْ من يومها عن مَن تقدّم ليطلب يدها.

لاحظت "علية" صمتَها، فأكملت:

- ليس من الإسكندرية، تاجرٌ كبير وثري من القاهرة، عمره لم يتجاوز الخامسة والثلاثين.. (ثمّ أكملت على استحياء) أرمل وعنده ولدٌ صغير. (لاحظت الحدّة والدهشةَ على وجهها، لكنها لم تكفّ عن الكلام) كانت أمّي- رحمها الله- تقول "البنت لا يجبُ أن تقطع رزقها بيدها" رأيي أنْ نراه

علّه خير، الماكينة التي تتوقّف عن العمل يسكن تروسها الصدأ، ثمّ يعلو صوتها وتتوقّف عن العمل، فلا هي استفادت ولا هي أفادت.

نظرتْ "منى" إليها، وسرحت بنظرها بعيدًا وهي تتمتم:

- هل توقّف حظّي العَثِر عند محطة المطلقين والأرامل!! أمري إلى الله، سأراه علّه يكون خيرًا كما تقولين.

***

قالوا قديماً "خيرُ الدقيقِ من المناخلِ نازلٌ، وأخسُّهُ وهي النُخالةُ تصعدُ"

اغترّ قارون بذهبِه فخسر كلّ شيء وابتلعته الأرض، اغترّ فرعون بجنده فخسر كلّ شيء وابتلعه البحر، فعند قمّة الجهالة يستحوذُ على قلوبنا الشيطانُ لتبتلعنا الهاوية.

لا تعرف أي رياح تلك التي ألقت ببذرة الحقدِ في قلب ابنتها، لكنّها تعرف أنّ محسنة شعرت بتلك البذرة، فباتت ترويها لتصير في قلبها شجرة لا تثمرُ إلّا حبّات الغيظ تجاه أختها الصغيرة، كمْ تخشى عليهما من حياةٍ قاسية تتلاعب بهما ليفترقا عن طريق الأخوة. سُرّت قليلًا بموافقتها، انطلقت وقلبُها يسبقها لتبشّره..

ظهرتْ على وجه إبراهيم علاماتُ قلق..

- هل تأكّدتِ من رغبتها في رؤيته؟ لا أريد أن أخسرَ ولو جزءًا من قلب إسماعيل بسبب إحراجها لنا.

طمأنته "علية" بقلبٍ مرتجف غير مطمئن، فمَن هذا الذي يطمئنّ لمنى وقراراتها المفاجئة!

انتظر إبراهيم صديقَ عمره بشوقٍ ليبلغه الموافقة، إنه رفيق شبابه الذي لا يسرّ لأحدٍ بمكنون نفسه وخاطره إلّا له، لم ينسَ له وقفته في أزمةِ زواجه الأوّل، هو مَن أشار عليه بالزواج من "علية" التي كانت- وما زالت- بهجةَ حياته بالرغم من شعوره بميْله تجاهها، لكنه فضّله على نفسه لينقذه من الأزمة النفسية التي أطاحت به في أيام محنته الصعبة.

أيّ قلبٍ يمكن أن يمتلك ذلك الحنان والحبّ الفطري، لقد مزّق أخوة دم بعضهما على مرّ التاريخ من أجل امرأة، ليأتي إسماعيل الذي وكأنّ بئر الحيرة هو مَن يخشاه ليفضّله على نفسه.

علتْ أصوات قطع الشطرنج تُرصّ على الرقعة، انطلق بخارُ الماء من البرّاد يعلن عن كوبيْن مميّزين من الشاي بالنعناع، أرسل بحر الإسكندرية القابع أمام الشرفة تحيّته المسائية نسمات عطرة، بشّر صديقه بموافقةِ "منى" على رؤية الحاج ياسين، انتشى إسماعيل بالخبر كأنّ "منى" ابنته هو، كان يخشى أنْ تغلق الباب أمام نصيبٍ يحسبه بابًا للسعادة، قد يكون تأخّرها خيرًا

لتحظى بالزواج من ياسين، لِمَ لا؟ الله وحده هو مَن بيده الأمر، فالأقدارُ هي خزائن الأعمار، وعسى الله أن يكون ادّخر لمنى في خزنتها هذا الكنزَ الثمين ليظهر في وقته، أخرج إسماعيل هاتفه..

- السلام عليكم. (لينصت قليلاً، ثمّ يتحدّث):

- سأهاديك بهديةٍ يا حاج ياسين، عروسٌ مكتملة الخلق والجمال، فتاةٌ لم تتزوّج بعد، ابنة صديقي الوحيد، ويمكنك اعتبارها ابنتي. (لينصت فترةً طويلة ويكمل) في انتظارك يوم الجمعة وقتَ الصلاة على خير.

تهلّل وجهه كأنّه طفلٌ حظيَ بملابس العيد لتوّه، وهو يخبر إبراهيم بموعد اللقاء يوم الجمعة، ويؤكّد على رجولة الرجل وكرمه وخلقه، يحاول أنْ يطمئنَ قلب صديقه القلق..

- أشعر أنها بشرة خير.

- اللّهم آمين.. علّها بشرة خير.. كم أتمنّى أنْ أطمئنّ على البنتين قبل أن أقابل وجهَه الكريم لأرتاح في مثواي الاخير، وكلٌّ منهما في بيت زوجها.

عاد إبراهيم بخياله، والطابيةُ تقبع في كفّه يديرها بين أصابعه كدورةِ الزمن التي قلّبته على كلّ الوجوه، كان يتمنّى أن تكون حياته مثل حركة تلك الطابية في خطّ مستقيم، لكنّها أظهرت اعوجاجَها له في سنّ صغيرة.

عانى الكثيرَ منذ وفاة إبيه وهو شابّ صغير ليس له من الدنيا سندٌ أو ظهر، إلى أنْ قابلت أمّه ربَّها راضيةً عنه تمامَ الرّضا بعد أن ستَّر إخوته البنات في بيوت أزواج صالحين.

راقب إسماعيل صديقَه وهو يعلم أين ذهب بخياله، الشاهدُ الوحيد على شقاءٍ ترك الزمنُ أثره على عينه وقلبه، عانى كثيرًا منذ أن ترك له أبوه تركةً كبيرة من لحم أمّه وإخوته الثلاثة، والتي لم ينازعه فيهنّ وريث، الأقارب لا يظهرون بعد الوفاة إلّا لالتقاط الغنائم، أمّا الحفاظ على الأعراض فيبقى لِمَن يهمّه الأمر.

ظهرتْ في عيني إسماعيل نظرةُ عطف حانية وهو يربتُ على يده..

- خيرًا، لا تقلق كلّ هذا القلق، تعلم أنني لم أحظَ بذريةٍ، وبناتُك هنّ بناتي، وبإذن الله لن يزوّجهما أحدٌ غيرك.

دخلت "أسرار" بصينية الشاي الساخن، تزيّنها أعواد النعناع الأخضر، وضعتها على المنضدة برقّة، ألقت السلامَ على إسماعيل بابتسامة طفولية، داعبها كما يفعل دومًا..

- سلمت يداك يا أسرار، شدّي حيلك؛ نريد أن نفرح بتخرّجك.

- إنْ شاء الله يا عمّي إسماعيل، استعدّ بالهدية التي ستشتريها لي ككلّ عام، لكنْ هذا العام هو الأخير، وعليك أن تثقل جيبَك.

أضاءت وجهَه ضحكةٌ لمداعبتها، تشعره بما يريد، لم يرزقْه الله بنعمة البنين، فتمسح كلّما رأته على قلبه بلمستها الحانية التي تطفئ لهيب شوقه لأبوّة لم تكتبها له الأقدار، يا لتلك الفتاة رقيقة القلب والإحساس، لو تمنّى ابنةً لن يتمنّى إلّا هي.. أسرار، صدق مَن أسْماها.. إنّها سرّ سعادة مَن حولها، تنشر عبيرَها ليمتدّ أمامها أميال، لكنّه عبير لا يستنشقه إلّا الطيّبون.

***

حرائق النفس لا تأتي من فراغ، إنّها كومة من أحطاب الغيرة جمعتها نفسٌ ملتهبة، نفخت فيها رياح الانتقام فأشعلتها، أولُ ضحاياها مَن أشعلها، لا يمكنه إطفاؤها مهْما عانى من ألمٍ أو ندم، فحرائق الانتقام إذا اشتعلت لا تنطفئ إلّا عندما تأكل ما تريد.

كلّما اقترب يومُ الجمعة المنتظر زاد قلقُ وتوتر "علية" من تقلّبات ابنتها، أشعلت في البيت حريقًا سترته بعقلها وحكمتها عن أنفِ زوجها حتى لا يشتمّ رائحته، المقارنة مستمرّة مع أختها الصغرى، ولا أحد يعرف السرّ في ذلك.

زادت نارُ الحريق التهابًا يوم الخميس قبل اللقاء بساعاتٍ بعد عودتها من زيارة خالتها، أعلنت أنها لن توافق على رجل تزوّج من قبل، ولديه طفل لتبدأ حياتها الزوجية كأمٍّ قبل أن تكون عروسًا. تتوقّع "علية" كلّ شيء منها

إلّا أن تخذل أباها أمام الرجال، خرجت لأوّل مرّة عن شعورها، قذفت بصبرها من داخل قلبها، ثمّ ألقت به في وجهها غيظًا مكتومًا..

- ماذا فعل لك أبوكِ لتضعيه في هذا الموقف وتصغرينه أمام الرجال؟! إلى متى سندور معك مُغمضين الأعين في ساقيتك التي لا تضخّ ماءً، ولا تروي عطشًا، إمّا أن تذكري سببًا يعقله رأس، وإمّا أن تذهبي من أمامي لئلّا تمتدّ يدي عليكِ لأوّل مرّة، علّكِ تفيقين من جنونك وطيشك.

وقع كلام "علية" في قلبها كالحطب، فزاد من اشتعال ناره، ارتفع صوتها وهي تتحسّس خدَّها بيدها..

- تمدّين يدك عليّ! لن أقابل هذا الرجل مهْما حدث، ومهما كانت الخسائر.

اشتدّ الحوار سخونةً بينهما، حاولت "أسرار" أن ترشد أختها للطريق الصحيح..

- ما رأيك يا "منى" في أنْ تقابليه حتى لا تضعي أبانا وعمّ إسماعيل في مأزق، ثمّ ارفضي بعدها كما تريدين.

تطاير من عيني "منى" شررُ غيرةٍ تشتعل في قلبها..

- ما شأنك؟ مَن طلب منك مشورة؟ أنت ما عليك إلّا الصمت، لا تخرجي من عالمك السحري لتنزلين إلى عالمي السخيف الذي لا يحوي إلّا رجالًا مطلّقين وأرامل، لو كان هذا الرجل جاء لخطبتك أكنتِ ستوافقين يا فراشةَ الربيع؟

ثمّ أشاحت بوجهها بعيدًا وهي تتمتم:

- حالي لم يقف إلّا بسببك.

ذُهلت "أسرار" من كلام أختها الذي لم تكنْ تتوقّعه، تحمل الكلمات رائحةً كريهة لكراهية تعفّنت في أعماقها، تشعر بعمق المسافة الفاصلة بينهما والتي تزداد مع السنين، لكنّها لم تتخيل كمّ الغيظ المكتوم بداخلها تجاهها، احتارت في عبارة "حالي لم يقف إلّا بسببك" ما سرّ هذا الاتهام؟ ماذا فعلت لتستحقّه؟ لماذا تكرهها أختها الوحيدة؟

هل ستحاسب على جَمالٍ منحها الله إيّاه، على عشر سنوات فارق بين عمريْهما، هي لم تؤذِها يومًا بقول أو بفعل، تتمنّى أخُوّتها التي لن تعوضها عنها أيّ فتاة مهما بلغت صداقتهما، لامست "منى" بكلماتها المتسرّعة قدمي "أسرار" في بئر الحيرة، تذكّرت يوسف وإخوته، لا يمكن أنّ عداوتهم له زادت عمّا في قلب "منى" لها، رائحة بئر يوسف وحيرته تملّكت قلبها وملأت صدرها، لم ينقذها من السقوط في دوامته إلّا صوت أمّها، تنظر الى ابنتيها نظراتِ حسرة وألم، حان وقت فتح الصندوق الذي كتمت فيه غيظَها طوالَ تلك السنوات، لن تستطيع السكوت أكثر..

- انتبهي لما تقولين. كانت أختك في العاشرة عندما كنتِ أنتِ في سنّها، تقدّم لخطبتك وقتها الكثيرون، أنتِ مَن ألقت بمفتاح حظّها مِن بين يديها

بعد أن أغلقتِ كلّ الأبواب دون سببٍ مُقنع، صبرنا كثيرًا وتحمّلنا أكثر، لكن يجب لذلك الصراع من نهاية. ستقابلين ذلك الرجل، وإن كان كما يصفُ إسماعيل ستوافقين رغمًا عنك، قد تتهمينني الآن بالظلم، لكنْ قد يتبدّل هذا الاتهام يومًا، لن أتركك بعد اليوم في متاهتك التي لا أعلم عنها شيئًا.

تعالت الأصوات، واشتدّ الحديث، آثرت "أسرار" الانسحاب بحكمة، فالبحر الذي يسكن بداخلها جعلها تتعلّم متى يكون المدّ والجزر، ترى الآن قلبَ أختها بلا ضلوع أو حواجز يدفع دماء الكراهية في شريان الأخوة ليصنع بقعة شديدة السواد، ترى في عينيها قسوةَ قابيل على هابيل لحظةَ قتله، وقسوة إخوة يوسف وهُم يلقونه في البئر. دخل الحاج إبراهيم بيتَه على أصواتٍ عالية لم يتخيّل يومًا أن تصدر من بيته، كانت أمّه رحمها الله امرأةً هادئة لم يُسمع لها صوتٌ، ضآلة تعليمها لم تمنعها أن تمسك بزمام الأمور معه، كوتدِ الخيمة القوية التي لم تعصفْ بها ريح أبدًا، إخوته البنات كنّ لا يفرقنَ عنها في الهدوء والاتزان، فكان بيتهم محلَّ إعجاب الجميع، وأخواته مرادُ حلالِ أفضل الرّجال، ارتفع صوته الذي أخرسَ الألسنةَ وهو يقول:

- هل جاء وقتٌ يرتفع فيه صوتُ نساء بيت إبراهيم وهو على قيد الحياة، أم أنّني مِتّ، وروحي هي مَن تقف بينكم الآن.. ما السبب لأسمع أصواتكنّ من مدخل البيت.

أسرعت "علية" لتستر لهبَ الحريق عن وجهه، تخشى عليه من الوقوع، فهمست "لم يحدث شيء".

اتّسعت عيناه وهي تدور بين عليّة ومنى، وعلا صوتُه أكثر:

- لا شيء! الأفضل أن يكون هناك شيء، إن لم يوجد فلن يمرّ الأمر بخير، سأعلّمكنّ كيف لا ترتفع أصواتكنّ مرّة أخرى، سأضطرّ لأوّل مرّة في حياتي لإظهار قسوةٍ لا توجد بداخلي.

ثمّ نظر إلى "منى" في ضيقٍ وعبوس، يسألها عن سبب ارتفاع صوتها على أمّها.

خرجت كلماتُها من بين شفتيها كالروح من جسدٍ كتبَ الله عليه ثقلَ سكرات الموت، لفحت الكلماتُ شفتيها وهي تقول له إنّها لا تريد رؤية ذلك الرجل ولا مقابلتَه، وأمّها تريد أن ترغمها على الزواج منه إن كان كما يصفُ إسماعيل، وأنّها على استعدادٍ لمقابلة الموت على الزواج من رجلٍ أرمل ولديه طفل، ثمّ فاضت من عينيها الدموع وهي تكمل:

- لا طاقة لي بتربية أطفال الآخرين، أرفض أنْ تعاملونني كعانسٍ ستقنع وتخضع إلى أيّ اختيار لمجرّد فكرة الزواج.

نظرَ إبراهيم لعليّة نظرةً فهمتها جيدًا، قلبه يتمزّق بدموع ابنته، إنّه في حيرةٍ من أمره، لا يريد أن يرغمَ "منى" على شيء، وفي نفس الوقت يشعر

أنّ الفرصة قد لا تعوّضها لها الأيام، كلّ ضحايا الأخطاء لم يواجهوا أنفسَهم أمام مرآتهم ليعرفوا مواطنَ ضعفهم، فيتجنّبوها، ومواطن قوّتهم فيظهروها، لكنْ أين لمنى بالحكمةِ وهي لا تواجه نفسها بأي شيء، تجعل من أختها شماعة تلقي عليها بفشلها، وعدم تقديرها لتصاريف الحياة.

ربتَ إبراهيم على كتف ابنته الكبرى، تنهّد تنهيدةً ثقيلة، لفّ يده حولها في حنان، وقال:

- كنت أتمنّى أن تكوني أكثر حكمة ممّا أنت عليه، تعرفي كيف تزِني الأمورَ بميزان حسّاس، تنظرين إلى ما وراء الأحداث، وتتعلّمين من تجارب الحياة، لكنْ للأسف حديثك لا يقطر إلّا تسرعًا وعشوائية. كيف تحكمين على شخصٍ لا تعرفينه، وتغلقين بابك في وجْهِ رزقٍ أرسله الله لكِ قبل أن تعرفي إنْ كان خيرًا أم لا، كيف تغيّرين وعدًا يمكن أن يضرّ الآخرين، أين الصبر والفهم وحسن الخلق؟

شعرتْ "منى" بأنّ كلّ كلمة من فمه إبرًا توخِز قلبها، ألهذا الحدّ يرونها بشعةً، حتى أبوها رفع عنها غطاءه، ظهرت على وجهها ملامح الحدّة وهي تقول بصوتٍ منخفض:

- لو كان هذا الرجل جاءَ لخطبة "أسرار"، هل كنت وافقت من الأساس؟



لبس إبراهيم عباءة الصبر لتستر ضيقَ نفسه، يلمح اتهامها يكسو عينيها..

- الحياة ليست لعبةَ مقارنة بيننا وبين الآخرين، وإلّا لتوقّف كلّ شيء في الكون، لو قارن إسماعيل نفسَه بي وهو لم ينجبْ، وملأ قلبه الغيرة والحقد والكراهية تجاهي لما كسب أخًا حقيقيًّا يمكن أن يدفع عمرَه فداءً له. ولو قارنت نفسي به لأنّه أغنى "منى" وأمهرُ في التجارة لخسرت كتفًا قويًّا يسند كتفي إذا طرحتني الدّنيا أرضًا، لو صاحبنا المقارنة سنموتُ وقلوبنا خاويةٌ من شكر الله على نعمٍ حجبت غيومُ الغيرة رؤيتنا لها، تمهّلي واعلمي أنّني لن أغصبك على شيء لا تريدينه أبدًا مهما حدث.

لم تعِ "منى" حرفًا واحدًا من كلامه، آذانها صمّاء وعيونها عمياء، وقلبها مغلَق، نزعت الغيرة حواسها..

- إن كان وعدُك هذا حقًّا فأنا من الآن لنْ أوافق عليه، ولا أريد رؤيته.

لم يتوقّع إبراهيم ردَّها بعد كلّ ما قاله، فخلع عباءة الصبر، وعلا صوتُه قليلًا:

- ألم تفهمي كلمةً واحدة ممّا قيل؟ لقد التزمتِ بوعدٍ إنْ لم يتمّ سيضعني وعمّك إسماعيل في موقفٍ مُحرج، الموعد بعد ساعات.

صمتتْ ولم تستطعِ النطق بحرفٍ بعد شعورها بحزن أبيها، فاضطرّت للرضوخ..

- سأنفّذ وعدي مِن أجلك، ومِن أجل عمّ إسماعيل، لكنّي لن أوافق.

انصرفت تحملها رياحُ الغضب إلى سريرها حيث ألقتها، بدأت في بكاءٍ مكتوم، لمحته "أسرار" بقلبها، لم تستطعِ الاقترابَ بالرغم من تمزّقها على حالها، تمنّت أن تربتَ على صدرها علّه يهدأ، تمنّت أن تمسح عن وجنتيها الدموع، وتصف لها كمْ هي جميلة، لكنّ القلوب تحمل، ولا يعلم غيرُ الله ماذا ستلد.

***

ما أقسى الليالى المُرعبة التي تعصف فيها رياحُ الخوف بالقلوب، تتساقط الأحلامُ والأفراح كأوراقِ الخريف الجافّة فتأخذ في طريقها الطمأنينة إلى حيث لا يعلم أحد، تتعلّق القلوب بأمل الربيع يحمل معه روائحَ الزهر والمطر ليأتي السؤال.. هل لكلّ خريفٍ ربيعٌ، أم أنّ الخوف كالعمر إذا جنّ عليه الخريفُ فلا ربيعَ له؟

مرّ الليل كشبحٍ سكنَ البيت ليخيف ساكنيه، فأغمض الجفون إلّا جفنها، تتجرّع مرارة سبعِ سنوات تحاول أن تخرجَ من قلب ابنتها بذرةَ شرّ لا تعلم مِن أين أتت، تخشى أن يُعيد الماضي أسطره التي كتبها عليها من

قبل، تخشى على الصغرى من الوحدة، تقدّم لها الكثير لكنّها ما زالت ترفض لتتيح الفرصة أمام أختها، حتى الدكتور هشام ابن محسنة الهائمُ بها حبًّا منذ طفولتها؛ رفضته، لم تهدأ محسنة إلّا بعد أن أشعلت نارَ الغيرة بين الأختين، وروت بذرةَ الشرّ لتكبر وتتفرّع.

سمعت "علية" أذان الفجر، فقامت وأيقظت إبراهيم، صلّت ودعتْ بصلاح الحال والهداية لمنى التي يجهل الجميعُ أنّها لا تتمنى في هذه الدنيا إلّا أن يحبّها هشام ابن خالتها كما تحبّه، إنّه سرّ قلبها الذي لم تبحْ به لأحد إلّا خالتها. لقد شبّت على هذا الحبّ فلم تذقْ منه إلّا المعاناة، ظلّت تنتظره بوعدٍ من خالتها إلى أنِ انسحب منها خيطُ العمر لتطردها مرحلة العشرينيّات، وتستقبل أسرار، وكلّما رأت هشام يتبعها بقلبه قبل عينيه تشعرُ أنها سرقت منها حلمَ عمرها، لم تستطع السيطرة على مشاعر غيظٍ بدأت نبتة صغيرة، ثمّ تحوّلت بداخل صدرها إلى غابةٍ عميقة تنفث فيها حيّات الغضب والكراهية سُمّها.

اقترب الموعد مع انتهاء صلاة الجمعة، انشغلت "علية" و"أسرار" في المطبخ لإعداد الغداء، ومنى في غرفتها تهيأ نفسها لاستقبال العريس، تصاعدت أبخرةُ الطعام الإسكندراني الجميلة من الحلل القديمة مع أصوات الترحيب بالضيف الذي استشعر إبراهيم قدرَه من أوّل كلمة، أراد أنْ يُطمئِن عليّة، يعلم أنّ قلبها يتحرّق شوقًا..

- كيف هو الحال؟

- كلّ الامور بخير، الطعام جاهز، وسأرسل "منى" بالقهوة حالًا، طمنّي أنتَ على العريس؟

- ما شاء الله، رجل وفّاه إسماعيل حقَّ وصْفه، عندما رأيته لأوّل وهلةٍ أغمضت عيني، ودعوت الله أن يجعله من أهل بيتنا.

ثمّ أهدى "أسرار" نظرةَ حبّ وتقدير ليكمل:

- لا تظهري اليوم يا حبيبتي، تفهمينني أليس كذلك؟

ثمّ طلب منها أنْ تنادي أختها ليذكّرها بكلمتين علّهم يرشدونها للصواب. سمعت "أسرار" صوته يتنهّد وهو يردّد "لكنّ الذكرى تنفع المؤمنين". جاءت إليه يبدو على وجْهها ما يحمله قلبُها من عدم رضا، ضمّها إلى صدره آملًا أن تصل فرحةُ قلبه بالرجل إلى قلبها..

- الرجل فوق ما كنّا نتخيّل، شديد الوسامة والرجولة والكرم والأصل.

- أنا عند اتفاقي معك يا أبي، سأدخل كما اتفقنا، لكن كلّ ما ذكرته لن يغيّر من الأمر شيئًا.

- كما تشائين، لكن أعطي نفسَك فرصة للتفكير الرّزين الهادئ، إنه رجل قد لا تعوّضه الأيام لكِ مرّة أخرى، ولو اعتبرتِ ابنه اليتيم هدية من الله

يمنحكِ ثوابها الجنة ستوافقين وتسعدينا وتسعدي نفسك، تذكّري أنني لم أقصرْ معك في نصح أو رأي، فلا تلوميني في يومٍ من الأيام.

ازدادت عجرفتُها وهي تكرّر بأنّ الاعتراف بالحقّ أفضل وهي لن تربّي أبناء غيرها. هزّ رأسه بيأس، انصرف إلى حيث يجلس ضيوفُه في صالون الاستقبال، لم تمضِ إلّا دقائق لتخرج عليهم "منى" بوجهها المتجهّم تحمل صينيةَ القهوة، وضعتها على المنضدة تحاول ألّا ترفع عينيها تجاه ياسين، بينما رمَقَها هو بطرف عينيه، دار حديثٌ طويل لم تحاول الاشتراك فيه، ظلّت على حالها لا تحرّك ساكنًا بالرغم من محاولات الجميع، حاول ياسين أن يسمع صوتَها، لكنِ انتهت محاولاته بالفشل، التفّ الجميع حول منضدةِ الطعام فيما عدا "أسرار"، أمرَها أبوها بالاختفاء حتى لا يقع نظرُ ياسين عليها فلبّتِ الأمر. ظنّ صمتَها في بادئ الأمر خجلًا شديدًا، لكنْ تجاهلها وتحوّلها لقطعةِ صخرٍ صمّاء لا تسمع ولا ترى، قال الكثير، مَن قال إنّ الجَمال جمالُ الوجه، الجمالُ يتقلّب بين حينٍ وآخر، ويبقى القبح وحدَه راسخًا في النفوس.. جرى الوقت سريعًا.

انصرف ياسين يصحبه إسماعيل، وما أنْ ركبا السيارة حتى سارع بسؤاله عن رأيه، ضحك ياسين ضحكةً باهتة زادت من لمعةِ عينيه السوداء، ظهرت على وجهه بسمةُ مكرٍ طفيفة وهو يقول:

- الحقّ أم المجاملة؟

- الزواج لا يكون فيه إلّا الحقّ، ليست نزهة ستنقضي بانقضاء الساعات، إنه ارتباطُ عمْر.. الزواج رباطٌ وميثاقٌ غليظ.

- الفتاة جميلة، وسنّها مناسب جدًّا، أكثر ما أعجبني أهلُها، الطيبة والارتياح اللذان شعرتُ بهما أعتقد أنني لن أجدهما في بيتٍ آخر، لكن أعتقد أنّ الفتاة لم توافق بظروفي.

امتعض إسماعيل وهو يردّد "كلّ شيء نصيب".

- ليس هذا ما قصدته، يجب أن أتأكّد أنّ المبدأ مقبول بالنسبة للفتاة التي لم تنطقْ بكلمة واحدة تجعلني أعلمُ هل هي موافِقة أم مغصوبة؟ أتمنّى أنْ تكون هناك مقابلة أو أكثر حتى أشعر بالاطمئنان، أتأكّد أنّها تتقبلني بكلّ ظروفي، لم أكذبْ في شيء قبل أن أبحث عن زوجةٍ لي، أبحث عن أمّ لأحمد الذي لا يعرف أحدٌ في هذا الكون غلاوتَه في قلبي وحبي له، إنه روحي التي أحيا بها، النفَس الذي يدخل صدري، لن أتحمّل عليه ألم أو عذاب، لو اشتكى يومًا.. سأموت أنا.

- ما تقوله هو عينُ العقل، سأتكلّم مع إبراهيم، وأعرف ما في الأمر.

- وأنا في الانتظار بشعورٍ لا أعلم مصدرَه يا إسماعيل.

نظر له إسماعيل نظرةَ استغراب، فأكمل:

- أشعر أنّ لي في هذا البيت شيئًا لا أعلمه، شيء يشدّني إليهم كأنني أعرفهم منذ سنوات، سأكون في غايةِ السعادة إن كان صمتُ الفتاة خجلًا ليس رفضًا.

لم يستطعِ الصبر إلى الصباح، اتّجه مباشرة إليه ليجده في حالٍ لا يُحسد عليها، جلس بجانبه صامتًا، تنهّد إبراهيم تنهيدةً حارقة من قلبٍ يشتعل غضبًا لا يستطيع إخراجه..

- لا أعلم ماذا أقول! لم توافق، ترفض بإصرارٍ لا أعلم مصدره، فتاة غيرها كان يجب أن تسعدَ بمثل هذا الرجل. (سكت دقائق، ثمّ التفتَ له، وسأله) ما رأيه هو؟

- يتمنّى نسبك يا إبراهيم، قال لي بالحرف الواحد "أشعر أنّ لي في هذا البيت شيئًا لا أعلمه، شيء يشدّني إليهم كأنني أعرفهم منذ سنوات، وسأكون في غاية السعادة إن كان صمتُ الفتاة خجلًا ليس رفضًا".

أظنّه فهمَ رفضَها، إنه تاجرٌ يفهم ويعي أنواع البشر، المشاعر يا إبراهيم كالهاتف ليس هناك استقبال دون إرسال، ما رأيك لو تناديها، سأتكلّم معها علّ الله يجعل منّي سببًا لإقناعها.

دخلت "أسرار" تحمل صينية الشاي، طلب منها أبوها أن ترسل له منى، حاول إسماعيل بكلّ ما يمتلك من حذر أنْ يعرف سببَ رفضها دون أن يجرحها، يعلم أنّ جراح النساء في تلك الأمور لا تطيب.

أجابت بصوتٍ منخفض لا يخلو من الإحراج أنّ رفضها لكوْنه أرملًا وأبًا لابن:

- يا ابنتي، زيجات الشباب اليوم لا تستمرّ شهورًا، تزوّجي رجلًا يعرف كيف يصونك ويحترمك، رجلًا يراكِ نصفَه الذي لا يقوى على الحياة بدونه، لا يتبدّل ولا يتغيّر مهْما تغيّرت عليكِ وعلى ملامحك الأيام، يحبّك في شبابك، ويرحمك في شيخوختك. لنْ نخسر شيئًا إنْ قابلناه مرّة أو مرّتين ليكون رفضُك على أساسٍ حتى لا نندم على ضياع الفرصة، ما رأيك؟

امتعضت منى، تتمنّى أن تنتهي المقابلات حتى تخلو لهشام، تخشى أنْ يترامى إلى أذنيه أمرها، لكنّها لا تستطيع أن تحرج عمّ إسماعيل بالذات، هزّت رأسها بالموافقة، ربتَ على كتفها بحنانٍ أبويّ وهو يقول:

- بارك الله فيك يا ابنتي، ورفعَ قدرك كما حفظتِ لي قدري، لن ننتظر ليوم الجمعة؛ سأحدّد يومصا وسط الأسبوع كعصر الثلاثاء.

حاولت "علية" كلّ يوم من الأيام الأربعة الثقيلة أن تقنعها بالتأنّي، الوقت يمرّ ولا يستطيع أحدٌ السيطرة عليه، والشباب يولّي في غفلة من الإنسان، بينما

هي تتمزّق بين رغبتها في امتلاك هشام، واللحاق بتلك الفرصة، سماء حظّها أمطرت لها كثيرًا، لكنْ يبدو أنها اقتربت من الجفاف، ولعلّ ما يحدث الآن آخر أمطارها، تعي دواخلها أنّ أبويها على حقّ، وما أن يبدأ النور يضيء في روحها، إلّا وتأتي زيارتها لخالتها تحصدُ كلّ شيء أمامها، وتجفّف أيّ قطرات حبّ يمكن أن تجري في قلبها ليعيد له نبض الحياة. تجهل أنّ محسنة تريدها بوارًا تعاني من تشقّقات الروح لتوهمها أنّ "أسرار" هي مِن بنت السدود في طريق طوفان الخير الذي كُتب لها، اتّخذت من أذنيها موقدًا تُشعل فيه نيرانَ الحقد لتحوّل حياة "علية" إلى سعير. وهي لا تدري أنّ مَن أراد الانتقام؛ فعليه أن يشعل لنفسه جمرًا قبل غيره.

***

يقول محمود درويش: "الحبّ الأوّل لا يموت، بل يأتي الحبّ الحقيقي ليدفنه حيًّا".

الحبّ سرّ الأسرار "إنْ أحببنا مَن لم يُحبّنا نشقى شوقًا، وإنْ أحبّنا مَن لم نحبّه نشقى أسفًا، وإنْ أحببنا مَن يحبّنا نشقى غيرةً وعنادًا وفُرقة"

كأنّ الحبّ والشقاء اجتمعا في قلب الإنسان يضخّهما معًا ليصنعا الحياة.

خرجت "أسرار" من باب كلية الآداب بجامعة الإسكندرية لتلمحه هناك على الرصيف المقابل لباب الجامعة، اعتادت على وجوده حولها في كلّ

مكانٍ منذ نعومة أظافرها، أسرع نحوَها بكلّ ما يمتلك من طاقة حبّ، قلبه الأبيض لا يرى غيرَها، البلّورة الوحيدة التي يمكنها أن تشطرَ بياض قلبه إلى سبعةِ ألوان مُبهجة يرى مِن خلالهم وجهَ الحياة الملوّنة بعيدًا عن الألوان الرمادية التي يحياها في أيّ مكان بعيدًا عنها هي أسرار. اشتعل وجهها وهي تسمع ضحكاتِ صديقاتها، وتغامزهنّ عندما رأوه، يعرفْنه جيدًا، ظلّ "أسرار" الذي لا يفارقها حتى عند غياب الشمس.. ارتفعت ضحكاتهنّ أكثر عندما شعرنَ بخجلها، فهمَمْن بتركها وإفساحِ المجال لهشام.

وقف أمامَها يحدّثها بقلبه لا بشفتيه، عيناه لا تتحوّل عن عينيها، شوقه إليها يملأ صوته، لا تغيّره أيام، ولا ينقصه رفض، كلماته ترتعشُ من حمّى حبّ أصابت قلبه وتأبى الشفاء، لم تملّ عيناه يومًا من التهام تفاصيلها الرقيقة الدقيقة، ولونها الأبيض بحُمرة، عينيها الزرقاء الصافية التي لا تشبه بحرًا أو سماءً، شعرها الذي- وبالرغم من طرحةٍ تلتفّ بعناية وأدب حول وجْهها وعنقها- يراه بخصلاته السوداء الناعمة المتلاحقة.

مَن قال إنّها تشبه البحر.. إنّها البحر

أرادت "أسرار" أن تُعجّل بإنهاء اللقاء..

ترى مَن يشقى أكثر؟ مَن يحبّ بعنف، أم مَن يعلم حبّ مَن أمامه، وشقاءه ويأبى قلبُه التجاوب، يمنعه حائطٌ بلّوري شفّاف عن شلال حبّ، فلا يقوى

على مدّ يده، بالرغم من عطشه وجفاف قلبه إلى قطرة حبّ حقيقيّة، لكنْ على أن تكون متبادلة.

ابتسمتْ له ابتسامة ودّ خالص يملأ قلبها، لكنّه ليس كما يريد، سألت عن حاله وحال خالتها، أطال هشام النظرَ إلى وجهها الذي يتمنّى ألّا يفارقه لحظةً من عمره قبل أن يجيب..

- وحشتيني.

نظرت "أسرار" إلى الأرض، ووجنتاها تشتعلان نارًا..

- لا داعي لهذه الكلمات بيننا، إنّها تخجلني.

سبحَ في عينيها بنظرةٍ شعرت "أسرار" أنّها نهاية حبلٍ طويل كان بيديها ينفلتُ الآن من بين أصابعها..

- لا داعي!! هل هذا كلّ ما تستطيعينَ قوله بعد كلّ تلك السنوات، نفد صبري ولن ينفد حبّي، ألم تفكّري يومًا أنّني تخطّيت الثلاثين بعامين، ولم أقوَ على الارتباط بغيرك لأنه لن يوجد هنا غيرك.

ثمّ أشار إلى قلبه في مشهدٍ جعل قلبَ "أسرار" يتمزّق، تمنّت البكاء على صدره الذي تعلم أنه يحمل قلبًا يعشقها، تحاول أن تفهمه حقيقةَ قلبها، ما عساها أن تقول، تعلم أنّه يحبّها حبًّا صادقًا غاليًا، لكنها لا تستطيع التجاوب

بالرغم من اعتيادها عليه منذ أن تفتّحت عيناها للحياة، ترى الحبّ حادثة تقعُ فجأة دون أيّ مقدمات أو أسباب، تترك القلوب تتردّى بين الحياة والموت، بين النعيم والعذاب، بين السعادة والشقاء. لو يعلم أنّها في انتظار تلك الحادثة أكثر ممّا تنتظر أي شيء، شعوره نحوها وبريقُ عينيه الذي لا يلمع إلّا لها يجعلها تشتاقُ أكثر إلى بريقها الذي سيلمع بداخل قلبها، تأبى أنْ تعيش ببريقه هو، تريد بريقًا متبادلًا حتى لا تطفئه الأيام.

فارقٌ كبير بين أنْ نحيا مع مَن نحبّ، أو أن نتعايش مع مَن يُحبّ، الحبّ في ذاته سعادة فإنْ كان من طرفٍ واحد تحوّل إلى تعاسة. حاولت أن تنطق أيّ كلمات تجعله يفهم ما هي عليه، فلم يمنحها تلك الفرصة..

- أنتِ تظنين أنك لا تحبينني، أمتأكّدة أنتِ من هذا؟!

ستعلمين يومًا أنّ حبّي يقبع بقلبك كنواةِ نخلة عملاقة غُرست بداخله، لا يظهر أثرُها إلّا بعد سنوات، لكنّها عندما تخترق الأرض ستصبح في شموخ الجبال.

وأمام صمتها أكمل:

- ما رأيك في أنْ نرتبط بخطبةٍ يمكن أن تخرج من قلبك ما أعلم يقينًا أنّه موجود. خطبة لكنها ليست وعدًا بالزواج، مجرّد ترمومتر لقياس حرارة قلبك المشتعلة، والتي تأبى أن تظهر على جبينك.

تنهّدت "أسرار" تنهيدةَ مَن لا حيلة له في قلبه، هشام ظلّها الذي لم يفارقها يومًا، اليد الممسكة بها دومًا، والتي لو تركتها ستشعرُ أنّها صخرة انحدرت من أعلى جبل فتحوّلت لفتات، لكن ليست هي تلك المشاعر التي تتمنّاها، الأمواج الهادئة التي تتحرّك في قلبها تجاهه لا تقوى على تحريك مركب حبّها الضخم الذي يقبع بداخلها..

- هشام، أنتَ أقرب إنسان إليَّ، أنتَ مَن أجري نحوه لحظة خوفي وألمي وعجزي، فيضمّني في عباءة تحوي أمانَ العالم، أنت عمري كلّه بسنواته وجَماله، لكنّي لا أستطيع أنْ أشعر بما تشعر به تجاهي.

تبدّلت كلّ ملامح الحبّ التي تحتلّ وجهه بعد كلماتها إلى ملامح حزن يقطر دمًا من قلب ذُبح صاحبه للتوّ، فقال:

- الحبّ الحقيقي هو الذي يولدُ من رحم القلب.. القلبُ لا ينجب إلّا مرّة واحدة حبًّا حقيقيًّا واحدًا، وما عدا هذا فهي مشاعر متبنّاة لا تحظى بنسبٍ ولا ميراث، صحيح أنّ الحبّ لا يقتل لكنّه يعلّقنا بين الموت والحياة، وإلى أن تعلمي سأبقى في انتظارك معلقًا، لكنْ أقرب ممّا تتخيلين، وإنْ لم تجديني يومًا فهذا لا يعني إلّا أنه قد فارقتني الحياة.

قالها، وهو يبتعد ويفسح لها الطريق.

***

لوْ كنت أعلم أنّني سأذوب شوقًا.. وألمًا

لو كنت أعلم أنّني سأصير شيئًا من عدم؛

لبقيت وحدي، أنشد الأشعار في دنيا.. بعيدة

وجعلت بيتك واحةً أرتاح فيها.. كلّ عام

وأتيت بيتك زائرًا كالناس يكفيني السلام.. "فاروق جويدة"

شاردة هي في كلّ ما قيل...

لم يقطعْ حديث إبراهيم مع إسماعيل وياسين إلّا المفتاح يدور في الباب لتدخل منه وتلقي السلام، همّت بالدخول إلى حجرتها فاستدعاها الحاج إبراهيم لتلقي التحية، ولِمَ لا وهو يرى في وجه "منى" ما يعرف نتيجتَه من الرفض المحقّق.

آخرُ ما تمنّته في تلك اللحظة المشاركة التي لو علمت حقيقة المجهول ما أقدمت عليها، كلّ ما أرادته أن تلقي بجسدها الحائر على سريرها ليحتضنها فتطمئنّ، تخشى من اختفاء هشام من حياتها، هل يُعقل أنّ قلبها ينبض داخلَ ضلوعها بحبّه نبضًا خفيًّا لا تشعر به؟! أنْ يكون حبّه قد تسلّل إلى خلاياها دون أنْ تشعر كالسرطان، لا يؤلم ولا يظهر إلّا فجأةً ونحن على مشارف فقدان الحياة؟! أنْ تعيش عمرًا تبحث عن بريقها وهي تجهل أنّ بريقًا أجمل وأقوى يلمع في قلبها ولا يصلها وميضُه؟

دخلت على استحياء تمتدّ أطراف أصابعها الرقيقة للضيف بسلامٍ عابر لم تعلمْ لحظتَها أنه سيكون كلمة سرٍّ تفتح أمامها بئر الحيرة والندم معًا في آنٍ واحد، لامست يديها يداه لتشعر بإحساس تمنّته كثيرًا في أحلامها، تلك الأحلام التي ينسجها خيالُ الفتيات حول الرجل الذي سيخطف قلبها وروحَها من نظرةٍ أو لمسة يد، تمنّت للحظة أن تبقى يداها في يديه عمرًا، رفعت رأسها لترى الرجلَ الذي أسرى تلك الرّعشة في بدنها لتلتقي أعينهم.. كان طويلًا مهيبًا خمريّ البشرة، أسود الشعر، له عينان سوداوان واسعتان. لا يوصف بوسامةٍ ولكنْ بجاذبية شديدة، تضيء وجهه ابتسامة تخرج من شفتين فوق ذقنٍ خفيفة في ثقةٍ وهدوء وأدب شديد.

لم يستطعْ هو بالرغم من حُمرةٍ خفيفة لفّت ملامحه أن يزيح عينيه عن عينيها اللذين سحباه، وكأنّهما دوّامتان عميقتان. انتبه كلٌّ منهما لطول بقاء تعانق أيديهما، ونظرة غير قصيرة سرتْ بينهما، فابتعدت لتغيبَ عن الأنظار، دخلت حجرتها وفي رأسها دوارٌ، وفي عقلها حيرة.

منذ لحظات، تمنّت أن تلقي بجسدها على سريرها ليحتضنها، الآن لا تريد أن يلمس يديها أو ترى عينيها أيُّ شيء حتى لا يتسرّب من قلبها هذا الإحساسُ البديع الذي تستشعره لأوّل مرّة.

مَن هذا الرجل الذي أطلق نحوَها سهمًا لم تستطعْ تفاديه، أصابها لتنزف عروقُها لحنًا عذبًا تخاف أن تصلَ أنغامه إلى آذانٍ غير آذانها، وعطرًا تخشى

أن تفوح رائحتُه لكلّ مَن في البيت. لم تقابل من قبل مَن شعرت نحوَه بهذا الشعور حتى سكنها اليأسُ من حادثة حبّ تخطف روحها وقلبها، فلمَ الآن؟ وتجاه مَن؟

هذا الرجل جاء يخطب أختها، هزّت رأسها لتفيق، يجب أن تنسى مقابلته وإحساسها، يجب ألّا يشعر أحدٌ بأيّ شيء، لا يعقل أن تعجب برجلٍ في عمرِه وظروفه.. أفكارُها ومشاعرها تتصارع.

لم يسمع هو بعد لقائها شيئًا ممّا يُقال، رأسه يغوص في بحرٍ عميق من الأفكار يسدّ آذانه عن أيّ صوت، وعينيه عن أيّ رؤية إلّا رؤية عينيها، يشعر أنّ شيئًا اختُطف من داخله.

مَن هذه الفتاة الجميلة التي ظهرتْ فجأة واختفت فجأة لتحمل ما اختطفته منه وتغيب؟ مَن التي امتدّت يدها إليه فشقّت صدره في لحظة، وحملت قلبَه عن طيبِ خاطر منه، ورحلت؟

عروس البحر التي وصفتها الأساطيرُ جاءت لتسحبه داخل أعماق بحرٍ تلامس أمواجه وجهَه الآن؟ أم الجنيّة التي تهوي بقلوب الرجال؟

لم يشعرْ إلّا بيدٍ توضَع على كتفه، ويوجّه له سؤال لم يسمعه..

- اؤمرني يا حاج إسماعيل.

- سيكون الغداء عندي يوم الجمعة القادم.

هل غاب فترة مناقشتهما عن الوعي فلم يسمع إلّا صخب أمواجها حتى بعد أنْ غابت، أفاق من غيبوبةٍ هامَ فيها على وجهِه لدقائق استشعرَها ساعات، منذ قليل كان يتمنّى الرحيل من هذا البيت، الآن كلّ ما يريده نظرة أخرى، كأنّ عينيها إدمانٌ انتشر في دمائه، ثمّ بكلماتٍ قليلة كالمُخَدر أجاب:

- بعد إذنك، وإذن الحاج إبراهيم الجمعة القادم سيكون الغداء عزومتي لكم في مطعمٍ من مطاعم السمك الشهيرة هنا.

هل ظنّ أحدهم أنّ تلك العزومة رغبةٌ في التقرّب من "منى"؟!

إنّها رغبةٌ ملحّة من داخل صدره تدعوه ليراها مرّة أخرى، يرى التي خطفت قلبه، وعادت إلى أعماق البحر، وتركته وراءها خالي الصدر والنبض. توقّفت الدماء في عروقه، ولن تجري مرّة أخرى إلّا برؤياها لتغذّي روحه التي حُرمت من تلك المشاعر الرقيقة، امتدّت خيوطها بداخله لتغزل نسيجًا كساه برداءِ السعادة والنشوى.

لم يعدْ ياسين من الإسكندرية بعد تلك اللّمسة إلى القاهرة بالرغم من عودة جسده، ولم تبقَ روح "أسرار" بالإسكندرية، بل سحبتها يديه معها فتسلّلت إلى خلاياه لتمنح جسدَه الخالي من الروح حياةً لتحرسه روحها الشفافة إلى أن يجيء. وكما عاد ياسين عادَ هشام، ترك روحَه وقلبه هناك بين يديها وفي عينيها، ورحل، أطالَ البقاء بلا أدنى فائدة.

مَن قال إنّ الحبّ يجب أنْ يكون بكبرياء؟ الحبّ هو الكبرياء، فلا معنى للحبّ إن لم يحرص مَن نحبّهم على كبريائنا.

تلقّته أمّه بعيني صقر، تلحظ كلّ صغيرة يمكن أن تخدش أمنَ صغاره، الفريسة الوحيدة التي ترقبها من بعيدٍ بيت "علية" وإبراهيم، ستحلّق كثيرًا بجناحي الفرح عند انهياره، ستقف بعيدًا وتتأمّل رفاتِ حياتها وهي تلتهم لحمَ قلبي ابنتيْها.

- ماذا بك يا هشام؟

رفع هشام رأسَه ليطلّ في عينيها الماكرتين، يرى فيهما كلّ ما تريد أنْ تُفصح عنه:

- لِمَ السؤال وأنتِ تعرفين؟

لم تستطعْ محسنة إلّا أن تنكّس رأسها قليلًا حتى تغيب عيناه عن عينيها:

- عندي نبطشيّة في المستشفى لمدّة أسبوع.. لا تقلقي.

دخل هشام إلى غرفته التي تحتلّ جدرانها صورها من منبَتها لشبابها، أخرج من الدولاب شنطةً صغيرة جمعَ بها القليل من ملابس سيحتاجها لأسبوع، حاول أن يجمعَ فيها شجاعته وكبرياءه، فأثقلت الشنطة صدرَه كأنه يحملها على ضلوعه. ألقاها بعصبيّة وهو ينظر الى المرآة ليلمح عينيها فيهما، ويسألها: لماذا؟ لكنّها لم تُجِب.

لحقته محسنة، وفي يدها كوبٌ من الشاي أعدّته له، رأته أمام مرآته في تلك اللحظات فابتعدت عن باب الغرفة حتى لا يراها، ويعلم أنها رأت لحظةَ انكسار قلبه.

***

سيظلّ الصراع بين الضعف والقوة داخل نفس الإنسان طالما بقيتْ أنفاسه ككفتي ميزان.. نظهر الضعف خضوعًا وبكاءً، نظهر القوة عزةً وهيبة، أو نظهر الضعف وداخلنا يضجّ بالقوّة.

ليبقى إظهارُ ضعفنا قوّة هو أقسى صراع يُحطّم دواخلنا.

مرّت الثلاثة أيام سنواتٍ طويلة تحاول فيها جاهدةً أنْ تنفض عن رأسها إحساسَها العميق به، تحاول دفعه عن رأسها، لكنْ أين لها بتلك القوى؟ خارت قواها أمامَ أوّل ضعفٍ عاطفي ينتابها في حياتها، الضعف الذي ستبني حوله سورًا زائفًا يُخفيه عن الجميع، تجهل أنّ الشيء الوحيد الذي دفعه للحضور مرّة أخرى هو الطمعُ في الإحساس بالطيف الساحر الذي ربط عينيه بعينيها، الشعور بالرعشة التي سرتْ بينهما، الدخول إلى المجال الذي فتح دوائرَه ليجذبهما معًا، ويُغلق إلى ما لا نهاية.

جلست "منى" أمامَ محسنة صامتةً لا تعلم ماذا تفعل ولا ماذا تقرّر، إنّها في أقصى نقطةٍ في بئر الحيرة تُعاني من جرأة خفافيش الظلام على امتصاص

روحها، أرادت أن تلقي لها خالتها حبلًا من الطمأنينة لتنقذها، الرجل بالفعل لن تعوّضه الأيام، ولولا أنّهم قالوا إنّه تزوّج وأنجب؛ لما صدّقت هذا. كرمُه حاتمي، وروحُه طيبة، لكنها مع كلّ هذا لا تتمنّى إلّا هشام، تتمنّى أن تقتنص من "أسرار" أي شيء.

- ما الذي يدور في بالك يا "منى"؟ هل تريدين الموافقة على رجلٍ أرمل لديه طفلٌ لتستمتع "أسرار" بأنّك أقلّ منها؟

- أخشى أنْ يفوتني كلّ شيء، ولا أجني في النهاية إلّا الندم.

- ندم!! أيّ ندم؟ "أسرار" أعلنت لهشام رفضَها منذ أيام، لن يجدَ أمامه الآن غيرك، هل ستتركينَ ما أردتِ دومًا عندما اقترب؟!!

قالتها محسنة، وتركتها لخيالها الجامح تركب حصانًا بريًّا لن تستقرّ على ظهره، مصيرها حتمًا إلى الوقوع.

لو تعلم أنّ خالتها لم تلقِ لها حبلَ النجاة بل أضاءت لها نارًا حارقة تصلها من بئر الحيرة إلى بئر الندم الذي سيعصرُ روحَها وروحًا بريئة معها؛ ما استجارت بها، وما تلمّست طريقًا تحيطه نارُ الكراهية والحقد على الجانبين. عادت من عند محسنة تظنّ أنّها صعدت من بئر الحيرة إلى أنفاس النهار لتعلن للجميع رفضَها الذي تقبّله إبراهيم بروحٍ مكسورة.

حاولت "أسرار" الاعتذار لأبيها عن المجيء للغداء، تحاول جاهدةً أن تخفي شوقَ عينيها لعينيه، وجاذبية في يديها للمسةٍ أخرى من يديه، أن تلملم ضعفًا حطّم أسوار قلعتها الحصينة حتى لا تسمع آذانُ أبيها صوتَ سقوط أحجارها المدوي. رفض أبوها الاعتذار، يخشى من أيّ موقف مُحرج تضع فيه "منى" أمّها فأراد منها أن تكون سندًا لها.

الهدوء يلفّ السيارة إلّا من صوتِ الهواء على كورنيش الإسكندرية، تمنّى ياسين أن يحمل معه شوقًا لَمن تجلس خلفه، يراها قلبَه وتشتاق لها عيناه، حرّك مرآة السيارة نحوها، رفعت رأسَها على غفلةٍ منها لتلتقي أعينهم، روى شوقهما كأسًا لم يعلم أحدهما أهو كأسُ الحبّ أم كأسُ الشّقاء. قلبُه يحدّثه أنّه المستحيل بعينه، فتاةٌ في مثل عمرها وجمالِها لن تلتفت له بظروفه التي تحيط به، وبعمرٍ يكاد يقترب من ضعف عمرها، وعقله يخبره بأنّ بعض المستحيل صار حقيقة.

الصراع يشتدّ مع نفسه في جانب البئر، وفي الجانب الآخر أسرار، مُحال أنْ يتخيّل أحدٌ- حتى هو- ما يعتمل في قلبها الصغير، قلبها الذي لم ينبض بحبّ أحدٍ من قبل ينبض الآنَ لرجلٍ جاء يخطب أختَها وسترفضه، حتمًا سيشعرُ بطعنة الرفض حتى ولو لم يُعجَب بمنى، فكيف سيتخيّل أنّ مَن تصغرها ستوافق به ليتقدّم لخطبتها؟

هذا الشعورُ هالك لا محالة، يجب أن تتخلّص من جنين حبّها الذي تحرّك في رحم قلبها قبل أن يولَد سفاحًا لتعلن صرخاته اللعنة عليها، وعلى مَن أحبّت.. جمعتهم منضدةٌ واحدة في المطعم.

تجاهد "علية" لتتواصل "منى" مع ياسين، تجهل أنه نفضَ أمرها من رأسه، الحديث بين الرجال متواصلٌ بينما ياسين يحاول أنْ يخفي رغبته العارمة في النظر إليها، وإنصاته إلى صوتها المغرّد، لا يعلم أنّ ما تخشاه أنْ يطفو شعورها فوق سطحِ عينيها الجميلتين، فيفضح أمرها.

انتهت العزومة بتأكّد كلٍّ منهما من أمره، تلك المشاعر لن تأتي إلّا مرّة واحدة في العمر، لكنْ على كلٍّ منهما أنْ يدفن مشاعرَه الوليدة في قبر النسيان.

مَن قال إنّ القبور تُحفر في باطن الأرض فقط، بداخل كلٍّ منّا قبره الذي هو الفراق، ندفن فيه روحَ كلّ عزيز راحلٍ عن دنيانا، نكفّنه بدماء قلوبنا ونصلّي عليه بآهاتِ أشواقنا حتى وإنْ كان على قيد الحياة.

طمعت نفسُه في فرصة لقاء.. وهل يُصنع الحبّ إلّا بنكهة الطمع والامتلاك؟! فأيّ مُحبّ هذا الذي لم يطمع في امتلاك محبوبه، والتهامه وهو بين يديه.. الطمع هو السكر الذي يوضَع في فنجان الحبّ الدافئ ليُمتع قلوبنا وأرواحنا.

- سأحضر يوم الخميس قربَ الغروب ليكون هذا الأسبوع الفرصةَ الأخيرة للتفكير والقرار. (قالها وانصرف).

لم يكنْ إبراهيم يعلم وهو يقف متحسّرًا على عناد ابنته أنّ ياسين سيتكبّد مشقةَ السفر مرّة ثالثة من القاهرة إلى الإسكندرية في أمرٍ يمكن أن يتمّ هاتفيًّا ليمنح نفسَه حقّ رؤيتها ولو لمرّة أخيرة، لا يسعى لاسترداد قلبه بل للاطمئنان عليه..

سيتركه لها بكاملِ إرادته علّه ينبض بين يديها يومًا، فيذكّرها به.

***

الحزن.. كلمةٌ من ثلاثة حروف، تفتح ثلاث دوامات هائلة..

الحاء حيرة، الزاي زمن، النون ندم..

الحزن يقول "قد تتحوّل الحيرة بالزمن الى ندم"

ثلاثةُ أحرف، لكنّ كلًّا منهم قادرٌ على ابتلاع عالمٍ بأكمله..

خيّم الحزن على بيت إبراهيم طيلة هذا الأسبوع..

تعتصر روحه، وتقطر ألمًا لرفض رجلٍ قدّروا معدنه الغالي، نفضت "منى" عن رأسها الأمرَ برمّته، وساعدتها خالتها التي تشعر بما يشعرُ به إبراهيم وعليّة من حزنٍ يروي قلبها الظمآن، ويدفع دماء السعادة لجسدها، بدأ الصقر الذي يسكن قلبها في التأهّب لرحلة النشوى بالانتصار.

كمْ سيمرّ على "أسرار" من وقتٍ حتى تقابل هذا الإحساس مرّة أخرى، هكذا كانت تحدّثها نفسها، لا يعنيها كوْنه أرمل، ولديه طفل، على العكس هي تشفقُ على هذا الطفل من أنْ يقع فريسةً لزوجة أب مثل "منى" التي لا يعنيها شيء إلّا ذاتها، أيّ ألم سيعيشه وأيّ عذاب سيراه، لقد أحسن اللهُ إليه وإلى ابنه برفضها، لكن.. ما جنايتُها ليرحل، ويرحل معه قلبها، متى ستستردّ روحها التي سكنت حمامة بيضاء ترافقه ذهابًا ومجيئًا، هل ستعود تلك الحمامة يومًا، أم أنّها ستتوه في فضاء الحبّ الذي لا يعود منه ضالّ؟

حاول إبراهيم أن يتحلّى بالصبر لآخر لحظة، هل تعتقد "منى" أنه لا يحبّها؟ إنّ قلبه يهوى عليها كحبّات مسبحته التي اقتربت من كثرة التسبيح أن تنطق بالاستغفار، دقّ باب غرفتها ليجدها غارقةً في سهادٍ وشجن عميق، سألها إنْ كان الرفض هو قرارَها الأخير؟ حاولت أن تُخفي عنه دمعاتٍ صغيرة لا تريد أن تسقط وتأبى الرحيل، تمنّى أن تهوى بين يديه وتنهار، تسرّ له بمكنون قلبها، تستنقذه لينقذها من ألم حيرتها وشقائه، تطلب منه أن يجدل جسده حبلًا، ويمتدّ به إليها ليخرجها إلى سطح الحياة حتى لو سقط هو، وتمزّق ألف قطعة.

رأت "منى" كلّ هذا في ملامحه الساكنة الهادئة إلّا أنها ظلّت متمسكة بحبالِ محسنة البالية التي لا تنبئ إلّا عن سقوطٍ مدوٍّ..

- نعم.. سأذهب إلى خالتي يوم مجيئه من أوّل النهار، ولن أعود إلّا ليلًا بعد رحيله لأجنّبكم الخجل.

هزّ رأسه لابنته، ثمّ أدار لها ظهرَه التي رفضت أن تصعدَ عليه لترى النورَ بدلًا ممّا تحياه من ظلام. كم تشقى "أسرار" بمجيئه وعدم قدرتها على رؤيته، سيجيء ليُرفَض ولن يقابله إلّا والدُها ليعلن له الرفض، حتّى الحاج إسماعيل خجلَ من المجيء.

ماذا تفعل؟ قلبها تنهشُه رغبةُ لقائه، ولو لآخر مرّة، إن كانت روحُها سترحل معه فلتودعها الوداع الأخير! انتظرتْ قبل الغروب في الشرفة الصغيرة التي تطلّ على البحر تحملُ في قلبها شعاعَ الحبّ، أرادت وبشدّة أن تلمحه ولو مِن بعيد.

يا للغروب الذي يكسو القلوبَ الحزينة حزنًا على حزن، الشمس التي تَغرِق في قلب البحر فتُغرق معها قلوبَ الحيارى لترسو في قاع الأحزان.

ظهر مِن بعيد لتتبعه عيناها بوميضٍ خشيت أن ينعكس على ماءِ البحر فيدلّه على كيانها المُنتظر، يخفق قلبُها بنبضٍ خشيت أن يسمعَ دقّاته من فرطِ حنينه. عبرَ الطريق ليتوقّف فجأة في المنتصف، رفع رأسَه إلى الشرفة لتلتقي أعينهم.. هل شعر بوجودها؟ هل حدّثه الغروب عنها وعن انتظارها؟ أم أنّ نبض قلبها اخترق صدرَه، وأرسل له ضوءَ عينيها ليسير على هداه؟

تسمّر طويلًا ليحظى بنظرةٍ قد تكون الأخيرة، حدّثته عيناها حديثًا لم تصدّقه نفسُه، أسرّت له بما يعتملُ في قلبها الصغير الذي لم يتخيّله يوم التقت أعينهم لأوّل مرّة.. فهل ما يشعرُ به حقيقة؟ هل ترغبه كما يرغبها، وتريده كما يريدها؟ لقد جاء الآن ليودّعها.. فهل سيكون قدرُه أن يستقبلها؟

لم تعرف "أسرار" كيف تذهب بعينيها بعيدًا عن عينيه، سهامُهما تخترق قلبَها في حربٍ غير متكافئة الأطراف، اضطرّت للرجوع إلى الوراء والانسحاب. مرّت دقائق صعوده السلالم دهرًا، الأسئلة تبارز عقلَه وتطعنه طعناتٍ لا يقوى على تحمّلها.. هل كانت في انتظاره؟ هل ما حدّثته به عيناها حقيقة؟ هل ما رآه كان طيفًا ووهمًا من شدّة تعلّقه بها؟ أم حانَ لقلبه أن يلتقطَ أنفاسه في رحلةِ الحياة التي حرمته من الحبّ؟

طرقاتٌ خفيفة على الباب ليفتح الحاج إبراهيم الذي انتظرَه وحيدًا، "علية" تأسف عليه، ومنى ترفضه، وإسماعيل ملأه الإحراج، وهي تهربُ من هواه.. اتّسع عليهما صالون الاستقبال الذي ضاق بالأمس القريب، ضربَ حوائطَه برقٌ ورعدٌ، أسفٌ واعتذار، قبل أن تمطر عليه كلماتُ الحاج إبراهيم بسيلٍ لا يعلم أنه يريده، بل ويرجوه، نظراتُه تحمل استفهامًا، تنهّد إبراهيم أسفًا وهو يقول:

- مقدارك عندنا غالٍ، ولو أنّ الأمر بيدي لكنت...

ثمّ غرق في صمته الآسف.

- هل أفهم أنّني لم أحظى بموافقة الآنسة "منى"؟

قالها وكأنّه يريد أن ينتزع الرفضَ من فمِه.. فانتزعه..

- يعلم الله يا حاج إبراهيم بما في قلبي لكم. أشعر من اللحظة الأولى أنّكم أهلٌ لي، أتمنّى نسبَ رجل ذي خلقٍ ودينٍ وحكمة، وسيشجعني هذا وأتجرّأ لأطلب يدَ الآنسة "أسرار" علّني أحظى بنسبك.

قالها وشرايينُه يُسمع تدفّقُ الدماء بها، يشعر أنّها ستنفجر، وتطلق دماءه لتستحلف إبراهيم بالموافقة. قالها وهو لا يعلم كيف استطاع نطقَها.. قالها وهو على يقينٍ من رفضٍ وشيك.

انتابت الدهشة والذهول عيني إبراهيم، وكسا وجهه وجومٌ عجز لسانُه عن النطق لدقائق، وهو يستحلف آذانه بتكرار ما قيل، حتى يده كانت تتحرّك غير مصدّقة ما قيل..

- "أسرار"!! لكنْ "أسرار" ما زالت صغيرة لم تُكمل دراستها بعد. أعتقد أنّها لا تفكّر في الزواج الآن، رفضت الكثير ممّن تقدّموا لخطبتها، حتى الدكتور هشام ابن خالتها رفضتْه.

لم يكن يحتاجُ هذه الكلمات ليزنَ مقدارها الغالي الثمين، علمه مِن أوّل لمسةٍ ونظرة، إنّها البحر بأسراره وكنوزه وغرائبه، فهزّ رأسه باستسلام. لم

تترك الدهشة إبراهيم بعد.. ما هذا الأمل الذي يتحدّث به الحاج ياسين؟ هل يريد نسبَه لتلك الدرجة؟ يُعرّض نفسه للرفض مرّتين، يا للخجل الذي سيشعرُ به عندما ترفضه "أسرار" أيضًا، الرجل لا يستحقّ كلّ هذا.

همَّ أن يذهب إلى ابنته يخبرها بما سمع كما يأمر شرعُ الله، ويعود بالرفض، تذكّر صديقه وما قد يحدثُ له من أضرار في تجارته، بالرغم من شعوره برجولةِ وشهامة ياسين؛ فآثرَ أن يسمع الرفض مباشرةً منها.. فَعَلا صوتُه مناديًا عليها.

***

مَن يحبّ لا يكره، يضيء الحبّ جنباتِ القلب فتتّسع حجراته وتضخّ دماء الحبّ للجميع.

ومَن يكره لا يحبّ، فمساحة الكُره السوداء في القلب تعْميه حتى عنْ أن يحبّ نفسَه.

دار المفتاحُ في الباب ليظهر هشام الذي لم يتوقّع وجود "منى" لهذا الوقت المتأخّر، هبّت تستقبله وهي تحاول أن تجدَ في وجهه أو عينيه شعاعَ أمل يدفئ قلبها المتجمّد، ويطمئن روحَها الشاردة. ألقى السلام دونَ اكتراث واتّجه مباشرة إلى غرفته، تبادلت هي وخالتها نظراتٍ حثّتها فيها على الذّهاب

خلفه.. دقّات خفيفة على بابه علمَ أنّها هي، اعتدل في جلسته بعد أنْ كان قد ألقى بجسده المُنهك كروحِه على سريره، دخلت تجرّ خلفها خجلًا لا تدري كيف تداريه، مَن يجب أن يبحث عمّن؟

كانت تحمل في قلبها الكثيرَ الذي لن تستطيع شفاهُها النطق به، في مجتمعاتنا لا تقوى الفتاةُ على التصريح بالحبّ، يبقى أسيرًا، حبيسَ ضلوع صدرها إلى أنْ يُحرّره هو، أو يصدر في حقّه حكمًا بالحبس مدى الحياة، ألم يسمعوا قولَ مَن جاءت تمشي على استحياء قالت: "يا أبتِ استأجره إن خيرَ مَن استأجرت القويّ الأمين"

نظراتُها تستعطفه أنْ يلين ولو بكلمة، حيرتها تملأ عينيها، ويقبع الندم منزويًا في أقصى أركانها، فاجأها بسؤاله:

- ما أخبار الرجل الذي تقدّم لك مؤخّرًا؟

شلّ تفكيرَها السؤال، علم مؤكّدًا من خالتها..

- يُرفض هناك الآن.

ضحك بسخرية ويأس، وهو يقول:

- دائمًا تُخطئين، أشعر أنّه كلّما ازداد عمرك زادَ خطؤك.

بُهتت "منى" من كلماته، وارتسم على وجهها حنقٌ، لم تشعر به يومًا..

- كلّما ازداد عمري زاد خطئي!

هزّ رأسه علامةَ الإيجاب..

- آلمتك كلماتي، أين الحكمة فيما مرّ بكِ؟ أين العقل الذي يهدي للصواب ولا يُكرّر الخطأ؟ أيّ معنى يمكن أن يشرح الإصرارَ على تكرار خطأ واحدٍ طيلة كلّ تلك السنوات؟

ابتلعتْ "منى" ريقَها بعد أن وقفت كلماتُه في حلقها علّه يزيحها وهي تقول:

- لم أتوقّع يومًا منك تلك الصفعة يا هشام.

وضع كفّه على عينيه، وهو يتنهّد بصوتٍ مكتوم، ويهزّ رأسه بأسف:

- سامحيني يا منى، أردت أن تفيقي فاضطررت إلى تلك الصفعة كما تقولين، يا ابنة خالتي بعض الصفعات نجاة، وبعض الضحكات موت.. قد يضحك في وجهك مَن يمتلك كرةَ العالم لك، وقد يصفعك مَن يتمنّى لك خيرَ الدنيا.

أزاحت تلك الكلمات بعضَ حُمرة الصفعة، فأسرعت لتقول:

- وأنت، تتمنّى خير الدنيا لي.

هزّ رأسه وهو يقول:

- أنتِ ابنةُ خالتي، لو استشرتني لقلتُ لك وافقي، لقلت لك إنّه من الأفضل لكِ أن تلحقي قطارًا زار محطتك من أنْ تنتظري قطارًا لن يجيء.

أغمضت عينيها وهي لا تعرف بماذا تجيب، هل يأسُه هو مَن يتحدّث أم أمله؟

- وأنت، هل ستلحق بالقطار أم تنتظر؟

أضحكته كلماتها الملتوية، هي وأمّه وجهًا لعملة واحدة..

- لا يا منى، أنا سأغادر محطة الانتظار بأكملها.

ثمّ تركها وانصرف، سمعت صوتَ باب الشقة يُغلق مِن خلفه، تجمّدت مكانها، وهي تبكي حدّ الانهيار، وتعضّ على يديها من الندم.

***

مهْما انهارت الجسور وتعرّجت الطرقات وسُدّت الأبواب، مَن يريدك بحقّ سيعرف كيف يصل إليك، سيبني الجسور ويعبرُ الطرقات ويفتح الأبواب، فقط ليقول لك: "أحبّك".

سمعت نداء أبيها وهي في حجرتها تُعاني شوقًا أبكاها، خرجت تحمل بؤس العالم على كتفيها، لمحها فهبّ واقفًا، أتى بحره بامتداده تحت ضوء القمر، تمنّى في تلك اللحظة أن تبتلعه أمواجُه الهادرة على أن تلفظه على شاطئ الألم والعذاب.

وجّه إبراهيم نظرَه إليه، ووجهُه يصبغه الخجل:

- سأسألها أمامك، أنت تعلمين أنّ الحاج ياسين تقدّم إلى أختك ولم توافق، الآن هو يطلب يدك رغبةً منه في نسبنا، أردت أنْ يسمع الردّ منك مباشرة.

رفعت رأسها في ذهول لتنظر إليه، لا تصدّق ما تسمعه، هل وصله إحساسها؟ هل شعر بما تشعرُ به من مجرّد تلك النظرة البعيدة التي سرتْ بينهما؟ هل للمشاعر مدى أمْ أنها موجات بلا مدى؟

عادتْ عيناها إلى الأرض في خجل، يُلقي ضوء قلبه إلى قلبها لتمتدّ بعد جزْر، لتحيا بعد مشارفة الموت، ألقتْ ما كانت تحمله على أكتافها منذ لحظات حتى دموعها هربتْ من عينيها.

تعجّب إبراهيم من صمْتها مع خجل يلفّ أوصافَها، فحفّزها على الجواب، أجابت على عجلٍ وهي تلتقط أنفاسَها اللاهثة:

- إنْ وافقت سأوافق يا أبي. (ثمّ أسرعت إلى الداخل)

أرادت أن يهدأ قلبها الذي كاد أن يتوقف عن العمل من هول المفاجأة، حتى ياسين لم يتوقّع موافقتها، فطار قلبه فرحًا.

هل سمع أحدٌ من قبْل عن قلبٍ ابتسم؟ لقد ضحك قلبُ ياسين في تلك اللحظة، أرسل ضحكته إلى كلّ خلايا جسدِه لتهنئها..

- يقولون إنّ خجلَ الفتاة معناه الموافقة.. هكذا يقولون.

بهتَ إبراهيم وهو لا يعي ما يحدث حوله، استأذنه في دقائق ليلحق بابنته، أسرعت إليهما "علية" بعدما لاحظت حركة غريبة. كان يسألها في ذهول إنْ كان ما سمعه حقيقة، ما سببُ تلك الموافقة غير المبرّرة، تقدّم لخطبتها أفضلُ شباب الإسكندرية، وأغناهم، وأفضلهم حسبًا ونسبًا..

- ما الذي يدفعُك للزواج برجلٍ أكبر منك بأربعة عشر عامًا، أرمل وعنده طفل، حقًّا إنّه رجل ليس كمثله رجل، لكن...

الخجل يعقد لسانَها، والفرحة تغزو قلبها وعينيها، فأجابت:

- هذا الرجل اشترى نسبَك فلماذا نبيعه نحن؟ كما قلت إنّه رجل، والرجولة أصبحت قليلة ونادرة، ابنه اليتيم أريد أنْ أربّيه معه، فوق كلّ هذا والأهمّ أنتَ تعلم تكاليف الزواج وظروفنا لا يجهلها أحدُنا.

نظرت "علية" إلى ابنتها، ترى الحكمةَ في كلّ كلمةٍ تخرج من فمها:

- إبراهيم، ألم تدعُ الله عندما رأيته أنْ يجعله من أهل بيتك، لقد استجاب الله دعوتَك فلا تردّ الاستجابة. "أسرار" تقول كلامَ العقل فتوكّل على الله.

إبراهيم يحبّ "علية"، ويحترم عقلَها وحكمتها، لا يخطو خطوة إلّا بمشورتها، نظرَ لها نظرةَ استفسار:

- توكّل على الله لنطمئنّ على بنتٍ من بناتنا في بيت رجلٍ بمعنى الكلمة يكون سندًا للبنتين من بعدنا، هل سيضير "أسرار" أنه أرمل ولديه طفل؟ "أسرار" بحكمتها وطيبتها وعقلها ستكسب قلبَه أكثر بحبّ ابنه، وستعامله كابنها.. وكما قالت "أسرار" لن يكلّفنا شيء.

ظهر التردّد على وجهه الطيّب الذي ذاق ألوانًا من الشقاء، وبدلًا من أنْ تريحه ابنتُه الكبرى أضافت إليه لونًا آخر..

- ومنى يا "علية"!

- "منى" مَن قطعت رزقها بيديها كما تفعل طيلةَ عمرها، ليست تلك المرّة الأولى، حاولنا جميعًا أن نرشدَها للسعادة، لكنها ترفض إلّا أن تبقى في صداقتها للشقاء، فهل سنبقى "أسرار" بجانبها ونتحسّر عليهما معًا، ثمّ إنّ زواج "أسرار" قد يفسح الطريق أكثرَ أمامَ مُنى، توكّل على الله يا إبراهيم. (ثمّ نظرت إلى ابنتها وقبّلتها)

- ألف مبروك يا أسرار. بارك الله لك في عقلك وقلبك وعمرك وحياتك.

خرج إبراهيم للرجل الذي طال انتظاره فاتحًا ذراعيه، تتردّد روحه بين الفرحةٍ لـ "أسرار" والحزنِ على "منى"..

- بارك الله يا حاج ياسين، سيشرفنا نسبُك.

كانت لحظة لم تخطرْ على قلبه يومَ أنْ التقت عيناه بعينيها، استمرّ شقاؤه لأيام ستعوّضها له سعادة عمر، خطفت قلبه لكنّها احتفظت به، سيرى معها ما لم يره، وقلبه بداخل صدره..

- اللّهم بارك يا حاج إبراهيم، نسبُك هو الشرف.

خرجت "علية" وخلفها "أسرار" تحملُ صينية القهوة غارقةً في خجلها، ابتسامتُه تحمل كلّ معاني المودّة والحنان، السعادة تُحلق بياسين عاليًا، يتمنّى أن يقطف لها نجمةً من السماء..

- أتمنّى أن أحضرَ لـ "أسرار" الدنيا بين كفّيها، موافقة ستّ البنات دين مهْما فعلت وقدّمت فلن أستطيع ردَّه، سأكتب لها فيلّا صغيرة، وهذا مهرها.. سأتكفّل بالجهاز كلّه حتى مستلزماتها، الشبكة التي تتمنّاها تشتريها من غير حدود، الفرح بإذن الله سيكون في أحسن فنادق القاهرة. (ثمّ نظر لها نظرةً أذابتها في خجلها)

ذهلت "علية" ممّا قاله الحاج ياسين فبادرتْ بإطلاق زغرودة تعبّر عمّا في نفسها من فرح، باتت قلقةً على زواج بناتها مع ضيق ذات اليد، فمنَّ الله عليهم برجلٍ كريم لن يكلّفهم شيئًا، بل سيغدق على "أسرار" من فضل الله. ظلّ في وجه ياسين ما يريد قوله، الكلمات تخرج على شفتيه وتنتحر، يخشى أن

يقطع حبلَ فرحٍ أمسك طرفه، لاحظ إبراهيم بذكائه وكرامته الشديدة حالَه، ظنّ أنه لم يكمل اتفاقهما المادي، فسارع بالقول:

- أشعر أنه هناك ما تريد قولَه، لكنك تتردّد بين القول والصمت.

- لو تأذن، أتمنّى أن أرحل إلى القاهرة ودبلتي في يد "أسرار" ودبلتها في يدي، سعادتي بارتباطي بكم أريد أنْ أحقّق منها شيئًا اليوم.

نظر إبراهيم لعليّة، فهزّت رأسها بالموافقة، دخلت "أسرار" لتستعدّ للمناسبة التي لم تخطرْ لها على بال. سمعت كثيرًا عن القلب الذي يتراقص من الفرح، ولم تصدّق إلّا الآن.

هل حقًّا ما يحدث؟ سعيدة هي بذلك الشعور الذي يصلُ بينهما دون كلام، الشعاع الذي اخترق قلبها لم ينفذْ إليه هباءً، بل هو امتدادٌ لضوء سحري سرى بينهما، فاضت فرحتُها وملأت قلبها وهي تحتضن فستانَها، وتتمتم:

- هل هذا حلمٌ جميل، أم أنه حقيقة أجملُ من خيال؟! إنْ كان حلمًا فلا أفاقني الله منه، وإن كان حقيقة فلا حرمني الله منها.

***

حرّيتنا لا يعتقلها سجن، ولا يقتلها حكمٌ بالإعدام، القضبان الحقيقية هي القلقُ الذي يأسر أرواحَنا، ويُقدّمنا لقمةً سائغة لمشانق الحيرة.

إبراهيم في حيرةٍ من أمره، هل يتّصل بمنى عند خالتها لتلحقهم، أم يتركها حتى يتمّ الأمر؟ فكّرت "علية" قليلًا قبل أن تردّ، الاثنتان بناتها تحبّهما بنفس المقدار، لكنّها تخشى من "منى" أن تفعل ما يؤذي أختها ويعرقل لها الارتباط بياسين؛ فبحرُ "منى" الهائج لا يعلم أحدٌ أيَّ عواصف قد تأتي منه..

- اتركها عند خالتها، أتمنى أن يتمّم الله لأسرار بالخير، "منى" تعيد الماضي يا إبراهيم، أتذكر!!

تنهّد كأنّ الماضي يمرّ أمامَ عينيه، ثمّ انتفض كأنّه تذكّر شيئًا:

- سأتّصل بإسماعيل ليسبقنا على الصاغة ليفرح معنا، فلا فرح ولا سعادة بدونه.

ضحكت عليّة، قد ينسى إبراهيم نفسَه ولا ينسى إسماعيل.

انطلق بهم ياسين إلى أشهر محلّات الذهب في الإسكندرية؛ حيث التقى بهم إسماعيل الذي كان في دهشة ممّا حدث، كانت كلماتُ التعجب تبدو على وجهه وهو يرحّب به. خجل اليوم من لقائه لأنّه سيرفض، فبقي وقد خطب "أسرار" حلم الكثيرين، بارك له وهو يقول:

- ألف مبروك يا حاج ياسين، أخذت الغالية بنت الغالي.

- الحمد لله، لن أنسى لك يومًا هذا الجميل.

جلستُه بجانبها كانت حلمًا استيقظ ليجده يتحقّق، جاء يظنّ أنه سيفارقها، ويفارق قلبه فإذا به يقترب لأقرب درجات القرب. همس لها وهو يمسك بالذّهب بين يديه:

- ما رأيك في هذا الطقم؟

لم تستطعْ "أسرار"، من فرط خجلها، أن توجّه نظرها له.. لكنّ أنفاسها المتلاحقة كانت تقول أكثرَ ممّا يمكن أن يُقال..

- أعتقد أنّه غالي الثمن جدًّا.

- وهل هناك ما سيغلو عليكِ. لو تعلمين.. أتمنى أن أفرش لك الأرض ذهبًا.

اكتملت الشبكة، جاءت في عُلبتها القطيفة، أخذها ياسين بفرحةِ محبّ، أخرج الدبلة الذهبية والمحبس، وألبَسَها لأسرار كما ألبستْه هي دبلتَه، الكلّ سعيد للشابّة الجميلة والرجلِ الجذّاب الذي يعاملها كأنها طفلته المدلّلة، انطلقت الزغاريدُ من كلّ مكانٍ من نساءٍ أردن أن يحَيّين العروسين بطريقتهنّ، امتلأت قلوبُ الجميع بالبهجة عدا قلبيْ إبراهيم وعليّة اللذين كانا يفكّران في ابنتهما التي ستشنّ الحربَ الشعواء على أختها.

وقفت "علية" خلف "أسرار" تقبّلها وتهنّئها، وهنّأ الحاج إبراهيم والحاج إسماعيل ياسين وانطلقوا عائدين، الفرحة تملأ قلبَ ياسين وتشعره أنّه لا يريد أن يترك جانبها. مكانه أصبح هنا، وليس في أيّ بقعةٍ أخرى من بقاع الأرض، قلبُه الذي بين يديها يجذبه لتُردّ روحه إلى جسده، ولولا أحمد لظلّ في الإسكندرية.

"هل نشعر بالاكتمال إلّا بجانب مَن نحبّ، ينهش التمزّق أجزاءنا على مدار العمر، وما أن نقابل مَن نكتمل في حضرته نستردّ كلّ أشلائنا الممزّقة حبًّا وأملًا وسعادة".. ألهذا السبب تعاند الدنيا الأحبّاء؟

ألأنّهم استردّوا أرواحهم التي مزّقتهم سنواتُها في دقائق، تشعرُ بجهدها الضائع فتبذل جهدًا أكبر لتفرّقهم لتحظى بالانتصار الأخير.

***

هل يمكن حقًّا أن يكون عنوان قلبي في عيون مَن أحب؟

وهل سأضلّ وأتوه إن تاهتْ عني عيناك لأنّك عنواني؟

وكيف سأستدلّ على روحي بدونك إن كنت أنت عنواني؟

خلتِ الشرفة إلّا منهما، لأوّل مرّة تلتقي أعينهم بلا خوف أو قلق من فراق.. كان ينظر إليها ولا يعرف كيف يبدأ حديثًا يضجّ به صدره وقلبُه وعقله؟ تغرّب كثيرًا، ولم يعرف له عنوانًا إلّا عندما التقت عيناه بعينيها.

الآن وجد سكنَه ومأواه، ستستريح نفسه التي شقيتْ أعوامًا طويلة تائهة في عناوين الغربة والوحدة والوحشة. لا تستطيع هي مِن فرط الخجل أنْ تبقى عيناها في عينيه أكثرَ من لحظات.. لم يكن يتخيّل أحدهما يومًا أنه سيصبح نصيبَ الآخر، لكنّها الأقدار- كما قال إسماعيل- تقرب البعيد، وتباعد القريب..

- لا أعرف ماذا أقول.. يفيض قلبي بالأحاسيس والمشاعر، لكنّها لا تريد الخروج، أريد أن أحفر كلّ ما يمكن قولُه على سطح قلبي ليبقى ما بقينا نقشًا بداخلي.. أريد فقط أن أتأكّد أنني لم أمتْ وأدخل الجنة، وأنا الآن في حضرة إحدى الحور العين.. حتى أنني أخشى أن أتحرّك لئلّا يكون حلمًا فأستيقظ منه، سأحزن جدًّا.

قالها وهو يبتسم ابتسامةً أضافت إلى وجهه وسامةً، وإلى عينيه بريقًا، ابتسمت "أسرار" في خجلٍ زادها جمالًا، فأكمل:

- كلّ ما يهمّني أن تكون موافقتك عن اقتناعٍ وحبّ، وأعدك أن أبذلَ كلّ ما في وسعي وأكثر حتى لا تشعري بأي فارقٍ سنّي بيننا، أو أنني كنت متزوجًا، سأحملك يا "أسرار" في قلبي وأسيرُ بكِ، الشيء الوحيد الذي لا يمكن أن أستثنيه من حياتي هو أحمد، ستتقاسمان حياتي معًا، سأحملكما فوقَ ظهري وأطيرُ بكما، أشعر أنّ قلبي الآن يمتلك جناحين.

نظرت إليه "أسرار" نظرةَ حنانٍ وطيبة..

- لو تعلم كم أتمنّى رؤيته وأمومته من قبل أن أراه.. لا تخش شيئًا، أعدك أنني سأكون له أمًّا تعوّضه عن أيّ إحساس باليتم.

- يوم الخميس ستكونين خطيبتي، ستكونين أنت وأحمد كلّ ناسي وعمري وحياتي، سأحكي لك ما لم أحكِه لأحد، سأقول لك ما حمله صدري سنواتٍ وضاق به، لقد اشتقتُ لك وحلمت بك من قبل أن ألقاكِ، تمنّيتك وكنت أظنّ أنك خيالٌ يسكن رأسي، لكنّك الآن أمامي.. وستكونين دومًا.

طال حديثٌ لن ينتهي، وهل ينتهي حديثُ المحبّين!

قلبُ "أسرار" يتمايل في صدرها فرحًا مع كلّ كلمة حبّ، حتى شجرات الورد والياسمين التي ملأت الشرفة بهما كنّ يتمايلنَ عشقًا، كأنهنّ يطربْنَ لما يسمعْن، ويفرحنَ لفرحها، فاض قلبُه بالحبّ، وفاضت روحها بالنشوى، استأذن في الانصراف، وما أنْ هَمَّ بفتح الباب حتى ظهرت "منى" خلفَه، بادرها التحية بأدبٍ وانصرف.. ردّت عليه التحية بدهشةٍ وهي تقف وسط أبويها مذهولة، هل أعطتْها الأيام فرصةً أخيرة لتلحق بها فاتها كما قال هشام، تساءلت بانكسار لم يتّضح لأحد:

- لماذا بقي إلى وقتٍ متأخر كهذا!؟ ألم يعرف بعدُ أنّني رفضتُه؟

هزّ إبراهيم رأسه بامتعاض وهو يقول:

- اطمئنّي، عرف أنك غيرُ موافقة، خطب أختَك ووافقنا واشترينا الشبكة والخطوبة يوم الخميس، لن أسمح بأيّ كلامٍ في هذا الموضوع مرّة أخرى بأيّ شكل، ومن أيّ أحد، انتهى الأمر، هل تفهمين؟

قالها إبراهيم وانصرف، يعرف طبيعةَ ابنته، وأنها لن تكفّ عن العويل والنّدب على حظّها وخيبتها، أصبح لا يحتمل طبيعتَها، فقد الصبر. انتظرت حتى دخل أبوها غرفته، ثمّ وجّهت كلامها لأسرار، ووجهُها يحمل تعبيراتٍ خفيّة لا أحدٌ يعرف معناها:

- ووافقت عليه!! لمَ؟ كان آخر ما يخطر ببالي أن تتزوجي رجلًا تزوّج من قبل ولديه طفل. هل تحطّمت أسطورة "أسرار" على صخرة هذا الرجل؟ هل هذه نهاية "أسرار" محطّمةِ قلوب شباب الإسكندرية!! سيفرح فيكِ كثيرون.

كلمات "منى" تقطرُ غيرةً ليس من شفتيها لكنْ من داخل قلبها. أثارت كلماتُها الضيقَ في قلب "علية"، بينما تمسّكت "أسرار" بصمتها وصبرها، تشعرُ بالغيرة والكيد التي قالت المعلمة أنّه ملأ قلبَ وعقل إخوة يوسف، شعرتْ بخوفٍ يملأ نفسها، تذكّرت أنّ الحبّ هو مَن ألقى بيوسف في الجبّ والسجن، فهل سيهوي بها حبّه إلى أحدهما؟

انتبهت مِن شرودها على صوت "علية":

- يفرح فيها الكثيرون!! لماذا؟ "أسرار" لم يتعلّق قلبها بأحد، ولم تُعلّق أحدًا بها، قلبُها يملؤه الخير، فجاءها نصيبها تحت أقدامها.

- سيفرح كلّ الشباب الذين رفضتهم وكانوا ينتظرون الفارس الأسطوري الذي سترتبط به أميرةُ الأحلام.. لتنتهي الرواية بياسين وابنه!

- كلّ إنسان لا يأخذ إلّا نصيبه، عقبالك أنتِ الأخرى ليستريح قلبي وقلبُ أبيكِ.

لم تفارق "منى" معاني السخرية وهي تنظر إليهما:

- أين الشبكة التي اشتريتموها؟ فرّجيني يا عروسة.

تحاملتْ على نفسها، بالرغم من الحقد الذي يقطر من فمِ أختها، ذهبت لإحضار الشبكة من دولاب والدتها بمنتهى الأدب والصبر، حاولت "علية" أن تحذّر ابنتها من طريقتها التي لا تصحّ بين الأخوات:

- اجعلي طريقة كلامك أفضل من هذا. "أسرار" طيبة ولا تردّ الإساءة بمثلها، لكن ليس معنى هذا أن تتمادي في مضايقتها، أنتِ الكبيرة وهي أختك مهْما حدث ومهما قيل لكِ.

- هي مَن أوقفت حالي، وجعلتني في تلك الحال الصعبة.

- لا تضحكي على نفسك يا "منى" وتصرّين على ذلك، أنتِ مَن تمرّد على رزقه لسببٍ أجهله، كنت ترفضين كلّ مرّة بحجّةٍ أضعف ممّا قبلها، أختك ليست السببَ في أي شيء.. إنها حماقتك.

أمّها على حق، كانت "أسرار" طفلةً لكن لا أحد يعلم أنها خطفت منها هشام، حتى بالرغم من طفولتها، خطفت منها الرجل الذي تمنّته وشيّدت قصرَ حبّه في قلبها ليكون هو أميرَه وليس أي رجل آخر، وضعت يدها على صدرها وهي تتذكّر صفعته التي كانت أقوى صفعات عمرها، صفعة لم تترك أثرَها على خدها بل على قلبها، فكيف لها من دواء؟!

جاءت "أسرار" تحمل العلبةَ الضخمة التي تحوي الشبكة، وما أن رأتها "منى" حتى بُهتت، لمحتِ الدبلة تلمع في أصبعها، اشتعل غيظُها الذي اضطرّت لكتمانه، فانصرفت من أمامها دونَ كلمة تهنئة. ربتتْ عليّة على كتف "أسرار"، أخذتها في حضنها الواسع وهي تهدْهِدها، وتقول:

- لا تغضبي من أختك، ولا داعي أن نقول أمامها أنه أهداكِ فيلّا، لا داعي أن نقول ما يثير غيظَها وغيرتها، سأوصيكِ يا أسرار، أنتِ ابنتي الصغيرة لكنك تمتلكين قلبًا كبيرًا وروحًا عذبة صافية، يومًا ما سأترك الدنيا وستبقين أنتِ، لا تعكّري الماء الذي بينك وبين أختك مهْما حدث، حتى وإن عكّرته هي، اصبري فالصبر كلّه خير، لا تتركي جانبها فهي حمقاء لا تعي

شيئًا، أخشى عليها مِن الجنون، أخشى عليها من الندم والألم. (ثمّ نظرت إليها نظرةً طويلة حانية، وأكملت): وأخشى عليكِ منها، كلّ ما أملكه الدعاء أن يحفظك ويحفظها من كلّ شر، عِديني يا "أسرار".

أجابتها "أسرار" من خلف دموعها التي استدعاها حزنُ أمّها:

- أعدُك يا أمي.

***

الأمل هو مَا يجعلنا ننتظر غائبًا قد لا يعود، أسيرًا لن يحظى بالحرية، أو قلبًا ضاع في الزحام، الأمل شمسٌ تشرق، وإن كنا لا ندري سنحضر غروبَها أم لا.

أعادت خطبة "أسرار" الأملَ إلى نفس منى، عادت تحلّق بها أمنياتها في فضاء واسع، تتمنّى أن يكُفّ هشام عن حبّها ويفقد الأمل في الارتباط بها، وقد يلتفت وقتها ليجدها في انتظاره بالرغم من صفعته، ستنتظره إلى أن يهبطَ من سماء أحلامه، وترتفع هي بأمنياتها ليتقابلا في منتصف الواقع والحلم. ستساعدها خالتُها كما وعدتها طيلةَ سبع سنوات.

أمّه فلن يرفض لها رغبة، خصوصًا بعد ارتباط "أسرار".. كم تريد أنْ ترى وجهه الآن وتعرف وقْعَ خيانتها لحبّه وإخلاصه ووفائه. ستدقّ السعادة بابَها أخيرًا، وستفتح هي الباب الذي أغلقته في وجه الجميع من أجله.

لم تستطع "أسرار" أن تنام ليلتها من شدّة الفرحة، مكثت طويلًا في الشرفة التي فتحت لها أبوابَ السعادة. تلتقي عيناها بالبحر فتحيّيها موجاته كأنها تهنّئها وتتراقص فرحًا لها.

ترسل نظرةً إلى السماء فيطبع القمرُ قبلةً باردة على خديها تنير وجهها أكثر، حتى زرعها الذي تعتني به ووردانُها الجميلة كانت تتراقص فرحًا لها، وبها.

قلبها يُلقي تحية الحبّ على كلّ شيء حولها، يا لرقةِ مشاعر الحبّ المتبادل، هذا ما تمنّته دومًا.. كلّ ما ينقصها الآن أنْ تنظر إلى الشارع فتجده يسرع الخطا ليقف أمامها، وتلتقي أعينهم وتسري تلك الرعشة التي أدمنتها لتتغذى أوصالها، وتتفتح أوردتها، وتجري دماء الحبّ إلى كلّ خلية في جسدها.

تنظر إلى الدّبلة الذهبية في أصبعها وهي لا تصدّق أنها حقيقة رعدت في قلبيهما فتمّت بسرعة البرق لتجمعها- هي وياسين- في حياة واحدة، بعد أن خطف قلبَها من نظرةٍ واحدة.

لم يختلف حالُ ياسين عن حالها، كان يقود سيارته وهو يشعر أنه يمتلك جناحيْن يرفعانه فوق كلّ شيء، لا يتذكّر أنه شعر بسعادة كالتي يشعر بها قبلَ الآن، الحبّ يوغز قلبه بوغزات ألمٍ عذْب، قلبُه يؤلمه من شدّة تعلّقه بها، يتمنّى اليوم الذي سيأتي فلا يفارقها فيه أبدًا، هل ما يشعر به الآن هو عذاب الحبّ الذي سمع عنه؟

عاد إلى بيته وقد تبدّل هناك، هل هذا ياسين الذي لم يكن يهتمّ إلّا بأحمد والتجارة وإخوته؟ حرمتْه الأيام الحبّ فأهداه لجميعِ مَن حوله، لكنه الآن يحبّ، لم تبخل عليه الأقدار بالحبّ كما كان يظنّ، بل ادّخرت له أجملَ هديةٍ غلّفتها له بشرائط الجمال والحياء والطيبة.

خرجت "علية" وأسرارُ لشراء فستان الخطوبة التي يجب أن يعدّوا لها العدّة من الآن، ياسين قدّم كلّ ما عليه ولن يكلّفهم شيئًا، يجب عليهم هُم أيضًا أن يشرّفوا ابنتهم بخطوبةٍ راقية كما طلب إبراهيم من "علية" ليحفظوا للبنت قدرَها.

في الوقت الذي دخلت "منى" إلى بيت خالتها على وجْهها ضحكاتٌ متقطعة تخفيها بيديها، تخيّلت محسنة أيّ سببٍ لضحكات "منى" إلّا السبب الحقيقي:

- خير يا منى، ضحكاتك تقول إنّ أبيك لم يخبر العريسَ أنه مرفوض؟

- أخبره، لكنّك لن تصدقي ما حدث، عندما رفضتُه تقدّم لأسرار!

ضحكت محسنةُ بصوتٍ عالٍ ضحكةً رنّت في أرجاء البيت..

- لا!! إنّه رجلٌ يعشق الرفض.

كان وجه "منى" يتراقص من الفرحة، وعيناها تلمع وهي تردّ:

- رفض! أيّ رفض؟! "أسرار" وافقت عليه، اشتروا الشبكة وألبسها دبلة ألماظ في المحلّ، لقد أصبحت "أسرار" خطيبة الحاج ياسين رسميًّا، وأمَّ أحمد ابنه!

قالتها والسخرية تملأ وجهَها وكلماتها، ولم تتوقع أن تضرب محسنة صدرَها بكفّها بقوّة، وهي تتمتم:

- مصيبة! خطبت "أسرار"!! كيف سأقول لهشام هذا الخبر وهو إلى الآن في عشمٍ أن تقبل خطبته، يمكن أن يصيبه شيء!

نظرت إلى خالتها بعينٍ متنمّرة فاحصة:

- هشام! ألم تقولي لي إنّه صرف النظر عنها؟! لقد رفضتُ العريس على كلامك ومشورتك ووعدِك بإقناعه بالزواج منّي.

عادت محسنة إلى نفسها التي رحلت بها الصدمةُ هنا وهناك:

- آه يا حبيبتي، أنا أحاول أن أميل رأسه، بعد خطوبة "أسرار" سيصبح الأمرُ أسهل. لكن.. لقد ظهرت "أسرار" على حقيقتها التي لا تختلف عن حقيقة أمّك.. خطّافة رجّالة!

أدهش "منى" تعبيرُ خطّافة رجالة التي أطلقته خالتها على أمّها، تساءلت ماذا تعني كلماتها؟ ولماذا تقول هذا الكلام على أمّها؟

حاولت محسنة أن تغيّر مجْرى الكلام، وتشتّت انتباهها عمّا قالته:

- عرفت "أسرار" كيف تخطف منك هذا الرجل، ألم تفكّري كيف حدث هذا يا "منى"؟

- استبعدي أيّ شك، لم تتكلّم معه نهائيًّا.

- في وجودك، لكنْ في غيره الله أعلم. فكّري كيف لرجلٍ في ظروفه تقدّم لأختها الكبرى فرفضته فيغامر ويتقدّم للصغرى، ألم يخشَ على كرامته من الرفض مرّتين! أشعر أنّ في الأمر شيئًا..

أسرعت "منى" بنفي أيّ اتهام:

- لا يوجد شيء.. صدّقيني، الموضوع كلّه شفقة عليه وعلى ابنه، فرصة زواج من رجل غني جدًّا، اشترى لها شبكة لا تحلم بها أي بنت، ولو كانت جميلة الجميلات في الإسكندرية كلّها.

- عطوفة كأمّها، "أسرار" لئيمة أرادت أن تُظهِرك أمام الناس قاسية قلب رفضت رجلًا من أجل ابنه، وهي صاحبة القلب الذهبي العطوفة الرقيقة، مع أنّها لم توافق عليه إلّا لغناه. لماذا لم تنصحك بقبوله، وترين مِن العزّ ما ستراه هي؟ لماذا لم يراعِ أمّك وأبوكِ خاطرَك ورفضوه حتى لا يقول أحد أنه رفضك وأعجبته "أسرار"؟

- كيف يا خالتي؟! لقد جاء أربع مرات ورفضتُه.. الحقيقة أن أبي حاول كثيرًا معي، لكنّ اتفاقنا معًا جعلني أصرّ على رفضه.

- مَن سيعرف هذا؟! سيقول الكلّ إنّه فضّلها عليكِ.

كان هذا الكلام كفيلًا أن يُقلِب قلبَ "منى" على نار الغيظ والغيرة لترتفع أدخنةُ الكراهية من عينيها، نظرت لخالتها نظرةً فهمتها محسنة، لقد تمكّنت من إغضابها..

- يجب أن تحوّلي سعادتهم لنكد، اقلبي الدنيا وابكي واتّهمي أمّك وأباك بأنّهم لم يراعوا خاطرك، أعلني أنّك موافقة على العريس.

بُهتت "منى" ممّا تقوله خالتها:

- كيف وقد رفضتُه أربع مرات، ولم أقابله آخر مرّة أصلًا!

- أعرف، لكن هل ستتركينها تفرح بشيء كان يمكن أن يكون ملكك؟!

ضاق صدرُها بحديث خالتها المتواري، التي لا تعرف له ظهرًا من بطن، حرّضتها على الرفض، والآن تحرّضها على القبول:

- ما لي أنا، ما حدث في مصلحتي، سيعرف هشام بخطبتها المفاجئة وسينظر ليجدني في انتظاره، سيعرف حينها الوفيَّ من المخادع، الصادق مِن الكاذب.

فحيح الأفاعي كان يصدر مع كلمات محسنة التي تبثّها في آذان ابنة أختها لتقلبَ حياتها جحيمًا، لكنّ "منى" لم تكن لتميّز أي شيء، تسير خلفها عمياء إلّا عن هدفٍ واحد..

هل هو حبّ، أم أنه فرطُ غيرة؟

- لا بدّ أن تحوّلي فرحتهم إلى نكد، أم أنك لا تريدين أن تسمعي كلامي؟

- حاضر يا خالتي.

قالتها لأول مرّة على غير اقتناع، لكنها خافت من نبرةٍ تحمل نوعًا من التهديد الخفي، كلّ ما تتمنّاه الآن الارتباط بهشام، ليس لأنه طبيب ناجح أو الوحيد الذي سيقف مع ياسين على خطّ المساواة، حتى لا تتميز "أسرار" عنها.. بل لأنها تحمل له في قلبها حبًّا كبيرًا، وهذا ما جعلها تشعر بهذا الحنق على أختها عندما تقدّم هشام لخطبتها ورفضتْه، بينما هي التي تتمنى قربَه لا يعيرها أيّ اهتمام. خرجت تحمل غضبًا نفثته محسنة في صدرها. عادت إلى البيت لتجد "علية" و"أسرار" قد نجحا في شراء ثوبٍ فاخر للخطوبة، رأتها ترتديه، كان الفستان رائعَ الجمال، أضاف إليها حسنًا فوق حسنها، زادها هذا المنظر غيظًا وحنقًا.

ظلّت تبكي، وتلطم خدّيها في حالةٍ هيستيرية ليعلو صراخُها في دهشة منهما.

***

قتيلُ السكين تندفع دماؤه لتشهد الأرض على قتله، يتألم لحظات ثمّ يفارق آلامه وأحزانه وهمومه ومسئوليّاته.. أمّا قتيل الروح فدماؤه تتشربها خلاياها لتحيا ما أذنَ لها الله وهي تحمل آلامَ القتل مع كلّ نبضة قلب.

منى تصرخ كأنها تقدّم مشهدًا جنائزيًّا تريد أن تنال عليه جائزة الأوسكار، حاولت "علية" بشتى الطرق تهدئتها:

- لِمَ كلّ هذا الألم والعذاب؟! هل كُتِب علينا عدمُ الفرحة لمجرّد أنك لا تريدين هذا، لقد نفدَ صبرنا.

ازداد صراخُها، وارتفع صوتها:

- وما الذي فعلتموه أنتم بي عندما وافقتم على خطبتها لرجلٍ رفضتُه؟ ألن يقول الجميع إنّه فضّلها علي، ألن ينظر الكلّ لي على أنّني العانس التي رُفضت، ولها على أنّها أميرة الأحلام التي فرش لها ياسين الأرض ذهبًا؟!

- أنتِ مَن رفضتِه يا "منى" مع كلّ محاولاتنا لتوافقي، حتى عمّك إسماعيل حاولَ معك.

الجمودُ والتحدّي يملآن وجهها، مسحت دموعَها بكفيها، ثمّ رفعت رأسها، وبنبرة غيظٍ قالت:

- موافقةٌ عليه الآن.

بُهتت "علية" وأسرار ممّا سمعوا، لم تسنح الفرصة لأحدٍ بالردّ.. فُتح باب الحجرة، ودخل إبراهيم وهو ينظرُ شزرًا إلى ابنته:

- ما الذي أسمع!! ألم أقل إنّ هذا الموضوع انتهى، ولن يفتح مرّة أخرى بأيّ شكلٍ، ومن أي أحد؟!

- ولماذا لم تقلْ شيئًا مِن هذا عندما خطفت "أسرار" ياسين؟

لم يتوقّع إبراهيم أنّ "منى" وصلت إلى هذا الحدّ من الجرأة، وبالذات أمامه، وأكثر ما جنّ جنونَه كلمة خطفتْ ياسين، لقد ربّى إخوته البنات الثلاثة وزوّجهنّ، ولم يسمع تلك الكلمة من فمِ واحدة منهنّ:

- ماذا تقولين!! انتبهي لكلامك ولا تتجرئي أكثرَ من هذا، مَن التي خطفت مَن!! رجل غريب عن الإسكندرية، لا أنت ولا أختك ولا أحد منّا كان يعرفه، تقدّم لك ورفضتِ وبكلّ إصرارٍ وعِناد، تقدّم لأختك فقبلتْ بعد موافقتنا. ما الذي يُمكن أن يقال عنكم إنْ سمع أحدُ كلامك، إبراهيم لم يُربِّ بناتِه، ويتنازعون على رجل! الموضوع انتهى، هل تفهمين؟

ثمّ علا صوتُه وهو يكرر: "هل تفهمين"؟

حاولت "علية" وأسرار أن يهدئوا من روعه، لكنه سقط وسطهم مغشيًّا عليه.

أسرعت "أسرار" بلهفة إلى هاتفها، تحرّكت يدها من وراء دموعها بلا وعي منها لتطلبه، تحتمي به من خوفٍ أصابها لحظة سقوط أبيها، كلماتها غيرُ مفهومة، دموعها تمزّقه ليأتي الردّ:

- اهدئي يا أسرار، سأكون أمامك حالًا.

عربة الإسعاف أمام البيت، نقلوا إبراهيم إلى المستشفى في ذهولٍ من منى، لم تكن تتوقّع أن تكون سببًا في سقوط أبيها أو موته، لم تجدْ مَن يجيرها إلّا خالتها، أخبرتها وهي لا تعلم أنّ هذا كلّ ما تمنّت.

أوّل لقاء يجمعه بها بعد لقائهما أمام الجامعة، وعدها ألّا يظهر أمامها مرّة أخرى لكنّه لا يستطيع، لا يمكنه التخلّي عنها، لا يمكن أن يتركها تسقط مهْما كلّفه الأمر، حتى وإن كان الثمن عذابه، حادثته فجاء يجري، إنها زهرته التي لن يتركها تذبل، سيجعل من قلبه نهرًا يرويها ما دام نبضه. وقف أمامها يطمئنها ويشدّ أزرها، كان يحدثها وعيناه لا تفارق عينيها التي ملأتها الدموع، فزاد سحرهما كالبحر الذي هاجت أمواجه، لا يتخيل يومًا فراقَها، سيجعل اشتياقه لها العالم أمامه خاليًا إلّا من ذكرياته معها التي يحملها بين ثنايا عقله وقلبه لتهدهده إن استحال عليه النوم، وتطمئنه إن استبدّ به الخوف.

- اطمئنّي، سيكون بخير، أعدُك.

مسحت خدّيها بكفّين مرتعشتين وهي تقول:

- تلك هي المرّة الأولى التي أرى فيها أبي يخرّ ساقطًا أمام أعيننا، لا أتخيّل الحياة بدونه يا هشام، لكنّي اطمأننتُ لحظة أنْ هاتفتُك وسكن قلبي الهدوء.

- ألم أقلْ لك إنني ظلّك الذي لن تستطيعي العيش بدونه!

انتبهت ونبّهت عقلها بعد كلماته، تبدّلت ملامح وجهها وهي تفكّر كيف هاتفته بلا وعي، لماذا لم تتّصل بياسين؟ أرادت أن تحجز فيضانَ حبّه فرفعت يدها اليمنى في وجهه وهي تقول:

- ألم تعلم بأمر خطبتي؟

كانت الدبلة التي تلتف حول أصبعها كنار جهنّم تلفح وجهه، نظر لها نظرةَ عتابٍ طويلة، لملمَ شتات نفسه المُبعثرة الممزّقة، وبابتسامة ألمٍ قال:

- تمام يا ابنة خالتي، الوقت هو الوحيد الكفيل بإزاحة أيّ غشاء طمس على قلوبنا وأعيننا، سيري في طريقك مطمئنةً أنه هناك مَن سيمدّ يده عند أي لحظة سقوطٍ ليرفعك، حتى وإن كان الثمن عمرَه.

اختفى هشام من أمامها، والحزن يدقّ باب قلبه، يعلن مجيئه بغير انصراف، هل جاء مَن خطف فتاته التي عشقها؟ فتاته التي رأى عيونها يومَ ولادتها وهو صبيّ في الثانية عشرة قبل أيّ رجل، عاشت في وجدانه طيفًا جميلًا كبر

به ومعه، مشى وراءها كظلّ لا يختفي ليلَ نهار خوفًا عليها من أيّ شيء، وأيّ أحد، عشقها كما لم يعشق أحدٌ أحدًا من قبل، كانت يومَه وليله، سكنت عينيْه وقلبه وروحَه وكيانه كلّه، تجري مع دمائه التي تغذّي جسده، هل جاء الآن مَن سيرحل بها عن دنياه ليقتات هو على ذكرياته معها حتى يموت جوعًا في صحراء الشوق والوحدة والغربة بدونها؟!

وبنظرةِ حزنٍ وتنهيدة عميقة حدّث بها نفسه.. "لكن لن يستطيع أحد أنْ ينتزعك من داخلي مهْما كان"

ذهب هشام من أمامها، وذهب معه شيء ما، شيء ما بداخلها ذهب وراءه ولن يعود إلّا بعودته، هل سيتخلّى عنها؟ سيقاطعها، لن تجده حولها لتركنَ عليه كحائط صدٍّ شديد، تشعر باختناقٍ ووحدة بعد ذهابه..

بعيدًا حيث لا ترى خفت هناك ضوءٌ، وارتسم وجهٌ حزين بدمعةٍ تأبى السقوط.

***

لم يعدِ الفراق مخيفًا يومَ صار اللقاء موجِعًا هكذا.."غادة السمان"

لم تتقابلا منذ وقتٍ طويل، كانت تُمسك "منى" بيدٍ، وتحيط ذراعَ إبراهيم بالأخرى، وهو يحمل "أسرار" طفلة لم يتجاوز عمرُها العامين، يسيران على

كورنيش الإسكندرية عندما ترامى من الناحية الأخرى صوتُ صبيّ وهو يصرخ "خالتي يا أمي"..

نظرت في اتّجاه الصوت ليلتقيان بعد سنواتٍ طويلة من الجفاء وقطيعة الرحم، حاولت كثيرًا وصْلَه، لكنّه كان يبدو أنه انقطع بالفعل.. مَن يصدّق! عشنا معًا، أكلنا من نفس الطبق، شربنا من كوبٍ واحد، ضمّنا سرير واحد ندفّئ بعضنا في ليالي الشتاء الباردة، نحكي ولا ننتهي أمام الشباك في ليالي الصيف الحارة، لننتهي إلى لا شيء..

كان كلّ شيء يمرّ أمام "علية"، بينما محسنة تجلس أمامها تستمتع بحزنها الذي جعلها كبرت دهرًا، دموعها لا تجفّ على عشرة عمرها الغالي، الرجلُ الذي عاشت معه الحياة بهدوئها ورقيّها، إنه كلّ شيء، كلّ شيء.. لا تتذكر يومًا آذى مشاعرها بأي كلمة، يقيم لرأيها ألفَ وزنٍ ويُعيرها كلّ الاهتمام، يحمل معروفَها على رأسه، ويذكرُها دائمًا بأنها مَن وقفت بجانبه في وقتٍ باعه فيه الكثيرون.

خرجت من قلبها زفرةُ ألم، حجزتها شفاهها "آه يا إبراهيم"

همستْ لها محسنة:

- قلبي عندك يا عليّة، عندما سمعنا خبرَ إبراهيم أسرعت أنا وابني الدكتور هشام.

استنكرت "علية" كلماتها التي تخلو من أيّ رحمة أو شفقة:

- خبرَه! ربّنا يبارك في عمره، إن شاء الله سيقوم بالسلامة.

لم يمنعْ محسنة ما تراه على وجه أختها من حسرةٍ وألم، أكملت ما جاءت مِن أجله:

- هل سيعظُم على خالقه، أم أنه سيعيش عمرَه وعمرَ غيره، كلّ واحد فينا له يوم.

بدأ صوت "علية" في الارتفاع مِن كَم الغيظ الذي يملأ قلبَ أختها:

- سبحان الله! لماذا جئت يا محسنة؟ للشماتة، اللّهم لا تُشمت فينا أحدًا، وشكرًا على الواجب.

أسرعت "منى" التي لم تنطقْ كلمة واحدة منذ دخولها إلى المستشفى تدافعُ عن خالتها التي لا تعرف حجم الغلّ الذي جاءت به:

- لماذا ستشمتُ خالتي في أبي؟!!

أشاحت وجهَها عن ابنتها وهي تتمتم:

- أنتِ غبيّة لا تفهمين شيئًا، وقع أبوكِ من طوله بسبب غبائك، وسنفقد رجلَنا الذي يظلّنا وسنصبح لقمةً سهلة للكل، وأوّلها جاءت مِن الأقارب فما بال الغرباء!

وضعت رأسَها في الأرض خجلًا، أبوها أحنّ إنسانٍ عليها، لم يخذلها يومًا، كان أمامها ووراءها، يحاول أن ينقذها ممّا هي فيه الآن.. أين هو؟ بين الحياة والموت بسببها، حتى هشام الذي تمنّته عمرًا، وضيّعت كلّ فرصها من أجله أسرعَ إلى أسرار، باعتْه فهرول إليها، واشترته هي بعمرها لكنه لم يلتفت لها التفاتةً واحدة، ليتها ما أعطت أذنَها لخالتها، ليتها وافقت على ياسين، وخرجت من كلّ هذا الهراء الذي أمضتْ فيه صباها وجزءًا كبيرًا من شبابها.. صدقَ هشام "كلّما ازداد عمرُها زاد خطؤها"

لم تهدِ "منى" نفسَها للصواب، بل تعرّجت بها الطرق لتجدَ مَن تُلقي عليها فشلَها، كما فعلت خالتها من قبل "أسرار".. تحتفظ بقلبِ هشام مهْما فعلت، تستحوذ على حبّ أمّها وأبيها، وفي النهاية خطفت ذلك الخاطبَ الذي من الواضح أنّه سيفرش لها الأرض بالورود.

لم تصدّق "علية" نفسها عندما سمحوا لهم برؤية إبراهيم في حجرة العناية المركّزة، هرولت كالطفل الصغير الخائف نحو أبيه، الأجهزة تُحدث صفيرًا أجرى الدموع نهرًا من عينيها، إبراهيم يلبس قميص المستشفى الأزرق، ومستلقٍ على السرير بلا حراك، عيناه مفتوحتان بضعف.. ألقت برأسها عند قدميه تقبّلهما، تحتضنهما كأنّها تستحلفهما لتنهضا وتخطوا على الأرض بهذا الجسد الذي تعشقه، سترُها وأمنُها، الجسد الذي ظلّلها فلم تحرقْها شمس،

الذي أحاطها فلم تشعر يومًا بحاجةٍ إلّا إليه.. هزّ منظرُها الجميعَ حتى منى، هوى هشام يرفعها مِن على الأرض يحتضنها بكلّ حنان، ومِن وراء ألمٍ يقبض على صدره، وبصوت واهنٍ قال إبراهيم وعيناه تتحرك ناحية "علية" وإسماعيل:

- لم أخرج من الدنيا بشيء إلّا أمكم وإسماعيل، وهذا من رضا الله.

أقبلت تقبّل رأسه، ودموعُها لم تزلْ تبلّل خدّيها:

- أمّا أنا، فأنت كلّ ما حظيت مِن تلك الحياة، لا أستطيع أن أراك على ذلك السرير، أتمنى أن تنهض وأنام أنا مكانك، انهض يا إبراهيم فلم يعدْ في القلب مكانٌ لألم.

لم ينتظروا كثيرًا حتى وجدوا ياسين أمامهم، أخبره إسماعيل فجاء مسرعًا ليكون بجانبها:

- ألف سلامة يا حاج إبراهيم، لا أرانا الله فيك بأسًا.

- سلّمك الله، تعبت نفسك، المشوار طويل.

- كيف تقول هذا؟! أنتم أغلى ما لديّ الآن.

وقف ياسين بجانبها يواسيها، ويخفّف عنها حزنها بحنان رجلٍ لم يعرف للحبّ معنى إلّا عندما التقت عيناه بعينيها، لم يستطع كتمَ عتابه، لماذا لم تتّصل

به؟ كيف يخبره إسماعيل وهي لا؟ كان يجب أن تجري عليه بفزعها وخوفها ليشعر أنه استطاع احتواءها!!

- لماذا لم تكلميني؟

خجلتْ وهو يلومها بالرغم من لطفِ لومه، عنده حقّ لماذا لم تلجأ إليه ولجأت لهشام وعمّ إسماعيل، عادت لتمسح عن قلبها شعورًا تريد أن تكذبه بأنّهم هُم الأقرب مكانًا..

- هزّتني سقطةُ أبي، ففقدت السيطرة على نفسي، كلّ شيء حدث فجأة.

كانا يتحدثان، وعينا هشام ومنى لا تتركاهما لشأنهما.. هشام تقتله الغيرةُ من شعورٍ سطحي يسكن عينيها لرجلٍ لا يعرف مِن أين جاء، ومُنى يقتلها الغيظُ والحسرة على سنوات عمرها الضّائعة التي عادت منها خالية الوفاض، السعادة التي تسكن عيني "أسرار" وقلبها ملك لها، سرقتْها منها بخبثها ومكرها، صدقتْ خالتها "خطّافة رجال".

***

كلّ شيء يولَد صغيرًا فيكبر، تولدُ الوردة وريقاتٍ في برعمها، ثمّ تتفتح لتنشر عبيرها، يولدُ القمر هلالاً ثمّ يصبح بدرًا يضيء السماء.. إلّا الحبّ يولَد متفتحًا ينشر عبيرَه وشذاه، يولد بدرًا ينير القلب والعين، ما أروع بداياتِ الحبّ، وهل للحبّ إلّا بدايات!!

غاص شعورُ وحدتها في أعماقها، أحاطها ياسين بعباءةِ رجولته فلم يتركها وقتَ شدّتها، أظهر معدنَه الغالي في تلك الأيام التي هبّت برياحها العاتية، يقترب ويقترب حتى لم يعدْ أيٌّ منهما يستطيع أن يفارق الآخر، مشاعر الحبّ التي تجمعهما في نظرةٍ كانت أقوى من أي تعبير آخر.. أحبّ خجلها وهمسَها وصمتَها الذي يقول كلّ ما تريد، أصبح أسيرَها بقيودٍ لا يتمنى أن ينتزعها أحد، محبوبته التي تسقيه حبّها لتعيد له شبابَ قلبه، طفلته المدللة التي يتمنّى أن يأتي لها بقطعةٍ من السماء.. وأصبح هو حبيبَها الذي خطفها من نظرةٍ كما تمنت، رجلها الذي يفيض عليها بكلّ معاني الحبّ والاحتواء والكرم، ترى فيه وجهَ أبيها، وهذا كلّ ما تريد.

جلسا في الشرفة التي جمعتهما بنظرة..

- عرفت هنا ما كنت أسمعُ عنه ولا أتخيل أنني سأجده يومًا.

هزّت "أسرار" رأسها في خجلٍ تستوضح ما هو ذلك الذي سمع عنه ولم يجدْه..

- القلوب التي لا تحتاج لوقتٍ أو عِشرة كي تميل لبعضها، الأرواح التي لا تهزمُها مسافاتٌ إن أرادت أن تقترب، جئت لأرى عروسًا تُعمر بيتي، فوهبَ الله لي عمارَ قلبي وأيامي.

استشعرت كلّ معنى ينطق به قلبُه، فيجري كلمات على شفتيه، كان يتمنّى أن يلقى الحبّ لكن حدث ما حرمَه منه، تمنّت أن تسرّ له بأنها ستعوّضه عن

الشقاء سعادةً وحبًّا، سيكون لها الكونَ بأسره، لكنّها كتمت إحساسها في صدْرها من فرط خجلها.. زاد صمتُها شوقَه إلى صوتها، يعرف أنها لن تتكلّم بسهولة..

– أحبّك يا "أسرار" بكلّ معنى الكلمة، ستتعجّبين أذا عرفت متى شعرت بحبّك يمتلك قلبي بأسْره!

– متى؟

– مِن أوّل لحظة لمست يدي فيها يدكِ، عندما تلاقت أعيننا أوّل مرّة خطفتِ قلبي وهربتِ به ولم يدخل صدري مِن يومها، رحلت وقد رحل، لم أكنْ أعلم أني سأستقبلك تحملينه في كفٍّ وفي كفّك الآخر فرحةُ الدنيا، لم أصدّق نفسي عندما رأيتك في الشرفة، قالت لي عيناك الكثير، وأنا صدّقتها، والحمد لله أنني صدقت.

ثمّ رفع كفّها، ولمسه بشفتيه..

شعرتْ بدُوار في رأسها، وحمرةٍ تندفع إلى وجهها، شعرت بخدر العالم يسري في بدنها، أوّل لمسة حبّ أصابتها، جميلٌ هو العشق..

ابتسم لها ياسين ابتسامةَ حبّ وهو يقول:

– هل سأطمع في أنْ أعرف متى شعرتِ بحبي؟

- كلّ ما قلته أحسستُ به في نفس الوقت، لكنّي خشيت ألّا تفهم رسالة عيني يوم الشرفة، الحمد لله أنّك صدقت.

- ألم أقل لكِ إنّ القلوب لا تحتاج إلى وقتٍ ليحتلّها الحبّ، لحظة تُبدر فيها بذرة الحبّ في القلب، أعدُك أنني سأروي تلك البذرة لتصبح بداخلنا شجرة كبيرةً تثمرُ سعادة لنا ولمَن حولنا.

تذكّرت- في تلك اللحظة- شعورَها القديم بعظمة الحبّ، تذكّرت الحبّ الذي يُلقى في الجُب والسجن، فقالت:

- هذا أهمّ شيء، نراعي تلك البذرة جيدًا حتى لا تذبلَ وتموت، حتى لا نُعاني الندم، الأشجار لها جذور قوية، وهذا ما يجعلها تتشبث بالحياة. علينا أن نحافظ على بذرةِ حبّنا حتى تتمسّك جذورها بالأرض ولا تذروها الرياح.

نظر ياسين في عينيها نظرةً طويلة قبل أن يجيب ويسأل:

- لا تقلقي، ستقوى جذور حبّنا، ولن تتقاذفها رياح مهْما كانت قوتها. أعدُك بهذا، هل أنا أوّل حبٍّ في حياتك.. أم أنه كان هناك أحدٌ قبْلي؟

ردّت بمداعبةٍ وشقاوة زادت لونَ عينيها جمالًا:

- ما الذي تتمنّاه؟

- أتمنّى ما أنتِ عليه.

- اعلمْ أنّك أوّل مَن دقّ له قلبي، ولمعت له عيني، أوّل مَن احتوى روحي من نظرةٍ، ومشاعري من لمسة، أول مَن لمس كفّي، وسمع منّي كلمةَ حبّ، تعرف.. كنت أنتظرك، ولم أملّ الانتظار، أنتظر ذلك الإحساس الذي ربطنا برباطٍ خفي، وأدعو الله ألّا يتفلّت من يد أحدنا.

ارتاح صدرُه وهدأ قلبه، تنهّد تنهيدة أطلق فيها كلّ مخاوفه مِن تجدّد قصته القديمة مرّة أخرى.

ظنّا أنهما في الشرفة بعيدان عن أيّ عين تحيطهما شجيرات الورد وزهور الياسمين، فكانت عينا "منى" تتلصّص عليهما، تشعرُ بغيظ يستشيط في قلبها، وتشتعل فيه النيران، خرج لهيبُها شررًا يتمتم:

- ألم تنتهِ مِن حبّها بعد يا هشام!!

***

يقول باولو كويلو: "شيئان يحرماننا من السعادة: العيش في الماضي، ومراقبة الآخرين"

السعادة ليس معناها مَن أنت وماذا تملك؟ كلّ ما تعنيه مَن أنت وماذا تحمل بداخل صدرك!

البيت الصغير مزدحم، تحاول أن تُعدّ كلّ شيء على أجمل ما يكون، "أسرار" تستحقّ وياسين أيضًا، فقدت سندَها مؤقتًا، ولا تريد أن تُشعره بعجز، ينام في غرفته لم يكتمل شفاؤه بعد، أجهدت الأيام قلبَه وعاونتها ابنتُه الكبرى بالكثير، فخرّ كجبلٍ صمد طويلًا، لن يعود كما كان.. تعرف هذا، كسرت "منى" شيئًا بداخله، لم يكن هذا ما تمنّى الذرية من أجله، روحًا شقية تُشقي مَن حولها.. تتلفّت حولها لتعي الحقيقة، أين الأهل والأخوات؟

في يوم كهذا، لم يكن بيتُ العروس يخلو، تبدل كلّ شيء حتى طعمُ الفرح..

- لا حرمني الله منكم يا سعاد، تعبت معنا.

- ما الذي تقولينه يا عليّة، إنّ بناتك بناتنا، وأنت أختي، وإبراهيم أخو إسماعيل الرّوحي.

- وأكثر، إخوة وأكثر، ألّا ترين يا سعاد! أين أختي التي على بُعْد شارعين منّا، وأخوات إبراهيم كلّ واحدة ستأتي على مهلها، الكلّ يريد الفرح بلا تعَب، أمّا أنتم فعوّض الله لنا عن كلّ شيء.

أشارت سعاد برأسِها لعليّة ناحيته لتخرجها من إحساسها بالوحدة، يجهز المكان لاستقبال المدعوّين بالفِراشة، يضع كرسي العروسين، وحولهما الورود بكلّ حبّ، وكأنّ "أسرار" ابنته هو.

ضحكتِ الاثنتان للفرحة الطفوليّة الجميلة التي تملأ عينيه، والتي زادتها "أسرار" وهي تداعبه وتلفّ يدها بيده:

- سأتعلّق بكَ أنت يا عمّ إسماعيل وليس بياسين.

زادت الدعابةُ من سعادة إسماعيل، شعر أنّ له فتاة ستُخطب:

- آآآه، حتى يغِير "منى" الحاج ياسين الهائم بكِ، ويعاقبني بالحرمان من البضاعة..

ضحكوا جميعًا ليزيد من سعادتهم خروجُ إبراهيم. أمنياتُ البسطاء ترعاها دومًا عينُ الله، لم يمرّ كثيرٌ حتى امتلأ البيتُ بالأهل، والجيران لا يكفّون عن المساعدة والتهنئة، والزغاريد ترجّ أركانَ المكان.

اضطرّت "منى" إلى ابتلاع كلّ آلامها وأحقادها حتى لا تكون نهاية والدها على يديها، لن تسامحَ نفسها إذا حدث له مكروه من جرّاء أفعالها، لقد كانت طفلتَه المدلّلة التي لم يكنْ يقوَ على الابتعاد عنها، عاشت عشرَ سنوات في حضنه وحنانه، لا شريك لها فيهما حتى جاءت "أسرار" إلى الحياة، صحيح أنه لم يفضّل إحداهما على الأخرى لكنها جاءت لتنتزع منها التربّع على عرش قلبه وقلبِ أمّها بطيبتها الزائفة ولسانها المحشوّ بالعسل، وعيونها التي لا تحمل إلّا البراءة الكاذبة.

احتضن المساءُ فرحتهم، العيون والقلوب والألسنة تُلقي بتهانيها للخطيبيْن، الحفلُ بسيط، ومن البساطة تأتي السعادة، لم تحتاج "أسرار" للكثير ليظهر جمالُها في ذلك الفستان الرقيق المائل للوْن عينيها، والمطرّز بذهبية قلبها، رفعت شعرَها لتتدلّى خصلاته السوداء حول رقبتها وأكتافِها في دلال، ذابت خجلاً، وياسين ببدلته السوداء ووسامته الرجولية يمدّ لها يدَه لتتعلّق بها، لمح أبوها خجلَها فابتسم مشجّعًا، وأرسلت لها أمّها قبلةً مِن قلبها قبل شفتيها عبْر الهواء، إسماعيل وسعاد حُرما من الذرية لكنّ "أسرار" فتاتهما التي لم تشعرْهما يومًا بالحرمان، فلتسعد كما أسعدتِ الجميع، أحمد يركن بجانب ياسين، احتضنته "أسرار" وقرّبته إليها وأجلسته بجانبِها فخطفت مِن شفتيه بسمةً طفوليّة خجولة، ومِن قلبه نبتةَ حبٍّ وأمان.

لكنْ.. متى اكتمل الهَناء؟!

في زاويةٍ بعيدة يقبع الكيد، عينٌ لا تفكّر إلّا في يوسف وإخوته، أين تلك البئر لتلقي فيها "أسرار" الآن وليس بعد دقيقة، تريد بئرًا بعيدة لا تمرّ بها قافلة، بئرًا ملعونة لا يخرج منها مَن تبتلعه.

***

عندما نظنّ أنّنا أحكمنا خناق ضحايانا وشدَدْنا حبل انتقامنا حول رقابهم، سيكون هو نفسَ الوقت الذي ستدمى أيدينا وتشلب دماؤنا من خشونته.

الانتقام شفرةٌ حامية لا تصيب الهدفَ فقط، بل تنزع مِن المنتقم أغلى ما يملك، ومَن أراد أنْ يحفر حفرة انتقامٍ؛ فليعلم أنه أوّلُ ساكنيها.

بيتُ "علية" تملؤه الزغاريد، وبيتُ محسنة يخيّم عليه الحزن من فرط لوعةِ هشام لفراق فتاتِه التي لم يتخيّل يومًا أنّه لن يكون بجانبها في ذلك اليوم الذي كان حلمَ حياته، العيون التي أسرَتْه، والوجهُ الذي امتلكه، والقلبُ الذي عشقه؛ أصبحوا اليوم ملكًا لغيره.

ربتتْ على كتفه بحنان:

- يكفيك يا هشام يا حبيبي، مَن خلقها لم يخلق غيرها!؟

أبعد يدَها عن كتفه، وهو يردّ بضجر:

- خلق، لكنّي أحبّها هي، ولا أحبّ غيرها، وأنت تعرفين هذا، وبدلًا مِن أن تساعديني ساهمتِ فيما حدث بأكبرِ نصيب، لا أعرف كيف يمكن لأمٍّ أن تقتصّ لنفسها بمقصلةٍ تشنق فيها ابنَها الوحيد!!

محسنة حذرة، لا تعرف لماذا يقول هشام هذا الكلام:

- أنا يا هشام!؟

- طبعًا، العداء الذي أعلنتهِ على بيت خالتي أعرف سببه جيدًا، أنت لا تعرفي "أسرار" كما أعرفها، تحبني لكنّ الحاجز الذي بنيتِه جعل رؤيتها غيرَ واضحة، ستعرفين ذلك يومًا.

تغيّر لونُ وجهها وارتعش صوتها وهي تسأله:

- ما الذي تعرفه؟

- كلّ شيء، أكثر ممّا تتوقّعين، كنت أخاف دومًا أن أسبّب لك ألمًا، لتأتِ وبالسكين التي تمنيتِ أن تلطخيها بدماء روح خالتي فأصبتِ روحي، ألا ترينَ نزيفي الذي يملأ المكان، ألّا تستمتعين بدمائي على الأرض، تمنيتِ دماءهم فسال دمي أنا، لكلّ انتقام ضحايا، وضحيّة انتقامك ابنك، هل تشعرين بالسعادة؟ لكنْ فلتعلمي أنّ انتقامك لا أسبابَ له على الإطلاق، أنت المخطئة الأولى والأخيرة.

- كيف تعرف كلّ شيء، وتقول أنني أنا المخطئة؟ كلّهم المخطئون، وبالذات "علية".

- آسف يا أمي، سامحيني، ولأوّل وآخر مرّة سأتعدّى حدودي معك، لست أنا هشام مَن يتكلم، إنا شظايا قلبي المنفجر، شررُ النار التي يحترق بها داخلي.

ثمّ ظهرت دموعٌ غالية في عينيه تعبّر عن مدى نزيفِ قلبه ليكمل:

- أنت المخطئة ولا أحدٌ غيرك، عرفت ذلك من صديقٍ قديم لوالدي، حكى لي كلّ شيء بلا زيف أو خداع، بحياديّة مُنصفة لدرجة أنه ذمّ في خلق أبي وهو صديقه، حملتِ نتيجة اختيارك الفاشل على شمّاعة غيرك.

تاهت محسنة في دوّامة، لم تظنّ أنها ستدخلها يومًا، ظنّت أنه لا يعرف عن الأمر شيئًا، ظنّت أنها تأخذ ثأرها في الخفاء، فلم يرها إلّا الشخص الوحيد الذي لم تتمنّ أن يراها على تلك الحال من الانتقام..

- لم أرغب يومًا في أذيّتك، أنت ابني، كلّ ما لي في هذه الحياة، لو كانت "أسرار" وافقت على الارتباط بكَ كنت سأوافق أنا أيضًا، لكن رفضها زاد نار انتقامي اشتعالًا.

- بالله عليك.. كيف ستوافق "أسرار" وقد حوّلتِ أختها إلى جمرة نارٍ من ناحيتها، "منى" لا تطيق أهلَها وأنت السبب، صنعتِ منها نسختك، أنت هي وهي أنت، أخطاؤكم يجب أن يتحمّل وزرها غيركم، اعلمي أنّ حصاد ما زرعتِه لن يتوقّف عند حزن خالتي أو زوجها كما تظنين، سيكون الثمن أعظمّ، وستكونين أولَ النادمين.

- لكنّها تحبّك..

هزّ رأسه في يأس، مِن أين تأتي غشاوة العقل:

- "منى" لا تحبّني كما لم تحبّي أنت عمّ إبراهيم، مَن يحبّ لا يقسو، لا يجرح، "منى" شخصيتها مهزوزة وانقيادية، لا تعرفي ما يدور في عقلها، أفكارها مضطربة، ومشاعرها ليست نقية.

- وأسرار.. مشاعرُها نقية؟

أثارت سخريةُ محسنة غيظَه:

- نعم نقيّة، لم تعدني بشيء، فتاة واضحة، الانتقام والغلّ والحقد والغيرة لم يختلطوا بدمائها، ما تريده تريده لذاته، لا رغبةً في تحطيم الآخرين.

هزّت رأسها وهي تحدّث نفسها.. "هشام محقّ، "أسرار" فعلًا فتاة نقيّة، أمّا هي ومنى فوجْهان لعملة واحدة، لن يحظى هشام بالسعادة إن تزوّجها، هي لا تحبّه كما تظنّ، هي فقط تريد أن تأخذ شيئًا من أسرار"

- لا داعي لبيت "علية" بأكمله، اخطبْ أخرى.

تنهّد تنهيدةً حارّة خرجت من قلبه المكتوي:

- أخرى!! لن يكون هناك أخرى، إمّا "أسرار" وإمّا لا واحدة، سأسافر وأترك البلد لتفعلي ما تشائين.

لم تشعرْ محسنة بنفسها بعد مفاجأتها بالسفر إلّا وهي تضرب صدرَها بكفّها:

- تسافر!! إلى أين؟ ستتركني وحيدةً يا هشام؟

- سأسافر الكويت، إسلام صديقي هناك، حاول أكثرَ من مرّة أن ألحق به وكنت أرفض، وافقت أخيرًا، سأتركك ولأول مرّة لخططك وانتقامك

التي سمّمتِ بهما حياتي، اختنقت بسمّ أفعالك، الشيء الوحيد الذي دفعني للصبر والبقاء هي "أسرار"، حتى هي الآن لم تعدْ لي، طارت بعيدًا، وأنا أيضًا سأطير.

لم يتركْ لها متسعًا من الوقت وانصرف، الآن تعلم أنه كان يعرف كلّ شيء بالرغم من ذلك لم يردْ أن يواجهها حتى لا يجرحها، فماذا فعلت هي مِن أجله!؟ باعدتْ بينه وبين "أسرار" بنفس المسافة التي صنعتها بين "منى" وأختها.

عاقبها الله بحرمانها من ابنها، كما حرمت "علية" وإبراهيم مِن حبّ ابنتهما، صدق هشام: لكلّ انتقام ضحاياه.. وبسفره ستكون هي أوّل الضحايا.

***

الماضي أرض متسعةٌ بلا تأشيرة أو رحلات طيران، رحلةٌ مجانية بلا عملات، العملةُ الوحيدة جمالُ الذكريات وصدق المشاعر ونقاء القلوب.

حبالُ المحبة تجدل ضفيرةً قوية بين ثلاثتهم؛ "أسرار" وياسين وأحمد الذي أصبح ابن "أسرار" المدلّل، يحبّها ويتقرّب منها كالقطّ الصغير بعيونه التي تشبه عيني أبيه فيهوي قلبها نحوه.

قلبُ "منى" تحوّل إلى بركان، لا تعرف كيف تنشر حمَمَه لتحرق مَن حولها بناره، علمتْ بسفر هشام وانتهاء أملها في خطبته. سفرُه الذي حوّل محسنة

إلى شخصٍ آخر غير الذي عرفته، تحوّلت من قمّة الكلام إلى قمة الصمت، من قمّة التشفّي والغضب إلى قمة الحزن والألم، لم تتوقّع أن تراها يومًا منهزمة تلك الهزيمة النفسية، لم تتوقّع أن تراها والدموع تملأ عينيها، عيونُها التي لم يهتزّ لها جفن.. مِن أين أتت بالدموع! الأغرب أنها كانت تسألها عن أحوال أبيها وأمّها بطريقةٍ ليست كالسابق، وكأنّها تطمئنّ بالفعل عليهما.. هل هذا ندم؟ أم احتراق لغياب هشام؟ أم مسكنةٌ تُظهِرها لأنها لم تحقّق وعدها لها؟

- حالك تغيّر يا خالتي، لا أعرف لِمَ كلّ هذا الحزن؟ مَن الذي يجب أن يحزن؛ أنتِ أم أنا؟!

نظرت لها بخيبةٍ، ماذا ستقول؟ هل تسرّ لها بأنّ الندم ينهش أحشاءها، وأنه لو عاد الزمنُ إلى الوراء لما فعلت بها وبهشام ما فعلت..

- تكلّمي معي، لا تسكتِ هكذا، رأسي سينفجر، فقدت كلّ شيء، وكسبتْ "أسرار" كلّ شيء، قلب هشام حتى بعد ما فعلت، وقلب ياسين في يدها تحرّكه كيف تشاء، يغدق عليها ما لا تتخيّله، كان يجب أن يكون كلّ هذا لي لولاكِ، وإن كنت أنتِ استسلمتِ لسفر هشام فأنا لن أستسلم، لن أتركها تنعمُ بكلّ شيء وأنا أحْرَم من كلّ شيء.

لم تستطع بأيّ كلام أن تُخرِج خالتها من صمتها الذي يشبه الغيبوبة، فآثرت الرحيل.

لو تعلم "منى" ماذا فعلت بكلامها!! صدق هشام: "مُنى قنبلةٌ ستنفجر قريبًا، والله وحده أعلمُ بحجم الخسائر".

لم تعدْ تعرف للنوم سبيلًا، الماضي يقتصّ منها قصاصًا عادلًا، صنعت بأيديها سلاحًا سيدمر كلّ شيء، سافر ابنُها الوحيد الذي لم تحبّ في الحياة غيرَه، وتركها وحيدة. منذ وفاة والده وهو كلّ أهلِها بعد موت الوالدين، والعلاقة الملتهبة بينها وبين أختها الوحيدة، كلّ ليلةٍ تعيد حساباتِها التي يبدو أنها أخطأت في تقديرها، باتت الأيامُ بطيئة لا أحداثَ فيها، كلمات هشام الأخيرة وتوعّد "منى" بالانتقام تخترق جسدها كإبرٍ توخز شرايينها بعنف لتطهّرها من دماء الكراهية التي ملأتها.

الساعات تمرّ كأنّها سنوات عمرها الفائتة التي لم تذقْ فيهم طعمَ الهناء إلّا في الفترة التي تزوّجت فيها إبراهيم، ليتها ما تركته، لم يمرّ يوم إلّا وأكلها النّدم.. إبراهيم الرجلُ الذي لم تشعر بحبّها له إلّا بعد طلاقِها منه، وإصرارها عليه بالرغم من حُسن خلقه وأدبه في معاملتها، وكرمِه في حدود مَقدرته، لسانه الطيب وعشرته الجميلة، حاول- وكلّ مَن حولها حتى أختها "علية"- أن يثْنوها عن الطلاق لكنّها لم تسمع لصوت أحد. أرادتْ حياةً مرفّهة ثرية تليق بجَمالها الذي سيطر على عقلها، خنقها فقرُه فاتّخذت نقطةَ ضعفه في عدم قدرته على الإنجاب سبيلًا للطلاق.. جرحتْه بنقصه فقتلتها

الأيامُ بنفس السكين التي آلمته بها، وقفتْ بكلّ جبروت تعيّره أمام الجميع- حتى أمام صديقه إسماعيل- بعدم مقْدرته على الإنجاب وبفقره، خذلته وهو الذي لم يخذلها يومًا، صحيح أنه لم يعطِها الكثير، لكنه كان كلّ ما يملك.. لم ترحمْ ضعفه لحظةً واحدة، بل داست على جرحِه وعبَرَت..

عبرت إلى حسن التاجر الثري الذي تقدّم لها فور انتهاء عدّتها، حذّرها الجميع مِن بُخله وقسوته فظنّتها غيرة، حذّرتها "علية" مرارًا وتكرارًا منه ومِن الحياة معه، ليتها سمعتِ النُّصح، عرفت في بيته أنّ الثراء ليس ثراء المال وإنّما ثراء النفس، عرفت طعمَ الحاجة والذلّ لتحقيقها، ذاقت ما لم تذقْه مِن هوان، ضربت وسحلت وجاعت وحُرمت.. لكنها لم تستطع النطقَ بكلمة، بل اضطرّت لكتْم كلّ شيء حتى لا يشمتْ بها أحد.

لم يرحمْها منه إلّا موتُه المفاجئ، كانت ستضع هشام بعدها بشهرين، تمنّت أن تعود لإبراهيم بعد ولادتها إلّا أنها فوجئت بارتباطه بعليّة أختها، وموافقة أمّها وأبيها.

لم تُعلق فشلَها على سوئها، بل علقته على أختها التي خطفت منها إبراهيم فلم تسمح لها بالعودة إليه، زاد غيظُها اتساع تجارته بعد زواجه من "علية" فلم يعدْ فقيرًا كما كان، الأكثر من هذا أنّ الله رزقهما بـ"منى" ثمّ بأسرار بعدَ "منى" بعشر سنوات، فأخذت على نفسها العهدَ ألّا تترك "علية" تتمتّع بما

كان يجب أن يكونَ لها، انتهزت فرصةَ تعلّق "منى" بهشام لتستقطبها من أمّها، وتملأ قلبها حقدًا على "أسرار" فيتمزّق إبراهيم وعليّة كما تمزّقت.

لكن!! ماذا جنت الآن؟ لم تجنِ إلّا الوحدة، أرادت أن تصيبهم بها فلم تسلَم منها، شحذتْ سكّينها لتقتلهم فجرحتْ قلبها، كلمات هشام الأخيرة كانت رمالًا ألقاها على نار صدْرها التي اشتعلت عمرًا، فأطفأتها ليكمل ثقل الأيام والوحدة والأرق أقسى دروس حياتها..

- صدقت يا هشام، أنا المخطئة الوحيدة، ليتَ الماضي يعود لأمحو القسوة والشقاء، لأسطّر فيه سطرًا من التسامح والودّ والرحمة.

***

هل للتسامح معنى آخرَ إلّا النقاء، التسامح هو عرش القلوب الطاهرة، تطلق كلّ ما بداخلها من ألم فراشات تحومُ حول نور الرحمة، فيحترق كلّ معنى للانتقام، فلا شيء يمكن أن يحوّل الظلم عدلًا إلى التسامح.

جرس الباب يعلن عن زائر، لم تصدّق "علية" عينيها، هل ما تراه حقيقة، محسنة تقف أمامها تملأ ملامحَ وجهها نظرةُ انكسارٍ وحزن لم ترَهما "عليّة" يومًا، ظهرت اللهفة في صوتِ "علية" وهي تسأل أختها:

- خير يا محسنة، ما الذي حدث؟! هل أنت وهشام بخير؟

ازداد الأسف والخجل في قسَماتها وهي تردّ:

- لا تقلقي يا "علية" نحن بخير، لكن..،

ثمّ انفجرت في بكاءٍ ملأ صداه البيت، ووصل إلى "منى" وأسرار. وقفت الاثنتان في ذهول أمام مشهدٍ لم يخطر على عقل أحدهما يومًا، فقالت محسنة:

- "علية" يا أختي، أمام الله وأمام بناتك.. أرجوكِ أن تسامحيني، سامحيني على كلّ ما فعلتُه بك، كلّ ألم سبّبته لقلبك، كلّ كلمة آذيتك بها، وقولي لإبراهيم أنّ محسنة نادمة على كلّ ما فعلت، آسفة له على ما آلمته به، لقد كنتُ المخطئة الوحيدة بينكم، سفر هشام ووحدتي، وألمي لفراقه؛ جعلني أفكّر في السنين التي مرّت، والتي لم تحاولي فيها أبدًا أن تردّي لي إساءة أو أذًى أو ظلمًا، كان عليّ أن أكون أختك الكبيرة التي تحتضنك بعدَ أمّنا وأبينا، فكنت عبء وحدتك.

ثمّ انتابتها نوبةٌ شديدة من البكاء، جعلت "علية" تبكي هي الأخرى، وتحتضن أختها بحنانٍ ادّخرته لها ليوم عودتها:

- لا يهمّك يا أختي، نحن أهل، والأهل لا يجرحون بعضهم، أهلًا بك في بيتك وسط أهلك، أهلًا بعودتك.

طلبت من "أسرار" أن تصنع لخالتها كوبًا من عصير الليمون ليهدّئ حالها. استبقت محسنة "أسرار"، اقتربت منها لتضع في يدها خاتمًا ذهبيًّا وهي

تحتضنها وتبارك لها على خطبتها، وتعدها أنها لن تتركها يوم الفرح. ظهرت بشاشةٌ في وجه "أسرار"، وابتسامةٌ لا تقلّ طيبة عن ابتسامة أمّها وهي تحتضن خالتها، هل يمكن أن تعود "منى" كما عادت خالتها؟

- لا حرمنا الله منك يا خالتي، اكتملت فرحتنا بحضورك، وسيسعد أبي جدًّا.

- إبراهيم رجلٌ ابنُ حلال يا أسرار، بارك الله لكم فيه.

انسحبت "منى" إلى غرفتها، عادت خالتها كسيرة إلى معبد أمّها وأسرار، وتركتها وحيدةً في طريق الانتقام الذي لا يمكن العودة منه، لفحتها نارُ الكراهية، ولن تشفى منها إلّا بالدواء المناسب، لن يشفيها إلّا رؤية "أسرار" هناك في البئر وحيدة.

عليها أن تعرف كيف ومتى تحفره وتلقيها فيه، وقفت أمام مرآتها تحدّث نفسها، يظهر على عينيها بداية لاهتزازٍ نفسي لم يطفُ على السطح بعد..

- تصالحوا جميعًا على حساب أيامك وشبابك! وماذا عليك الآن أن تعزفي معهم أنشودة التسامح، هذا لن يكون..

سيذوقون جميعًا مرارَ الصبر الذي تجرّعته، وصمت الوحدة التي سأحياها.

***

الوحدة هي الفارسُ الوحيد الذي لم يُهزم من قبل، يعرف كيف يستولي على العقول والقلوب، يعرف كيف يجرّ النفس إلى الجريمة، والقلبَ إلى الرذيلة، والروحَ إلى الشيطانية، فإذا لم نهزم الوحدة، وهزمتنا هي وألقتنا على شطآنها غرقى؟

الظلام بعينه ما تحياه "منى" الآن، سكن عقلها شيطان الانتقام فوسوس لها بكلّ شر، لا تتكلّم كثيرًا، تشعر أنّ الطعنات التي سدّدت لقلبها قتلته، ولم يعدْ لها قلبٌ لترحم به أحدًا، كرهت أختها وخسرت خالتها، سافر هشام الذي كان سيمسح عنها عارَ العنوسة أمام الآخرين.

ابتعدت عنها محسنة أميالًا لتحظى برضا أختها بعد هذا العمر من القطيعة، أرادت محسنة أنْ تقترب من "علية" فابتعدت عن "منى". نفس الأيام التي تملأ قلبَها كرهًا وبغضًا لأختها تملأ قلبَ ياسين بحبّها وخوفًا من فقدانها، يأسى على حال بيتٍ جعلت منه "منى" مغارةً مظلمة لا يستطيع أهلها الابتسام، فرضيت الحزن والصمت على الجميع، حتى على "أسرار" التي تخشى على والديها من حزنٍ سيضرّ بقلبيهما، تخشى على أختها من عالم الأشباح التي ألقت نفسها فيه، ترفض أي يدِ عونٍ لتنقذها منه فاستسلمت له، أين هو ليشاركها ما يحدث، ويسندها بكتفه التي لم تشعرْ أنها مالت إلّا بعد أنْ أزاحه عنها، تشعر بالهوّة السحيقة التي تركها وراءه، تجدُ نفسها كثيرًا متلبّسة بالتفكير فيه دون شعور منها.

جلس ياسين أمامها وهو يلمح الحزنَ يطفو على عينيها فيطفأ بريقَها:

- أشعر انّك لست على ما يرام يا حبيبتي، أشعر أنّ البيت تبدّل حاله، الاختناق يملأ قلبَك وصوتك وعينيك!

نزلت من عينيها دموعٌ حبستها كأنّه شقّ قلبها ليخرج ما به، عبّر عن إحساسها بكلمةٍ واحدة، مختنقة، هي بالفعل مختنقة بكلّ ما يجري، وبُعد هشام يشعرها بوحدةٍ لم تتوقّعها..

مسح ياسين دموعَها بيده وهو يربتُ على كتفها بحنان:

- الامتحانات آخرها بعد أسبوع، لا أقوى أنْ أراكِ في تلك الحال، سأرتب كلّ شيء ليكون زفافنا بعد انتهاء الامتحانات بيوم، أريدك أن تكوني بجانبي لأطمئنّ.

نظرت إليه نظرةً فهِمَ معناها..

- لا تقلقي سنحضر كلّ أسبوع للاطمئنان عليهم، لن تتركيهم وترحلي كما تظنّين، أعدك بهذا، سأشتري لك سيارة تكون بساطَ الريح التي تنقلك إليهم وقتما تشائين، أنت طفلتي وحبيبتي، وستكونين زوجتي وسرَّ أسراري.

كان اللقاء بينهما كاللّحن العذب يُطرب كلًّا منهما، ويصنع حالةً من تناغم وجداني لا يخفى على أحدٍ، وبالذات "منى".. تراقب أختها وخطيبَها

بعينِ منتقم، تريد أن تتحيّن الفرصة التي تستطيع من خلالها أن تحوّل حياتهما إلى كومةٍ من الرماد كما تحوّلت حياتها..

عيناها تمتلئ بمعنى واحد.. "لم يحنْ وقت الانتقام بعْد"

***

بك يا زمان أشكو غربتي إنْ كانت الشكوى تداوي مهجتي

قلبي تساوره الهموم توجّعًا ويزيد همّي إن خلوت بظلمتي

يا قلبُ إنّي قد أتيتك ناصحًا فاربأ بنفسك أن تقودَك محنتي

غربة الأماكن تأخذ أكثرَ ممّا تعطي، وغربة المكان والروح تأخذ كلّ شيء بلا أي عطاء.

اشتاقَ لمصر، للإسكندرية، لشاطئ بحرها ونسيمه، لشتائها الساحر، لعيون حبيبته الزّرقاء، اشتاق لها أكثر من اشتياقه لنبض قلبه الذي توقّف منذ فراقها، تنهيدته ترسل ما في قلبه من غرام تنأى به الجدران مِن حوله، شقّ عليه البعد لكن.. تبقى الغربة أفضلَ من وجوده في مكانٍ يراها فيه مع غيره، يعرف أنه لن يحتمل.. داعبته ذكرياتُه معها، عيونها الشقية البريئة، حكاياتها الصغيرة التي كانت لا تهدأ حتى يعود وتخبره بها، أخطاؤها الطفوليّة التي كانت تسِرّ له بها حتى ترتاح روحها، ساندويتشات الفلافل الإسكندراني

التي تعشقها فيأتيها بها من خلف باب المدرسة الحديدي في الفسحة المدرسية.. ماذا فعلت به أمّه!؟

تنهّد وهو يتذكّرها، ويتذكّر قسوته معها، يا لهول ما سمعت منه.. أين هو من رضاها الآن!؟

- كيف حالك يا أمي، سامحي ولدَك على خطئه في حقّك، سامحيه على لحظة ضعف وانكسارٍ مرّ بها.

شقّ على قلبها صوتُ ابنها المنكسر؛ فجرتِ الدّموع في عينيها فاختنق صوتها وهي تقول:

- سامحني أنت يا حبيبي، أنا مَن كسرت قلبك، لكني فعلتُ ما سيسرّك حتى لو لم يحقّق لك حلمَ عمرك.

ظهر الخوفُ في صوته وهو يسألها:

- ماذا فعلتِ يا أمي؟ طمّنيني..

- اطمئنّ يا هشام، لن تخطأ أمّك مرّة أخرى، صالحت "علية" وإبراهيم وأسرار، كلّهم كانوا أفضل منّي، وتقبّلوني وسطهم كأنّ الأيام لم تمرّ، كأني لم أخطئ في حقّهم يومًا، عادت "علية" أختي وإبراهيم زوج أختي وأسرار ابنتهما ابنتي، لكن...

- لكن ماذا؟ هل هناك شيء؟ هل "أسرار" بخير؟

- "أسرار" بخير، "منى" هي التي ليست بخير، إنها غلطتي التي تكبر كلّ يوم، سكّيني الذي سننتُه أكثر من اللازم، وأخشى منه على رقاب الجميع، الطلقة الوحيدة التي وضعتها في مسدس انتقامي، ولا أعلم متى وكيف وعلى مَن ستنطلق، ستبقى ذنبي الذي إنْ غفره الله وغفرتْه "علية" فلنْ أغفره لنفسي إذا تضرّر أحد.

كان صمتُه يدقّ في قلب محسنة، تعلم ما يجول في خاطره، حائرٌ يتلمّس أخبارها، وتأبى عليه كرامته.. لكنْ متى استطعنا هزيمة الشوق؟ الشوق تلك النار التي تلتهمنا على لفحات، تلتهم أجزاءنا وتعيدها حيّة لتلتهمها مرارًا وتكرارًا..

قالها بصوتٍ لا يكاد يخرج من فمه:

- وأسرار؟

شعرت محسنة بمعاناته وبقلبه الكسير الحزين الذي يتجرّع مرارة فقدانه لحبّه الوحيد:

- "أسرار" بنت رقيقة طيّبة، بجمال الندى، لا تقول إلّا الطيّب، لا تشتري شيئًا في جهازها بدوني..

قالتها محسنة ثمّ ندمت:

- اقترب زفافها؟

- كلّ شيء نصيب يا ابني.

- عندك حقّ، بلّغي سلامي للجميع، وتهنئتي لأسرار.

لم يكن هشام يعلم أنّ الدكتورة رضوى خلفه مباشرة تستمع لحديثه:

- مكالمة عائلية يا دكتور هشام؟

- نعم، أمي أطمئنّ عليها في غيابي، الفراق صعب علينا سويًّا، محظوظة أنتِ، الدكتور محمود والدك معكِ في الكويت، وفي نفس المستشفى.

- مَن يتكلم في سيرة الدكتور محمود؟

ضحك الاثنان وهُما ينظران خلفهما ليجدا الدكتور محمود:

- هشام كان يطمئنّ على والدته، ويرى أنني محظوظة لوجودك معي وعدم فراقنا.

- ووالدتها أيضًا يا دكتور هشام، كلّنا هنا، أنا لا أستطيع فراق عائلتي يومًا واحدًا من عمري، وبالذات الشقيّة التي تقف بجانبك، وسيادتك معزوم عندنا على العشاء اليوم لنعيد لك الدّفء الأسري الذي افتقدتَه.

لم يترك الدكتور محمود له الفرصةَ للهرب وهو يحاول الاعتذار بكلّ الطرق، يرى في نظرات رضوى ود. محمود والدها ما يفهمه، لا يعلمون أنه لن يقوى على الدخول في أيّ تجربة مهما كانت، قلبه مغلَق على "أسرار"، ولا يوجد به منفذٌ أو مكان لأخرى..

غرق قلبُه في بحرها، فتركه لها ورحل.

***

الحياة في حدّ ذاتها ليست اختيارًا، الاختيار هو كيف تعيشها، كيف تحقّق الحرية لتمتلك حقّ الاختيار، وعندها.. ستعرف إن كنت إنسانًا حقيقيًّا أم زيفَ كلمات.

- مرّت إحدى وعشرون سنة يا إبراهيم على مولِد أسرار، مَن يصدّق أنها ستنتقل اليوم إلى بيت زوجها بعيدًا عن عيني وقلبي، أشعر أنني ما زلت أحملها في بطني، ولم يأتِ موعد مخاضي بعد، كيف مرّت تلك السنوات!؟

إبراهيم يحسّ بما تقول وأكثر، حياته لم تكن بتلك السهولة التي عاشتها "علية" بين بيت أبيها وبيته، تكبّد الكثير حتى يصل إلى لحظة الفرح، حتى تلك اللحظة استكثرتها عليه الأيام، وضعت له حاجزًا لا يقوى على اختراقه، حاجز صامت كئيب، يُحمل كلّ مَن حوله أخطاء اختياره..

- نعم يا عليّة، مرّت السنوات كمَن يسرق حبّات لوز خفاف لترحل "أسرار" وتبقى "منى"، وهذا ما لا يشعرني بأي طعم للسعادة.

توقّف قليلًا ليلتقط أنفاسه التي لم تعدْ تدخل وتخرج بسهولة، أكمل:

- أسرعي ونادي محسنة ومنى حتى نلحق بزفّة "أسرار".

حجزَ ياسين غرفتين لهم في الفندق الذي سيقام به الفرح ليبيتوا ليلتيْن، أراد أن يسعد قلبَ "أسرار" يوم صباحيتها بالتفاف أهلها حولها.

تقف بجانب ياسين بفستانها الأبيض الباهظ الثمن، والذي زادته هي غلوًّا، يزيد من جَمالها خجلٌ يلفّ أوصافها الفاتنة.

هو كما وعد، سيأتي لها بنجمة من السماء إن استطاع، بقطعة من السماء لتلك اللؤلؤة التي بقيت في محارها في انتظاره، الأصوات والزغاريد تتعالى لتشعِر "منى" بالدّوار، الأضواء الساطعة تُعمي عينيها، فلم تعدْ ترى إلّا أسرار، خلتِ القاعة إلّا منهما، اقتربت منها لتلقي بها في البئر الخاوية خلفها، أفاقت على صوت أمّها تهزّها لتأتي بالقرب من أختها، رفعت "منى" يدَها تشير بالرفض، أمسكت "علية" بيدِ محسنة وابتعدتا لتشارك "أسرار" وياسين فرحتهما، بينما إبراهيم ينظر لابنته الكبرى في شفقة.

أسرار تذوب في خجلها، وهو يقف أمامها في غرفتهما، لأوّل مرّة وحيدة معه، لكنها لا تستطع أن تخفي فرحتها التي تلمع بها عيناها، وتسرّ بسرّ قلبها نحوه، رفع ياسين وجهَها إليه لينظر إلى عينيها:

- أحبّك، وأنتِ؟

هزّت "أسرار" رأسها بالموافقة..

ياسين وهو يقرّبها منه:

- أريد أن أسمعها، وتكون هديةَ عرسنا.

أسرار بهمس:

- أحبّك.

شعر ياسين ليلةَ زواجه من "أسرار" أنّ ما سقط من عمره عاد إليه معها، شعر أنّها ليلة زواجه الأولى فهو لم يتزوّج من قبل.. تلك العروس الجميلة التي عوّضه الله بها عمّا لاقاه من ألمٍ شقّ قلبَه على يد زوجته الأولى، لكنْ ها هي "أسرار" زهرة ندية تفتّحت له لتملأ أيّامه رقةً وعبيرًا، وتنشر حولَه نسمات عطرها الفوّاح.

انتظرت "علية" أذانَ العصر بفارغ صبرٍ لتذهب إلى ابنتها، لا يشعر أحدٌ بما تشعر به، التمزّق بين الفرح والوحشة لابنةٍ لم تفارقها منذ أن تفتّحت عيناها للحياة، لا تتخيّل عودتها إلى الإسكندرية بدونها، كيف سيخلو البيت من ضحكاتها وروحها العذبة.

ذهبت "أسرار"، ولم يبقَ إلّا "منى" لتعيش الحياة وكأنّها في مأتم عزاء، ولولا إبراهيم ووقفته بجانبها واحتواؤه لها ما استطاعت الصبر. حاولت

"علية" أكثرَ من مرّة أن تصحبهما إلى بيت "أسرار" لتهنئتها، وهي تنظر لها بعيونٍ ملأها الكره والحقد يفوح رائحتهما ويملآن المكان، لم تضغط عليها أكثر حتى لا يترامى الحديث إلى مسامع إبراهيم، يكفيه الأزمة القلبية التي انتابته، والتي لا تريد "علية" عودتها..

محسنة ترى كلّ شيء ولا تستطيع الهمس، فمُنى صناعتُها التي أتقنت صنعها، تعلم أنّها لن تتزحزح عمّا يملأ قلبها تجاه أختها، هي مَن حشته بيديها الماهرتين، لو تمنّت العودة إلى الوراء لن تتمنّاها لتصحيح أي خطأ من أخطاء حياتها الكثيرة إلّا خطأها في حقّ "منى".

استقبل العروسان أهلُ "أسرار" وأخوة ياسين وأحمد الذي ما أنْ رأى أباه حتى التصقَ بقدمه، وما أن همّوا بالانصراف إلّا وبدأ في الاعتراض على ترك أبيه. حاول ياسين أن يتركه لعمّه يومين آخرين، رفض تركَ رقبته فتعلّق بها بشدّة أثارت خجلَ ياسين أمام "أسرار"..

- أحمد سيبقى معنا.

لم تترك الفرصة لحديث نفسه، أخذت أحمد منه لتحتضنه، ثمّ قبّلته وأخذت تملّس على شعره في حنان، استراح أحمد لحنان "أسرار" عليه، فألقى رأسَه على كتفها وبدأ في نعاسٍ عميق ينبئ عن دفء عاطفةٍ صادقة تنبت بينهما.

رحلوا جميعًا إلى الإسكندرية لتذيق "منى" أمّها مرًّا لم تتجرّعه من قبل، وتجعل أيامها كدرًا وألمًا...

ويا للغرابة! لم يخفّف عن "علية" صعوبة الأيام إلّا أختها محسنة..

- شوري عليّ يا محسنة ماذا أفعل مع مُنى، أخشى عليها من نفسها أكثر ممّا أخشى عليها من أي شيء.

نكّست رأسها خزيًا وهي تقول:

- لا أعرف ماذا أقول يا عليّة، سامحيني أنني شاركت في هذا.

- لا تلومي نفسك، لا أحد يستطيع زراعةَ شيء في نفس أحد ليس لها أرض، البذرة موجودة في أرضها، وماء الغيرة يرويها منذ سنين منذ أن رأت عيون "أسرار" النور، كنتِ عونًا ولست دافعًا.

- الشيء الوحيد الذي سيحلّ الأمر أن يرزق الله "منى" بزوجٍ مثل زوج أسرار، ستنسى كلّ شيء، وستهتمّ بحياتها.

- ومِن أين سيأتي! ياسين كان فرصة لها، لكنّها رفستها بقدميها، وكما ترين صارت شبحًا، مَن سيهتمّ لأمرها الآن؟ مَن؟

بكتْ "علية" بكاءً مريرًا لم يزدْ محسنة إلّا تأنيبًا ووخزًا لضميرها الذي غاب عنها وهي تحرّض "منى" وتزرع الحقدَ في صدرها وتعشمها بالزواج من هشام.

تذكّرته فأطلق قلبُها زفرةَ حنين وشوق، كم تتمنّى رؤيته، حتى هو أخطأت في حقّه، قطعت كلّ الطرق بينه وبين "أسرار" حتى جاء ياسين على غفلة من الجميع ليقطف الوردةَ التي ما كان يجب أن تتفتّح لأحد إلّا له.

***

الحبّ أنشودة الحياةِ السحرية التي تحلّ المشكلات، وتوقِفُ براكين النفس وعواصف العقل وفيضانات القلب، الحبّ هو شفرة الأُحْجيات ونقاط الكلمات وتفسير العبارات.

مَن قال إنّ الحبّ يعطي للحياة معنى، الحبّ هو معنى الحياة.

لم يشعرْ ياسين بسعادةٍ طيلة حياته كالتي شعر بها مع أسرار، الأيام تمرّ والحبّ قاسمٌ مشترك بينهما، وجد فيها الحبّ الذي تمنّاه طيلة حياته، الزوجة المحبّة الجميلة الطيبة القنوعة بالرغم من كثرة الأموال، وأمًّا حنونًا تهتمّ بأحمد كابنها..

- سعيدةٌ معي يا أسرار؟

حرّكت أناملها الرقيقة في شعره وهي تقول:

- مهْما وصفت لك سعادتي لن تصدّق، أسأل نفسي كلّ يوم عن الشيء الجميل الذي فعلته فرزقني الله بحبّك، أشعر أنّ بحرَ حبّ وحنان يجري في قلبي ليرويك أنتَ وأحمد.

قبّل يدها، ووضع رأسه على قدمها وهو يقول:

- لو قلت لك إنّك أوّل وآخر حبّ في حياتي ستصدّقين؟ لو قلتُ لك أنني لم أذقْ طعم الحنان إلّا من يديك هل ستقولين إنني أبالغ!؟

ضحكتْ ضحكة ماكرة من امرأةٍ محبّة غيورة وهي تهمس له:

- ومامة أحمد؟!!

ظهرتْ في عيني ياسين نظرةً غريبة لم تفهمها "أسرار":

- مامة أحمد!

ثمّ سرح في أفكاره كأنّه يرى مشهدًا حزينًا أمام عينيه ليكمل:

- كانت ابنة عمي، قضيت أعوامًا في الغربة، جهّزت نفسي للزواج، رشّحتها أمي، وافقت ووافقوا وتزوّجنا، لم يكن بيننا أي مشاعر أو كلام قبل ذلك، لم أكنْ أعلم عن خصوصيّتها أي شيء، ابنة عمّي فقط. في ليلة العمر، كما يقولون، شعرت بعدم رغبتها لي، شعرت أنها تبتعد وتبتعد حتى أصبح بيننا جدارٌ سميك، لم أقوَ على اختراقه، ولم أعلم سببَه لأهدمه، كلّ يوم تنسحب روحُها ببطء من المكان حتى بدأتُ أعيش بمفردي مع جسد امرأة بلا روح.

- يجوز أنك مَن شعر بذلك، وأنه كان إحساسًا وهميًّا..

ضحك ياسين ضحكةً باهتة، ثمّ رفع كفّها وقبّله وهو يستنشق رائحتها التي تسري في بدنه لتمنحه حياة:

- لا يا أسرار، أستطيع أن أميّز أحاسيس مَن حولي، عرفت من أول يوم أنّ "منى" لا ترغبني، ويوم قابلتك كنت قد قرّرت لحظتها أني سأترك البيت بلا عودة، وعندما لمسَ شعاع عينك قلبي أصبحت أسيرَ الإسكندرية وأسيرَ "أسرار" بنت الحاج إبراهيم.. هل رأيتِ أسيرًا لا يريد الحرية! أنا لا أريدها، أريد أن أظلّ أسيرك، وأقابل الله بأغلالك التي تلتفّ حول قلبي وأصبعي.

- أنا الأخرى أحببتك من أوّل لحظة قابلت عيني فيها عينيك، أكْمِل.

- تحمّلت على نفسي ما لن يستطيع أن يطيقه رجل، كانت حزينة طيلة الوقت، لا أستطيع الاقتراب منها، أشعر أنها كالشمعة التي تذوب ويتضاءل ضوءها يومًا فيوم. لم أشعر يومًا بمعنى الفرح والسعادة معها، كانت حياتنا مُقبضة، كلّها حزن ويأس ووحدة وتجنّب، حملت في أحمد فقضت شهورَ الحمل كلّها في بيت أبيها، لم أهتمّ؛ فعدم وجودها كان أفضل، وجودها كان يجعل من البيت مقبرةَ أشباح، كنت أتمنى أن يعود بها الطفل الذي ستلدُه من مقبرتها للحياة، كانت الولادة صعبة فاضطرّت للبقاء في المستشفى أكثرَ من يوم لضعف جسدها، كأنّه جدارٌ ينهار، ذهبت إلى بيت أبيها لأحضر لها مِن دولابها بعض الملابس، وهناك اكتشفت الحقيقة التي جعلتني أحيا تلك الحياة الكئيبة معها...

تشتاق لمعرفة ما الذي يدفع امرأة تتزوّج برجل مثل ياسين أن تفعل به ما فعلت!!

- كانت على علاقة عاطفية بزميلٍ لها في الكلية، ظروفه ضيقة يكادُ يصل للفقر، تقدّم لعمي ورفضه، لم يجرحني أبدًا علاقتها الأولى، ما جرحني أنّها لم تطوها طي النسيان بعد زواجنا، كانت تفكّر به وتحتفظ بكلّ ذكرياتها معه، عاشت معه في بيتي، عاشت منقسمةً نصفين؛ نصف هناك ونصف لا يريد أن يكون هنا..

- وماذا فعلت؟

- لم أشعر أحدًا بشيء، فتحت قلبي وألقيت به حسرتي ثمّ أغلقته، انقسامها قتلَ كلّ شيء بداخلي حتى ولو كانت صغيرة، نويتُ أن أطلّقها بعد فترة النّفاس لتكون حرّة في خيالها وواقعها أيضًا..

ظهرَ على وجه "أسرار" وعيونِها حزنٌ لا يعلم ياسين عليه أم عليها؟

- لم تعطني الأيام الفرصةَ للطلاق، كانت كالزهرة التي ذبلت، وتطيح بأوراقها في كلّ مكان، صحّتها تدهورت وأصبحت عظامًا. عامان، كلّ ما بيننا أنّها ابنة عمي وأمّ ابني فقط، كلّ يوم يمرّ كانت تخفتُ أكثر فأكثر، إنسانٌ يريد الموت، أرادت أن تفارق الحياة التي فرّقتها عمّن أحبّت، توفّيت بنفس الصمت الذي عاشت فيه، نامت يومًا ولم تستيقظ.

تنهّد وهو يتذكّر يوم وفاتها التي بكتْ فيه البلدة بأكملها على تلك الفتاة الطيبة التي اقتلعتها الرياح كما تقتلع نبتةً صغيرة في الأرض.

- لن أكذب عليكِ، بعد موتها تألّمت لها، حقدت على عمي الذي ضحّى بها من أجل لا شيء، هو أيضًا ذاق العذاب الذي سقاها إيّاه. تألّمت يا أسرار، لكنّي تألمت لها أكثر بعد لقائنا.

هزّت رأسها وهي لا تعرف ما علاقة لقائهما بألم فِراقها..

- عذرتُها يا "أسرار".

مَن لم يذقِ الحبّ لن يعرف أنينَ قلبِ المحبّين إلى أين سيصل بهم. عندما تذوّقت حبّك وكنتُ على وشك فراقك عرفت، عرفتُ أنّه لم يكن في يديها شيء لتفعله، ضحّت بصحتها وعمرها حتى لا يمتلكها أحدٌ سواه.

تنهّد تنهيدة ذكرى ثقيلة على قلبه، ثمّ نظر إليها نظرةَ مُعاتب:

- عرفتِ أنني لم أكذب عليكِ، أنك أوّل شعاع حبّ يتسرب إلى قلبي المظلم، لقد أزحتِ الستائر الثقيلة التي غطّته سنوات، لن أحبّ بعدك، ولن ترى عيني غير عينك.

سألته بدلال:

- لن ترى عينك غيري.. تعدني؟

- تأكّدي، أغرقتني عيناكِ في بحرهما، ومَن يغرق لا يطفو يا أسرار.

لم تسعْ قلبَ ياسين الفرحةُ عندما علم بحمْلها كما لم تتحمّلها هي، ستعشق هذا الضيف الجميل القادم، إنّه ابن الرجل الذي أحبّه قلبها وأعطاها قلبَه، ولم يحرمها شيئًا من الحبّ والدلال.

باتت أيّامها سعادة لا يعكر صفوها إلّا حزنها على أختها التي أصبحت تسكن غرفتها ولا تخرج منها إلّا للضرورة، لا تقابل أحدًا، وبالذات هي فلم تسمحْ لأحدٍ بالدخول إلى غرفتها، لكنّ أحمد كان كثيرًا ما يخترق حاجزَ آلامها بطفولته البريئة ليدخل غرفتها، تلمح عينيه البريئة فلا تقوَ على نهْره، سألها عن اسمها، ولماذا لا تخرج من غرفتها وتأتي لتلعب معه، يعرض عليها أنْ يبقى هو ليلعب معها فتسمح له بالقليل، ثمّ ما تلبث أن تعود لما هي عليه، كأنّه شعر نحوها بشفقةٍ وحنان لم تمنحهما هي لنفسها، ولو أنها فكّرت قليلًا في كلماته البريئة ما فعلت به ما فعلتْ.

أسرّ لها أحمد أنّه يحبّها، وأنه يريدها أن تخرج من غرفتها، وأنها جميلة جدًّا كـ"سنووايت" التي في الحواديت. ابتسمت له "منى" ابتسامةً خافتة لم تكنْ تعلم وقتها أنها ستحيا سنوات دون أن تبتسمها. لم تسكن معها الغرفة إلّا الوساوس التي تستطيع أن تضرّ بها أختها لتخرجها ممّا هي فيه من سعادة، وتعود لتجاورها ذلك السرير وهي منكسرة حزينة بدلًا من الفرحة التي تسكن قلبَها ووجهها.

لم تهدأ أفكارها في اليومين اللّذين كانت ستقضيهما "أسرار" مع أمّها، وبصحبتها أحمد على أن يأتي ياسين للعودة بهما إلى القاهرة.

عرضت عليها شياطينُها كلّ الأفكار، استقرّت على فكرةٍ واحدة تحقّق لها ما أرادت مهْما كان ثمن التضحية، وانتظرت الوقت المناسب لتنفيذها.

***

هل يمكن لقلبٍ لمسه شعاعُ الشمس أن يرضى بضوءِ الشموع؟

هل يمكن أن ينزف دماءه التي تتشبّع بأنفاس حبيبه ليبدلها بدماءٍ أخرى غير التي تندفع في ثناياه؟

يقول د. مصطفى محمود: "الحبّ الحقيقي لا يطفئه حرمان، ولا يقتله فراق، ولا تقضي عليه أيّة محاولة للهرب منه؛ لأنّ الطرف الآخر يظلّ شاخصًا في الوجدان"

الغربة والوحدة لم يعدْ يشقّ صخرها الصلب إلّا رضوى والدكتور محمود أبوها، يحاول جاهدًا مع قلبه ليلينَ تجاه أي أحدٍ غيرها، لكنْ سرعان ما تتحوّل المحاولة إلى فقّاعة تتقاذفها رياحُ الحبّ والذكرى، وتعصف بها بعيدًا. يتمنّى لو استطاع أن يكون لقلبه سطح يمنحه لرضوى لتقف عليه، لكن كيف له هذا وقد استولتْ "أسرار" على كامل قلبه؛ باطنه وظاهره.

رضوى في عالمٍ وهو في عالم آخر، كلماتها لا تمرّ حتى على آذانه، قالوا إنّ ما يخرج من القلب يصل للقلب، فلماذا لا يتعدّى صوتها آذان هشام؟

- أنتَ بعيد جدًّا يا هشام، بعيدٌ لحدّ لا يمكن تخيّله.

- أنا هنا، موجود، فكيف أكون بعيدًا؟

- لو كنت موجودًا فأنت موجودٌ بالقليل من وعيك، والكثير من خيالك.

ابتسم لها ابتسامةً حاول أن تكون غيرَ باهتة، مع استدعاء ما استطاع من ذهنه ليبدو طبيعيًّا:

- قلقي على أمي، وحيدةٌ هناك وأنا قَلِق عليها.

بادلته بابتسامة تقول كلّ شيء، تقول إنّه لا حقيقة فيما يقول، وإنّ كلّ شيء يبدو عليه دون أن يشعر..

- والدتُك فقط هي مَن تستحوذ على فكْرك؟

شردَ بذهنه بعيدًا حيث بحر الإسكندرية الكائن في عيني "أسرار"، والذي غرق فيه ولا تستطيع أي يدٍ أن تنتشله.. هو نفسه لا يريد أن يخرج، لا يريد فرصةً للنجاة على أي يدٍ إلّا يدها ليجد عينيها في النهاية في انتظاره، لن تهدأ عاصفة قلبه إلّا بها، وحدته مع الحنين والذكريات أفضلُ من الحياة مع أي أحدٍ غيرها، قلبه لا ينبض إلّا لها، فكيف لأخرى أن تُحييه!؟

- هل احتاجَ سؤالي كلّ هذا التفكير؟

أفاق من شروده على صوتها، لقد نسيَها هي وسؤالها في تلك الدقائق، فكيف له أن يتجاوب معها فيما يشعرُ به في عينيها:

- آسف يا رضوى، سامحيني، لن أستطيع الإجابة على سؤالك.

حاولت رضوى إخفاءَ ضيقٍ امتلكها، كانت تظنّ الأمر أبسط من هذا، تظنّ أنه حتى لو هناك مَن تشغله فسيحكي، لكنه يأسر كلّ شيء في قلبه، ويشدّ عليه بسلسة حديدية قوية، وهذا لا يعني إلّا حبًّا عميقًا..

- وأنا لن أيأس أنه سيأتي يوم وتجيبني على سؤالي.

كان يتمنّى أن يقول لها، ايئسي.. لا تحاولي.. فالصحراء التي بداخلي ستبتلع رمالُها الناعمة كلّ قدمٍ ستخطو عليها إلّا قدمها هي.. "أسرار"..

- فلنجعله للأيام والظروف يا رضوى فقد تحنو وتجيب هي عليه.

***

هل للسعادة توقيتٌ زماني يختلف عن أي شيء، عقاربها متسرّعة لا تتمهّل، تأتي سريعًا وترحل سريعًا. دقيقة السعادة تمرّ برهة.. ودقيقة الحزن تمرّ عامًا، ترحل السعادة ولا تترك لنا إلّا همسَ ذكريات خفيّ يهدهد قلوبنا لتغفو عن واقع الأيام المرير.

تيبّست "علية" كما تيبس كلّ شيء في بيت إبراهيم، كأنّ "منى" أطلقت تعويذةً سحرية فحوّلت كلّ ما حولها إلى حجر..

- تعالي يا أمي نخرج ونتمشّى على البحر ومعنا أحمد، هو يحبّ البحر.

- لا يوجد عندي رغبة يا أسرار، أشعر أنّ جسدي كأكياس الرمل الثقيلة.

- لا تقولي هذا، بمجرد أن تتركي مكانك وترتدي ملابسك وترَيْنَ البحر؛ ستشعرين بالتحسّن.

تتبّعتهما كثيرًا منذ لحظة خروجهما من البيت، وهُما لا يشعران بالظلّ الخفي الذي يتبع تحركاتهما حتى حانت اللحظة المناسبة وهُم في غفلةٍ عن أحمد، أشارت له من بعيد فأقبلَ الطفلُ البريء عليها في هدوء مطمئنًا مبتسمًا، اقترب منها فجذبتْه وسارت به إلى حيث لا يعلمون.

ابتعدت به قدْرَ ما استطاعت، وهناك في المول الكبير طلبت منه انتظارها للحظات، استجاب الطفل باطمئنانٍ فهو لم يكبر بعد، ولم يعرف مِن غدر البشر شيئًا.

أسرعت بالخروج جريًا، وما أن رآها تبتعد إلّا وأطلق صرخة استغاثة يناديها.. ملأت صرخته أذنَ "منى" ونفسَها وروحها، استوقفتها قليلًا لكنّها

أسرعت بالعودة إلى المنزل دون أيّ رحمة بذلك الطفل المسكين الذي لم يكنْ ذنبه إلّا أنه ابنُ رجل أحبّته "أسرار" وأحبّها.. "فهل الحبّ ذنب؟"

دخلتْ غرفتها وهي غائبة عن وعْيها تمامًا، قدماها لا تكاد تحملانها من فرْط الخوف والألم، لا تصدّق أنها أصبحت ما عليه الآن.. صرختُه أصبحت طنينَ أذنيها ونبضةَ قلبها الخافق، صورتُه احتلّت مقلتيها، بدأ الصراع ينهش قلبَها وعقلها كأنّ الغيظ المكتوم الذي تجسّد في صورة وحش ليعطيها القوة لتفعل ما فعلت، تقزّم ليصبح حشرة هشّة كان يمكن أن تهشّها من أفكارها وتمضي قدمًا في حياتها، لكنّها الآن تنهشها ببطء. تمنّت أن تعود إليه وتحضره، بدأت دموعُها في التساقط، وبدأ جسدها وعقلها في الانهيار.. لم يقتصر الانهيار على "منى".

تميدُ الأرض من تحتها، وهي تلتفت ولا تجدُ "أحمد" في لحظةٍ بجانبها، تصرخ بكلّ القوى التي استطاعت استحضارها مع كلّ الخوف والرعشة التي ملأت قلبها وجسمها وصوتها، تنادي على أحمد الذي اختفى كأنّه تبخّر.. صرخاتُها الملهوفة جمعت حولها عددًا كبيرًا يحاولون المساعدة، "عليّة" تبحث بعيونٍ زائغة هنا وهناك دون أيّ جدوى، مرّت ساعة اضطرّت "أسرار" بعدها لمهاتفة ياسين لتخبره بما حدث.

لم تتلقّ ردًّا، كيف قاد سيارته ووصل إلى الإسكندرية في ساعةٍ واحدة دون أن يرى ما أمامه؟ كلّ الصور تتشابه، كلّ الصور أمام عينيه، أحمد وما

يمكن أن يكون قد حدث له، هل أخطأ عندما استأمنَ عليه أحدًا، حتى لو كانت "أسرار"؟ هل أخطأ أصلًا عندما تزوّج ولم يعشْ لولده فقط؟

ماذا لو لم يجده؟ ماذا لو ألمّ به مكروه؟ لن يسامح نفسه طيلة حياته، سيصنع من روحه سكّينًا تمزّقه في كلّ لحظة كما تمزّق أحمد.

نزلت من عينيه دموعٌ بسخونة حرقته عليه، خرجت من شفتيه كلمتان:

- يا حبيبي يا أحمد.

ساعات من البحث لم تُجدِ أيّ نفع، ساعات من الهوس الجنوني خطف الجميع بما فيهم محسنة، لم تقبل تركَ أختها بمفردها في تلك الكارثة، الصدمة جعلت منه شخصًا آخر..

- أين ابني يا "أسرار"؟

تشعر بالاتّهام يملأ عينيه، رفعت رأسَها إليه ثمّ انخرطت في بكاءٍ شديد، لا يدرى ماذا يفعل، كلّ ما يريده الآن أن يجدَ أحمد في أحضانه حتى لو رحل بعده كلّ شيء، حتى المحضر لن يجدي نفعًا الآن؛ فالشرطة لن تبحث عنه إلّا بعد يومين للتأكّد من صحة البلاغ. انقسموا بعد خروجهم من قسم الشرطة إلى فريقين: ياسين وأسرار إلى مكان الاختفاء، إبراهيم وإسماعيل وعلية ومحسنة إلى البيت؛ فقد يستطع أحمد أن يدلّ مَن يجده على البيت، وما

أنِ اقتربوا إلّا ووجدوا الجيران أمام البيت وعربة الإسعاف تنقل "منى" في حالة انهيارٍ عصبيّ حاد..

- ما الذي حدث يا يسري؟ (قالها إبراهيم بصدمة)

كان جارهم يسري في حالةٍ لا يُحسد عليها:

- سمعنا صوتَ صراخ عالٍ جدًّا من الشقة، لم يفتح أحدٌ عندما طرقنا الباب والصراخ مستمر، اضطررنا لكسر الباب، وجدنا "منى" في حالةٍ هيسترية ولم نستطع السيطرة عليها، كسرت كلّ شيء حولها، حاولت الإفلات منّا وإلقاء نفسها من الشرفة؛ فاضطررتُ لطلب الإسعاف، حقنوها بحقنة مخدّرة، وقالوا لا بدّ من نقلها إلى المستشفى لأنّها أصبحت خطرًا على نفسها.

نظر إبراهيم بفزعٍ إلى "علية" غير مصدّق لما يسمع:

- ماذا حدث لتصل "منى" إلى هذه الحال يا "علية"؟

- لم يحدث شيء، خرجت أنا وأسرار صباحًا وتركناها بمفردها في البيت، لا أعرف ما حدث.

بصبرٍ وحكمة سنوات، واستسلام مؤمنٍ لقضاء الله طلب منها الصعود إلى البيت هي ومحسنة علّ يحدث في أمر أحمد جديد، اصطحب إسماعيل إلى المستشفى لا ينطق إلّا "الله المستعان"

وقف الاثنان في المستشفى لا يدريان ماذا حدث حولهما فجأة، وجعل كلّ شيء ينهار، ما الذي جعل "منى" تنهار، واختفاء أحمد الذي سيكون مسمارًا في نعش علاقة ياسين بأسرار؟!

ربتَ إسماعيل على كتف صديقه:

- وحّد الله يا إبراهيم، غمّة وتنزاح، ربّك على كلّ شيء قدير.

- لا أعرف ما الذي يحدث حولي، هناك شيء يتغيّر لا أستطيع معرفته، قلبي يحدثني أنّ الأيام القادمة ستكون أصعب أيّام حياتي، بناتي الاثنتان على حافّة الهاوية.

- ستمرّ على خير، ربّك يختبر قوّةَ إيمانك.

- ونِعْم بالله، "منى" بفضل الله يمكن تشفى ممّا أصابها، ونحن المسئولون عنها، لكن كلّ ما أرجوه من الله أن نجدَ أحمد، يحزّ في نفسي أنّ الولد ضاع هنا في الإسكندرية وهو بصحبة "أسرار" وأمّها، ياسين عيونه تملؤها الاتّهام بالتقصير، وأسرار حامل، وحياتها مع زوجها مهدّدة.

تنهّد وهو يهزّ رأسه بأسى، إبراهيم عنده حقّ، ياسين سيجنّ إذا لم يجد ولده، وسيكون ردّ فعله عنيفًا تجاههم..

- إن شاء الله سيجدونه.

- يااا ربّ.

قالها إبراهيم وقلبُه تشتعل فيه حرقةٌ لم تشتعل من قبل.

....

لم يترك "أسرار" وياسين شبرًا في مكان الاختفاء إلّا وبحثوا فيه، ياسين يشعر أنه كالذبيحة التي ذبحت بسكّين صدئة، فلم تقتله ولم تترك له الحياة، تنزف دماءه ألمًا قطرةً قطرة. هل ضاع ابنه حقًّا؟ ألن يراه مرّة أخرى؟ ألن يضمّه إلى صدره؟

تاه في صحراء الألم والخوف العظيم، كلّما مرّت الدقائق ابتلعته رمالُ اليأس، ولفحته حرارةُ الفرقة والشوق إلى ولده الوحيد. طبع صورة أحمد مع رقم هاتفه ووزّعها وألصقها في كلّ مكان بالقرب من اختفائه، لا يطيق النظرَ إليها، لو يعلم أنها لم تفرّط في ولده، لو يعلم أنّ حالها لا يقلّ حزنًا عن حاله، هل يظنّ أنّ قلبها يحتمل ما حدث؟ هل يظنّ أنها تخيّلت يومًا أن تكون سببًا في ألم مخلوق؟!

جلس الجميع في البيت لا يستطيع أحدٌ النظرَ إلى الآخر، منظر ياسين أسكت كلّ الأفواه وكسَرَ القلوب، النوم خاصم العيون، والقلق والحزن عشّشا بها، القلوب موجوعة يكويها ألم الفقدان، والإنسانة الوحيدة التي تعلم أين تركت أحمد، ما تلبث أن تفيق حتى تبدأ في الصراخ فتأتي المهدئات لتدخلها في الغيبوبة مرّة أخرى.. همست نفسُ "أسرار" لقلبها.. أين هشام؟

بكت وهي تتذكّر كلّ موقف مرّت به من قبل ولم يكن بجانبها إلّا هو، مجرّد وجوده سيطمئنُها، لأوّل مرّة هي وحيدة في موقفٍ صعب بدونه، لكنْ أين هو الآن؟

***

الحرمان اختبار النفوس، المرآة الصافية التي نرى فيها ذواتنا الداخلية بعيدًا عن أيّ زيف أو تلوّن، بعيدًا عن الشعارات والمثاليات، تجربة الحرمان الشاقة هي التي تصهر معادننا ليبقى الذهب ويحترق ما عداه.

سألت سارة زوجَها صالح:

- مَن هذا الطفل الجميل يا صالح؟ ولماذا تأخّرت في الإسكندرية؟

صالح تبدو عليه علاماتُ الذهول والتبلّد، انتظرت طويلًا وهي تنظر إليه حتى سمعت صوته الذي جاء كأنّه يأتي من صندوق مغلق بإحكام:

- اسمه أحمد، بعدما انتهيت من إتمام مصالحي هناك ذهبت إلى مول لأشترى أشياء ستلزمنا في السفر، دوّت صرخة أصابت قلبي، أسرعت إليه، كان قد بدأ في البكاء، كلّ ما عرفته منه أنّ اسمه أحمد، وأنّ امرأة تركته عن قصدٍ في المول، ورحلت.

- ما معنى تركته عن قصد؟

- لا أعرف يا سارة، هذا ما استنتجتُه من كلامه، كان يبكي ويقول: "طنط سابتني وجريت". انتظرت إلى أنْ أغلق المول أبوابه، كان قد راح في نومٍ عميق بعد إرهاق عصبي طويل، خفت عليه، لكن....

- لكنْ ماذا؟

قالتها سارة وهي تنظر لأحمد بشفقةٍ وحنان، تتصوّر اليوم الصعب الذي مرّ به، وتتّضح آثاره على وجهه الدامع.

تنهّد وهو ينظر لأحمد بحزنٍ دفين يطفو على عينيه:

- لا أعلم لماذا لم أسلّمه في قسم الشرطة هناك، كان عليّ ذلك، أخشى عليه من الضياع لو سلّمته هنا في المعادي، وقد ابتعد عن مكانه.

حملتْه بين يديها برفق ووضعته في سرير، ظلّت بجانبه فترة تتلمّس ملامحه الجميلة، خرجت لصالح دامعة العينين وهي تقول:

- يذكّرني بابننا محمد، قريب الشبه به جدًّا.

- فعلًا هو قريب الشبه به، أسرعي علينا تجهيز ما تبقّى سريعًا، الطائرة في العاشرة صباحًا، يجب أن نذهب إلى الإسكندرية، نسلّمه ثمّ نعود، أريد كوبًا من الشاي.

لم تهدأ الجفون تلك الليلة كأنّ "منى" أغمضت عينيها وأيقظت معها كلّ العيون.

صالح ينظر إلى بخار الشاي المتصاعد يشقّ الهواء، ويتذكّر تلك الصرخة التي شقّت صدره، ذلك الطفل الذي رأى معنى الحيرة في عينيه وهو يتلفّت يمينًا ويسارًا لا يدري ماذا يفعل، مرّت عليه وهو بجانبه يطمئنه ساعات ثقيلة يتمنّى أن يقترب منه أحد، فيتعلق به أحمد ويخبره أنّه والده ياسين، لم يعرف منه إلّا اسمه واسم والده، وعدَه أنّه سيذهب به إلى أبيه، ويتمنّى أن يفي له بوعده، لكن لم يأتْ أحد، كلّ ما يبحث عنه الآن بداخله، لماذا أتى به؟ لماذا؟

الصمتُ كان صاحبهما في تلك الدقائق، تعرف فيما يفكّر، فتح لهما أحمد ذكرى ثقيلة "محمد" ولدته بعد عناءِ عشر سنوات كاملة أضنَتْها فيها العمليات الجراحية والهرمونات التي كادت تصيبها بالسرطان حتى قدّر الله الحمل، ضمّت محمدًا يوم ولادته وضمّت معه الحياة بأسرها، لم تشعر وهي تقبّله قبلة عمرها أنّ رئتيه لا تقوى على التنفس، أطاح الهواء بكلّ أمنياتها في الأمومة.

حاول الأطبّاء المستحيل، أنفاسه المتقطعة لم تكن تحتبس عن رئتيه، بل عن رئتيها هي، قليلٌ من الأمل كان يتسرّب شعاعه إلى نفسها مع كلّ نظرةٍ من عينيه الواهنة، لن تنسى يومَ رحيله ورائحة أنفاسه الأخيرة التي أصرّت أن تخرج على وجنتيها لتعيش ما تبقّى لها من حياةٍ تستشعر برودتَها وضعفها وانقطاعها، لو كان هنا لاقترب عمرُه من أحمد..

انتبهت من غفوةٍ سرقتها وهي جالسة، سمعت أذان الفجر وشعرتْ به، حاله لم يختلف عن حالها، فتح أحمد دفترَ ذكريات الألم والحرمان..

- فيما تفكّر يا صالح؟

- أخاف أن نسافر إلى الإسكندرية وتعطّلنا طول الإجراءات، أخاف أن يوجّه لي أيّ اتّهام يعطلني عن البعثة التي تمنيتها طوال حياتي، لكنّي لن لأسلّمه هنا، سيبتعد عن مكان أهله، ويمكن أن يضيع بسبب الإهمال، ماذا أفعل يا سارة؟

أصابها التردّد، الحقّ دائماً صوتها، لكن لا تعرف لماذا يزيغ قلبُها عنه الآن، هل جاء الحرمان ليكشف الغطاء؟

بهدوء، وببطء قالت:

- تريد رأيي حقًّا؟

هزّ رأسه الذي وقعتْ بين كفيه من فرط التعب والإرهاق والتفكير.

- نحتفظ به ويسافر معنا إلى الخارج.

لم يقابل رأيها بعصبية ولا ثورة، بل ظهر التردّد في صوته وهو يقول:

- ما الذي تقولينه! ألا تفهمين معنى ما تقولين! إنها مسئولية.

انطلقت دموعُها بغزارة تحاول أن تمسحها بكفّيها:

– تعرف أنه من المستحيل أن أصبح أمًّا، لو عاش محمد لكان في عمر أحمد الآن، سيصبح ابني الذي ولدته من حرماني، أرجوك يا صالح.

لمحت سارة ازديادَ التردّد في ملامحه فأضافت:

– البعثة إلى إنجلترا، سيكبر هناك وعندما نعود لن يعرفه أحد، ألم تقل إنّ أهله تركوه بإرادتهم، وأنا بكامل إرادتي أريده، محمد مازال على جواز سفري، ألا ترى في الأمر شيئًا، حجزنا تذكرة لمحمد كأنّه معنا، قد يكون الله استجاب لدعائي بالعوض، وهذه إشارة منه.

– لكنّنا سنحرم الولد من أهله، ونحرمهم منه.

– أنت من قال إنّك لو سلمته هنا سيضيع، الله أعلم ما سيكون مصيره، ولن تستطيع تسليمه في الإسكندرية، لا تكذب على نفسك، الساعة الآن الخامسة فجرًا، تحتاج خمس ساعات سفر ذهابًا وعودة، وتسليمه لن يكون بالسهولة التي تتوقّعها.

مسحت وجهَها بكفيها وهي تستنشق كثيرًا من الهواء وتطلقه مرّة أخرى:

– أمامك أمران لا ثالث لهما، نسلّمه هنا ويضيع بين الملاجئ أو نأخذه معنا ونصنع له مستقبلًا سيتحدث عنه الجميع.

ثمّ جلست على ركبتيها أمامه، وعيونها ملأها التوسّل إليه، رفعها بيديه وهو ينظر إليها، وصدى صوتها يملأ قلبه.

هو أيضًا يتمنّاه، يعشقها ولن ينجبَ من غيرها، كيف له أن يقترب من امرأةٍ لمجرد أن يرزق بابن؟ أزاحت سارة الستارَ عمّا جال بخاطره، أتى به لأنه يريده..

- هيّا يا سارة لنلحق بطائرتنا نحن الثلاثة.

***

تبحر سفينة عمرنا في بحار الحياة إلى حيث لا ندري..

كلّما اقتربنا من الضحك فإذا بنا نبكي..

وإن توقّعنا البكاء تُفاجئنا بضحكةٍ على شفتينا تجري.

الصراع يشتد في قلبه بين ما يريد وبين ما تفرضه عليه الأيام، لا يعلم ما يحدث، لا يدري أنّ فوهة البئر التي ابتلعت يوسف قد التهمت "أسرار" هناك، قذفتها "منى" وتاهت في عالم الضياع، ينتحر بالغرق كلّ يوم، لكن ليس في بحر الإسكندرية بل في بحر العمل، يُجهد نفسه ويشقّ عليها متمنّيًا أنْ يُلقي بجسده المتهالك على سريره فيستقبله النوم، لكنْ يبدو أنّ النوم زائر لا تروق له كلّ العيون، جافاه ولم يعدْ يطرق عينيه.

يعرف أنّ الحياة دبّت في جنين حبّه في قلب رضوى، ظهرت عليها أعراضه، لكنّه لا يستطيع أن يُخرجه إلى النور، فكيف سيمنحه النورَ وهو يحيا في الظلام!

لم تكن أعراض حبّها لهشام تخفَى عن عين أبيها، يلحظها ويعي ما يدور..

- القمر سارح في إيه؟

رفعت وجهها الجميل إليه وهي تتنهّد:

- لم أعد أستطيع إخفاء الأمر عنك، نحن أصدقاء قبل أي شيء، هشام، هشام يا أبي.. ثمّ تلألأت دموعُ ضعف في عينيها

- هشام!!

- هنا وليس هنا، قلبه في مكانٍ آخر.

نفثَ الدكتور محمود دخان سيجارته بعيدًا، وقد شقّت على نفسه دموع ابنته وضعفها، شقّ عليه أن تعشق من طرفٍ واحد، وهذا ما لم يكن يتمنّاه..

- وأين هو قلبه؟

هزّت رأسها في يأسٍ وألم شديدين:

- لا أعرف، لا يريد البوح أبدًا، حاولت بكلّ الطرق بلا جدوى، كأنه أغلق قلبه بمفتاح وألقاه بعيدًا.

اعترض أبوها على كلامها، فرفع يده علامة الاعتراض:

- الرجل الحقيقي لا يغلق قلبه ويرمي المفتاح، إنه يحتفظ به في مكانٍ ما يُسمّى مستودع أسراره، يفتح قلبه كلّما خلا ويتجوّل في حجراته ويقاسي ألمه وحيدًا، رجولته تمنعه من الظهور على تلك الحال إلّا أمام مَن أرادها يومًا أن تتجوّل بداخله، اليوم الذي ستعرفين فيه أين قلبُه، سيكون هو اليوم الذي سيعطيكِ فيه سرّ المفتاح، لكن.. إنْ لم يحدث هذا لن يتعذّب غيرك.

تحوّل إحساسها بالخوف من ضياع هشام إلى دموعٍ تساقطت في هدوء، تكوي خدّيها بحمرة اللوعة والشوق، لم يستطع أبوها إضافة أيّ كلمات، يعلم أنّ ابنته قوية ومتزنة، لكنّه يعلم أيضًا أنّ صراعات الحبّ من أشرس الصراعات على النفس، ربتَ على كتفها بحنانٍ وانصرف ليتركَ لها خصوصية تلك اللحظة.

فكّرت كثيرًا في كلامه، هشام رجل عاشق يخبّئ عشقه في قلبه، عليها أن تنبش قبرَ ذلك العشق، أن تخرج رفاتِه وتدفنها بعيدًا عن عينيه، لكن كيف؟

كان هشام في تلك الأثناء يحاول أن يستدعي النوم، رنّ هاتفه، لم يهتمّ، الاتصال الوحيد الذي يهتمّ له من أمّه وهي لا تتصل به أبدًا في ذلك الوقت، نظرَ لهاتفه حتى انقطعت رنّاته، لم يتوقّع أن يرنّ مرّة أخرى، كأنّ أحدهم يُلحّ للجواب، يرجوه أن يفتح ليأتي صوتها الحزين المتقطع الباكي:

- أين أنت يا هشام، ضاع ابنُ ياسين من أسرار، انتظرت علّنا نجده، لكن لم يحدث، تبخّر الولد.

ما تلك الكلمات التي ألقتها أمّه عليه وسكتت، لا يتوقّف بكاؤها لحظة..

- أرجوكِ اهدئي وأخبريني كيف حال "أسرار"؟

- بل قلْ كيف حالنا جميعًا، ذبحتنا سكينٌ واحدة يا هشام، سكينٌ واحدة أطاحت بكلّ الرقاب.

لم تصدّق رضوى ما يتناقل على الألسنة، أسرعت تلتقيه، لم تجده في المستشفى، اضطرّت تحت ضغط قلبها أن يجدها أمامَ شقّته تدقّ الباب:

- هل ما سمعته صحيح، ستسافر؟ أنت لم تكمل العام!!

- هناك ما ينتظرني في مصر، لا بدّ لي من السفر بأيّ شكل، وبأيّ تضحيات.

قالها هشام وهو يغلق حقائبه التي أعدّها، وهو لا يعلم متى ستهديه الأقدار تذكرةَ اللقاء..

- مشكلة لوالدتك، أم إنّه عزيزٌ آخر عليك؟!

نظر لها وقد ضاق بكلّ شيء، صدره يختنق بكلّ شيء وهو بعيدٌ في تلك الأزمة، كيف يمكن أن تكون "أسرار" في ضيق ولا يكون هو الكتف الذي تستندُ عليه؟

- مشكلة أغلى مَن في حياتي.

ابتلعت ريقها ليظلّ حلقها جافًّا كأنّه يُعلن عمّا جفّ بداخلها:

- هل ستعود؟

- لا أعرف، كلّ ما أشعر به الآن أنني غارق في بئر الحيرة، ولا أستطيع الصعود، لن ينقذني من حيرتي إلّا عودتي إلى مصر، والتأكّد من مشاعر لا أعرف هل ما زالت باقية أم أنّ ما أستحضره كلّ دقيقة هو شبحُها الذي بُعث وهي تُدفن.

- وإذا عدت؟

- عندها فقط أعدُك أنّك ستعرفين كلّ شيء، سنقرّر معًا ما يجب أن يكون.. لكن اعذريني.

تعرف أنّه سيلقي عليها بكلمات كمكعبات ثلج ستجمّد دماءَ قلبها طويلًا:

- اتركيني، لا تتصلي بي، أريد أن أكون حرًّا في قراري، لا شيء يربطني أو يشدّني حتى لا أكره ذلك الشيء يومًا. اتركيني حرًّا لأعود بكامل إرادتي، وإنْ لم أعد فاعذريني لأنّ هذا معناه أنّ مشاعري هناك لم تمت، بل بقيت لأستقي منها الحياة.

***

يقول المثل الصيني "أوقية من الذهب لا تشتري شبرًا واحدًا من الزمن"

الانتظار هو ذلك القاتل الصامت صاحبُ الجريمة الكاملة، يتسرّب سمّ قلقه إلى خلايانا فتموت على أجزاء، ليأتي الموت ويحمل ما تبقّى منّا في هدوء.

القلقُ والتوتر يعصفان بصالح كريح خريفية تقتلع قلبَه من بين ضلوعه، تمتدّ يده بأوراق سارة في ارتجاف، ولولا نظارة شمسية كبيرة حجبت كثيرًا لأشار كلّ مَن حوله ناحيته بأصابعهم "مُختطف"

تجنّبت سارة الحديث، لا تريد أي شيء يثير حولهما اشتباهًا، تثق أنّ كلّ شيء سيمرّ، ستُقلع الطائرة وسترحل بأحمد وتحتضنه هناك ما تبقّى لها من أنفاس:

- اهدأ يا صالح، كلّ شيء على ما يرام، أقلعت الطائرة وانتهى الأمر.

لمحاتُ الحيرة والتردّد لا تفارق وجهه:

- ضميري يعذّبني، لست راضيًا عمّا فعلنا، انظري إليه، يظنّ أننا ركبنا الطائرة لنعيده إلى أبيه كما أفهمناه، شيء ما بداخلي يصفعني.

- لقد حدث ما حدث، وما تقوله أصبح ماضيًا، سأبذل ما فوق طاقتي لننسى جميعًا تلك الليلة، سنمحوها من ذاكرتنا وذاكرة ابننا "محمد".

....

يومان كثقل الجبال..

لم يعثر بعدُ على ابنه المفقود، لم يُفقد أحمد بمفرده، بل ضاع معه قلبُ ياسين وعقلُه وحياته بأسرها، توقّفت ساعته عند حادثة الاختفاء، والتي لم يتخيّلها يومًا.

حمَّل نفسه ذنبَ ما حدث، وقاضاها، وحكمَ عليها بالحرمان من الحياة حتى وإنْ كانت روحه تدبّ في أوصاله، ستتوقّف ساعات أيّامه هنا إلى أنْ يجده ويضمّه إلى حضنه، ثمّ لا يخرجه منه أبدًا، لا يريد الآن مَن تربّيه معه، لن يدخل أحدٌ كهفهم الذي سيغلقه عليهما، المهمّ أن يجده.

تكرّر محضر الاختفاء لتتمكّن الشرطة من البحث، لم يتّهم ياسين أحدًا، بالرغم من النظرات القاسية التي وجّهها لأسرار، حاول الضابط أن يعرف هل له أعداء أو خصوم، لكنّه نفى ذلك.

حاصرهم ضابط التحقيق جميعًا بالأسئلة، لم يجد مَن يوجّه له الاتّهام، حاول توجيه تهمة الإهمال إلى "أسرار" لكنّ محاميها الذي وكّله إبراهيم عرفَ كيف ينفي عنها الاتّهام لحين ظهور أيّ دليل يدلّ على الإهمال.

خرجت من قسم الشرطة تهرول وراءه، تركها خلفه ومضى صامتًا، لا يريد أنْ ينظر إلى وجهها، يخشى أن يرى خلفه أي شيء غير الذي ظنّه، يخشى أن يسقط القناع.. هل خدعته؟

هل فرّطت في ابنه بإرادتها؟ هل البراءة التي تكسو عينيها هي براءة كاذبةٌ توهّمَها من فرط تعلّقه بها؟

قسماته التي أصبحت في ساعات قليلة قاسية تحكي كلّ ما يدور بداخله، توسّلت وأقسمت بكلّ شيء أنها لم تفرط ولم تهمل، لكنه رفض حتى أن يستمع.

وضع أصابعه على فمِها لتصمت وهو يقول بانهزام:

- لا تتكلّمي، لا فائدة، ضاع ابني الوحيد، لست أنت المخطئة، أنا المخطئ الوحيد، أنا المتّهم والبريء والمحكوم عليه بالإعدام.

لا تعلم بماذا تجيب، هو على حقّ، تعلم معنى فقدان الابن، فبالرغم من أنّ ابنها ما زال نطفة في أحشائها إلّا أنّها تخشى عليه حتى قبل أن تراه، هو على حقّ، لكن..

ألم يعلم بقلبه أن قلبّها ينفطر عليه وعلى أحمد، حكم عليها بالإعدام بنظراته التي تقتلها، حكمَ عليها بالابتعاد الذي لن تقوى عليه، فليتركها بجانبه، ألم يتعاهدا على الخير والشرّ معًا؟ لماذا تشعر أنه سيتنازل عنها بسهولة مع أوّل أزمة.

دخلت بيت أبيها حيث تركها وانصرف دون كلمةٍ واحدة تجرّ أقدامها التي لم تعدْ تقوى على حملها، لن تراه مرّة أخرى، تشعر بذلك، استيقظت من حلمها على كابوسٍ مخيف..

العيون تلتقي والكلمات أخرسها الألم.. علية تتحسّر على حال بناتها.. إبراهيم يفكّر فيما زرعت يدُه ويحصده الآن، يومٌ واحد تقع فيه ابنته الكبرى في انهيار عصبي تهيم في عالم المجهول، والصغرى ضاع منها ابنُ زوجها وستفتح لها الأيام خزانة الشقاء.

محسنة تجلس أمام "علية" تشعر أنها الجاني الحقيقي المستتر لتلك المأساة، خجلها لم يعدْ من أي شخص أو أي أحد، خجلها أصبح من نفسها التي دفعتها لشبّ نارِ كراهية تلتهم كلّ شيء الآن..

- شدّي حيلك يا أسرار، لا أحد يعلم ما يخفي الغد. (قالها إبراهيم وهو يحتوي "أسرار" بين يديه ويخبأها في حضنه).

أمطرت عيناها كأنها سماء ملبّدة بالغيوم واصطدمت بدفء حنان أبيها، بكت كما لم تبكِ من قبل، ربتَ على كتفها وذكّرها بالعشم في وجه الله، يذكّرها وقلبه يتمزّق عليها، يرى ما لا تراه ويشعر بما قد لا تشعر به، يخشى عليها ممّا سيجرّه عليها الحدث من تشتّت وفراق قد يصل إلى حدّ الطلاق:

- هل قال لك ياسين شيئًا؟

- ياسين لا يتكلّم، ليته يقول أي شيء، ليته يصرخ ويتهمني، سكوته عذاب يضاف إلى عذابي وتأنيب ضميري، يتّهمني بكلّ شيء إلّا صوته.

- العود لا يشتدّ إلّا بالمحن يا ابنتي، لا أريد أن تكسر تلك المحنة عودَك، أريدها أن تجعلك أكثر صلابة، توقّعي كلّ شيء حتى الطلاق.

طلاق! هل يمكن له أن يطلّقها حقًّا؟ لماذا لم يشعر أنّ عذابه عذابها؟ لكن أباها عنده كلّ الحق، كلّ تصرفاته تنبئ عن شيء، لو خيّرها لاختارت أن يتركها في بيت أبيها ويرحل، يرحل ويترك لها رمزَ ارتباطه بها علّه يستطيع أن يعود يومًا ليجدها هي وابنه الذي لم يرَ الحياة في انتظاره.

طال صمتُها، فعلم إبراهيم أنّها لم تتوقّع ما قاله، فأكْمَل:

- الأيام يا ابنتي علّمتني أن أتوقّع كلّ شيء في أيّ وقت ومن أيّ أحد.

ثمّ ربت على كتفها بحنان كأنه يشدّ أزرها ليشتدّ عودها ويقوى على مواجهة الرياح القادمة، والتي قد تعصف بها وتقذفها إلى حيث لا تريد.

***

الطريق الوحيد للكشف عن الحقيقة هو الاعتراف بالذنب، لتبقى الحقيقة مجهولةً خلف ستارٍ ثقيل لن تزيحه إلّا أيادي العصاة وقلوبهم وألسنتهم تقرّ بالعصيان.

وعودُ سارة لا تنفذ، استنفذت كلّ طاقتِه للصبر، زاد بكاؤه وإصراره على الذّهاب إلى والده.

- محمد، نحن في انتظار أبيك.

- اسمي أحمد وليس محمد.

ابتسمت من وراء حزنٍ ثقيل، وهي تطيح بخصلات شعره الأسود بأناملها:

- كلّ مَن اسمهم أحمد من الأولاد عندما يكبرون يصبح اسمهم محمدًا.

- أنا الآن اسمي محمد؟

- نعم، ستدخل مدرسة جميلة ستحبّها، سنتدرب على السباحة، أريدك أن تصبح بطلًا، وعندي لك مفاجأة.

أمسكت سارة بيده إلى الحديقة، وجد في انتظاره كلبًا صغيرًا جميلًا.. تعلّق به فوْر رؤيته وشغله عن كلّ شيء.

سألته عن الاسم الذي سيسمّيه به، دقّ قلبها بعنف عندما سرح بعيدًا وقال: "ياسو"

تعلم أنه اختار ذلك الاسم لأنه أقربهم لاسم أبيه الذي يشتاق لرؤيته حدّ الجنون، لكنّها لن تيأس من تغيير كلّ شيء؛ فالوقت كفيل بصنع المعجزات، كلّ يوم يمرّ معها يبتعد بذهنه عن حياته السابقة.

أحاطته بعالمٍ خاص فصَلَه عن عالمه القديم بجدار النسيان، مدرسته، تدريباته، أصدقاؤه الجدد.. ياسو، هي وصالح بكلّ حبّها وحنانها وحياتها المسخّرة من أجله.

خلا ذهنه من كلّ ذكرى إلّا شبح المرأة التي تركته وحيدًا، مَن هي تلك المرأة!! لا يعلم.

لا يعلم أنّها تدور الآن في دائرة مغلقة لا تستطيع اختراقها لتخرج وتبحث عنه، تفيق، تمدّ يدها لتجد بابًا أو منفذًا في تلك الدائرة المغلقة بإحكام لحدّ الاختناق، لكنْ سرعان ما تسقط يدُها خاوية الوفاض، تصرخ لتخترقها تلك المهدّئات، تشلّ قواها وتخرس كلّ صوتٍ بداخلها، لسانها لا يترك التمتمة باسم أحمد وأسرار تلك الفتاة الجميلة التي لم تتخيّل يومَ التقت عيناها بعيني ياسين أنه لم يفتحْ لها طريق الحبّ، بل فتح لها طريق الشقاء الأبدي، لتعود إلى سؤالها الأول.. "هل الحبّ ذنب لنُعاقب عليه بالجبّ والسجن؟"

سقطت في الجبّ وحيدة لم يتمسّك بها أحد، حتى طفلها الذي حملته أحشاؤها لم يستطعِ التمسّك بها لنهاية الطريق؛ فسقط مع كلّ ما سقط من مشاعر وفاء وأمان وحبّ.

وأيّ حبّ وهي في وحدتها التي ألقاها فيها الرجل الوحيد الذي أحبّته وفضّلته عن كلّ الرجال، تفكّر في كلّ ما فات، وتعارك مشاعر الندم والألم وتتساءل كلّ يوم.. هل الحبّ هاويةٌ كبيرة تستولي على عقولنا لتغرقنا في غيبوبةٍ لا نفيق منها إلّا على صوتِ صراخنا ونحن على حافّتها.. فمنّا مَن يسقط ومنّا مَن تنقذه يدٌ خفية لا يعلم مِن أين أتت!؟

أرسل لها ورقة حبريّة تقطع كلّ ما بينهما، غيّر اختفاءُ ابنه كلّ حياته، لم يختفِ أحمد وحدَه بل اختفى معه ياسين الذي عرفته، استقرّ في الإسكندرية، يذهب يوميًّا إلى مكان اختفائه ولا يعود إلّا مع عودة القمر إلى السماء، أنهى كلّ أعماله وكرّس نفسه لعمل واحد، البحث عن ولده، يجلد نفسه كلّ لحظة بسوطي الندم واللوم حتى أصبح حديث الإسكندرية بأكملها، يعرفون أين يجلس وماذا ينتظر، تحيطه نظرات الشفقة في كلّ مكان، هناك مَن أرسل صورته وتفاصيل قصّته على صفحات التواصل الاجتماعي، منهم مَن طبعها ووزّعها بنفسه حول مكان الاختفاء، الكلّ يستطيع أن يقترب منه ويكلّمه إلّا هي، دخلت البئر الذي أرادته لها "منى" وفكّرت فيه تفكيرًا شيطانيًّا، أعادتها كما أرادت إلى سريرها في غرفتها كما كانت قبل أيّ شيء، لكنها لم تعدْ كما كانت.. أخذت منها التجربة الكثير، بهتت روحُها، ومَن تبهت روحُه لا يحيا فيه شيء، تستيقظ من نومها على صوت أحمد يناديها، صورتُه لا تفارق خيالها، تؤرّق نهارها وليلها، تتمنّى أن تخسر كلّ ما تبقّى لها من حياة أمام عودة أحمد.

ومُنى على سريرها تتوه في أوْهامها لا يغمض لها جفن إلّا بالمهدّئات، تفيق ليلًا، تنهض كالشبح، تسير إلى سرير أختها لتربتَ على كتفها ثمّ تعود من حيث أتت. لا تعرف "أسرار" ما سرّ تلك الشفقة التي تحيطها بها، والتى لم تعتادها..

هل هو الندم، أم الاستغفار؟

***

لكلّ زهرةٍ محبّ يرويها، تجفّ أوراقها إن غاب، ولكلّ شمسٍ سماء تحتويها تبكي حمرةً إذا حان الغياب، ولكلّ روحٍ روحٌ تناجيها يبقى بعد وداعها العذاب.

الصفوف أمامها وهي تجلس هناك في آخرِ الصف، المعلمة تحكي "يوسف وإخوته، في غيابة الجبّ، يلتقطه بعض السيارة "الأصوات تبتعد وتبتعد، لا يقترب إلّا البئر، اليد الملعونة تقذفها، تصرخ، تتقاذفها جنبات البئر لتلقيها في أقصاه، الظلام يشتدّ والبرودة تسري في جسدها، حبل سميك يُلقى هناك في وسط البئر، أنفاسها تعلو وهي تحاول أن تتمسّك به.. هل جاءت القافلة أم هو وهْمُ النجاة؟

أفاقت "أسرار" من ذلك الكابوس المُخيف على يد أمّها تهزّها:

- أسرار، لن تصدّقي مَن بالخارج.

- مَن؟

- هشام يا "أسرار".

- هشام!

تبتسم أم تبكي، هل جاء؟ هو وحده قافلة! لقد جاءت قافلة النجاة. وتكمل أمها:

- لم أصدّق عيني وأنا أفتح الباب لأجده أمامي، احتضنته أنا ومحسنة في وقتٍ واحد، لم تكن تعلم بمجيئه، جعلها مفاجأةً للجميع، يريد رؤيتك فتركتُه معها وجئت لأوقظك.

ابتسمت لها "أسرار" من وراء الدموع، لا تعرف دموع الفرح بعودته أم دموع الحسرة على ما كان.

جلست "علية" بجانبه تتلمّس يدَ رجل كانت تتمنّى أن تنجبه ليكون سندًا لابنتيها في تلك الحال، ربتَ على كتفها بحنان وهو يسألها عن حالِ رفيقة عمره، وعن "منى".

- أصبحتا وكأنّ غرفتهما هي سجنهما، لا تتركانها، لا يأكلان ولا ينامان، لو رأيتهما لن تعرفهما، صارتا شبحين، "أسرار" طلّقها ياسين وفقدت حملَها، ومنى تائهة في عالم لا يستطيع أحدٌ منّا المرور إليه، وأحمد ضاع ولم نجدْه، يتمزّق قلبي عليه وعلى ياسين أكثر ممّا يتمزّق على بناتي، ضاعوا في يومٍ واحد كأنهم كانوا على ميعاد!

- سيمرّ كلّ شيء يا خالتي، سيمرّ، أعدُك؟

ظهر على وجهها شبح ابتسامة، وترقرقت في عينيها الدموع، ربتتْ على كفّه وهي تقول:

- حقًّا يا هشام!؟

- حقًّا يا خالتي.

مجيء هشام على غير توقّع كان كطوق النجاة الذي أُلقيَ لها في بحرٍ خلا من كلّ شيء، تبحر فيه وحيدةً على مركب من القلق والحزن، أخذتها موجةٌ من موجاته القوية إلى غربة شديدة المنتهى حتى عن نفسها، كانت في الماضي تعرف ما تريد وما تنتظر، الآن هي لا تعرف شيئًا، لكنّها كانت تنتظره، تنتظره ولا تعرف كيف لفردٍ واحد أن يتحوّل إلى قافلة بأكملها، هل سيدلي دلوَه؟ هل سيخرج روحها من هناك؟ سيبيعها بثمن بخسٍ كما باعها ياسين أم سيشتريها؟

كلّ شيء معه يختلف، الخوف تبدّل أمانًا، القلق أصبح طمأنينة، حتى اليأس ذهب كأنه يخشاه.

- كيف حالك يا "أسرار"؟

- كما ترى، التفكير يهوي بي إلى حدّ الجنون، هشام.. هل أنت هنا بالفعل، أم أنني أتوهّم من فرط حاجتي إليك؟ هل أنت واقع، أم وهمٌ من أوهام البئر الذي ابتلعني؟

- كنت الواقع وسأظلّ، لم ولنْ أصبح يومًا حلمًا في حياتك، كيف هداكِ تفكيرُك أنه يمكن أن تقعي في ضيق وأتركك وحيدة؟!

- حتى لو كنت تركتني لم أكن لألومك.

- لا يوجد في العالم كلّه سببٌ يجعلني أتركك وحيدة وأنا أعلم أنك تتمزّقين، صحيح أنّ مشاكلك القديمة كانت مشاكل بنات بسيطة، لكن الأزمة الحقيقية أولى يا أسرار، لو كانت الدنيا بأسرها هناك وأنت في أزمتك هنا لتركتُ كلّ شيء خلفي وجئت، ما أريد سماعه الآن كلّ ما حدثَ بالتفصيل، أعرف أنك لم تتكلمي مع أحد، كنت تنتظرينني ليتصدّع رأسي بثرثرتك كالمعتاد.

ابتسمت أول ابتسامة من يوم اختفاء أحمد من خلف دموعها، فربتَ على كتفِها بحنان وهو يقول:

- احكي يا أسرار.

***

يمرّ الوقت، ويمرّ معه كلّ شيء؛ الحزن، القلق، الألم، اليأس، الفقد.. إلّا فقدان الابن، لا يمكن للوقت ولا لأي شيء أن يمرّره حتى الموت، كأنّ الأرواح تظلّ عالقة تبحث عن الفلذات.

لم يعدْ عقله يعي ما حدث، كلّ يوم يبعده عن أحمد أضاف لعمره سنوات، هو نفسُه لا يعلم كيف جرّته أقدامه إلى المأذون ليحرّرها من عصمته، هل

ألقى عليها قلبه اللوم، ولم يعرف كيف يصرخ في وجْهها فوجّه لها صرخة مدوّية زلزلت جدران كيانها؟ أم أنّ كيانه رحل مع أحمد ولن يعود إلّا بعودته، فأطلق سراحها حتى لا يحبسها معه في قيد الموت الحي؟ لم يعدْ يمتلك الخيال الذي يجعله يتصوّر حالها ووقْعَ الصدمة عليها عند استلامها لتلك الورقة الذي لم يظنّ أحدهما يوم زواجهما أن تكتَب، لكنّه الآن حبيس تلك البقعة التي ضاع فيها أحمد.. حتى إخوته، حاولوا بكلّ قوتهم أن يثنوه عمّا يفعله، عن جلسته الطويلة في الشارع فلم ينالوا إلّا التهديد بمقاطعتهم نهائيًّا إن لم يتركوه لحاله ويعودوا من حيث أتوا.

الأيام تمرّ، ولا يحدث شيء كأنّ الأرض انشقّت وابتلعته..

لو أنه حقًّا تاه هنا في الإسكندرية؛ لماذا لم يجده حتى الآن؟

أين هو؟ ومع مَن؟ وكيف يعامله؟ هل هو حيّ أم أنه....؟

تلك الفكرة التي لا تستطيع حواسّه تصديقها، هل فارق أحمد الحياة؟

كأنه يوم أنْ بحث عن زوجة لم يكن يبحث إلّا عن شقائه وشقاء ولده، شاردًا هو فلم يشعرْ بالزائرَين اللذَين يجلسان بجانبه ينظرُ بعضهما لبعض ولا يستطيع أحدُهما مِن هوْل منظره أن يبدأ بالحديث، منظرُه الذي أصبح يدمي القلوب، ويُبكي العيون، ويُخرس الكلمات..

ربتَ إسماعيل على كتفه بشفقة وحنان:

- وحّد الله يا حاج ياسين، القادر على فكّ الكرب.

- لا إله إلّا الله.

- تفاءل بالخير، سيعود بإذن الله، هي محنة واختبار، والصبر أصحّ جواب.

نظر له بعين محطّمة، ونفسٍ كسيرة:

- يعود!! متى؟ إن كان هنا لماذا لم يرجع إلى الآن؟ لماذا لم يجدوه؟ إنّ ابني تأذّى بشكل ما وأنا أجلس هنا لا أعرف مَن الذي يؤذيه، وبأيّ شكل. هل تشعر بما أشعر به؟ هل يشعر أحدٌ بحجم الألم الذي ينهش لحمي كالوحش؟ لا أحد يعلم.. لا أحد.

ربتَ إبراهيم على قلبه وهو يحاول أن يذكّره بربه، يعلم أنه لن يتقبّل منه شيئًا، لكنّ ضميره لن يسمح له بتركه هكذا، حتى ولو لم تكنْ "أسرار" المسئولة أمامه:

- تأمّل في الله الخير، وألقِ حمولك عليه.

- هل تعرف اليأس، لم أذهب إليه بل هو مَن جاءني، لا أريد أن أجده، كلّ ما أريده أن أراه حتى ولو كان جثمانًا، سأدفنه وأقرأ الفاتحة على روحه، وأرحل، لكنْ أن ألس هنا وأنا لا أعرف بيدِ مَن هو؟ سأجنّ من فكرة أنّ

أحدهم يعذّبه أو ينتهكه، عيناه التي لم تعرف الخوف لا تفارقني، أراها مفزوعة، صرخته التي لم أسمعها يومًا تملأ أذناي. الشيء الوحيد الذي سيريحني أن أجده حيًّا أو ميتًا، أريد أن ألمس جسده قبل أن أترك الحياة.

ثمّ أجهش في بكاءٍ عميق.

لم يستطعْ أحدهما إضافة كلمة بعدما قيل، فتركاه وانصرفا، وهُما يشعران بوخْز كلماته في قلبيهما.

في الوقت التي كانت تحكي فيه "أسرار" لهشام كلّ ما حدث بالتفصيل.

***

افترقنا، فصار الكون بلا ألوان، وهبّ النسيم بلا عطر أو عبير، ومرّ الليل فلم يأخذني نومٌ في راحلته، أتمنّى أن أغفو لألقاك.

كانت تحكي وصوتُها أنفاس رئتيه، تصمتُ فيلمح في عينيها كلّ ما لم يُقال، تمنّى أن يلومها لكنْ منعه قلبُه المحبّ، لو سمعت بأذنه وأبصرت بعينيه وتفهّمت بقلبه لما حدث كلّ هذا..

- تعرفين الولد، هل هو مِن الأطفال الذي يُمكن أن يتكلّم مع غريب؟

- أحمد طفل مؤدّب بشكلٍ لا تتخيّله، خجول وهادئ، لم يكن ليتركني أبدًا ويذهب مع أيّ غريب، وهذا ما سيجعل رأسي تنفجر.

- جذبه أحدهم غصبًا عنه!

- لا يمكن، الوقت الذي غفلت عنه فيه لا يكفي لخطفه، كما أنه لم يصدرْ صوتًا، كان سيبكي على الأقلّ، وأمي كانت معي.

غاب بفكره بعيدًا حيث لا يمكن أن تصل..

- يبقى أنه تركك وذهب مع أحدٍ يعرفه جيدًا يا أسرار، حاولي أن تربطي كلّ شيء ببعضه لنجد طرفَ خيط نمشي وراءه.

- أنا حزينة على أمّي يا هشام، أخذت صدمةَ ضياع أحمد، وانهيار "منى" في يومٍ واحد.

وكأنّ كلماتها جعلت شيئًا يلمع في ذهنه:

- هل كانت "منى" بمفردها في البيت؟

- نعم، أمي كانت معي، وأبي في المحل، خالتي لم تحضر ذلك اليوم.

- فما سبب الحالة العصبية التي انتابتها إذا كنتم جميعًا بعيدًا عنها؟!

- لا أحد يعرف إلى الآن سببها، لكنْ ما علاقة "منى" باختفاء أحمد؟

- اربطي الأحداث، أحمد مستحيل أن يذهب مع أحدٍ لا يعرفه، "منى" وحيدة في المنزل، فجأة يختفي أحمد وتقع "منى" في حالةٍ عصبية في نفس الساعة!! ألا تجدين رابطًا؟!!

علتِ الدهشة وجهها وهي تهزّ رأسها غير مصدّقة ما يرمي له:

– مستحيل يا هشام، مُنى! صحيح أن أفكارها غريبة ولا تميل لي كأخت، لكنّك تعرف بنات خالتك جيدًا.

– بالضبط، لهذا هاجمها الانهيار العصبي. لم تعِ ما تفعل إلّا عندما أفاقت ممّا فعلته، فوقعت وانهارت.

تاهت بأفكارها بعيدًا وهي تحاول أن تستوعب ما يقال، المبرر الوحيد للشيئين انهيارُها واختفاء أحمد..

– لهذا لا يترك اسمي واسم أحمد لسانها!

– تأنيب الضمير، يجب أن نعرضها على طبيب متخصّص طبّ نفسي حالًا، لي صديق أثقُ به جدًّا، وسنرى..

– أخشى تلك اللحظة يا هشام، أخشى أن تكون....

– أسوأ ما في الأمر أننا قد نحتاج لوقتٍ ليس قصير لنعرف. معظم تلك الحالات أصحابها يضعوا ما حدث في صندوقٍ داخل أعماقهم ولا يفتحوه بالسهولة التي تتخيّلينها، قد يحتاج الأمر لشهور تصلُ لسنين، لكنْ يبقى هذا ما بأيدينا.

غطّت وجهها بكفّيها كأنّها توقّف في عينيها مشهد ما..

- رأيت صور الولد في كلّ مكان، والده رصدَ مكافأة مهولة، ويجلس في مكان الاختفاء لا يتركه، لقد أصبح حديث الإسكندرية بأكملها.. الأمل الوحيد في خيط "منى".

رفعت كفّيها، فظهرت دموعها التي أغرقت وجهها..

- هل يمكن أن تكون "منى" قد قتلت أحمد؟! هل يمكن!!

تنهّد وقد ظهر على وجهه الألم:

- لا أريد أن أخيفك، المريض النفسي يمكن أن يفعل أي شيء حتى قتل نفسه.

- سأسألك مرّة أخرى يا هشام، هل أنت هنا حقًّا، لم أصل إلى حدّ الهلوسة، لقد كنت في بئر غويط أتلمّس به النور فإذا بك هنا.

- لا تقلقي يا ابنة خالتي، أنا هنا والحبل الذي مددته لك صعدتِ عليه من البئر، خرجتِ منه الآن، اتركي الباقي لي، لكن كلّ ما دار بيننا يبقى بيننا إلى أن نصل إلى الحقيقة.

وضعت رأسَها على المنضدة التي أمامها، وأسندتها على كفّها وهي تقول:

- الآن فقط أستطيع أن أنام.

***

لم تعدِ الحياة هي الحياة، أصبحت القبور تملأ باطن الأرض ووجهَها، أصبحنا دون أن ندري رفاتٍ، القسوة وانعدام الضمير أماتَ كلّ مَن كان حيًّا، ماتت روح الظالم بأفعاله، وأمات روح مَن طالته يداه.

لم يكن التعامل مع "منى" بتلك السهولة التي توقّعها هشام، ذهب عقلها مع أحمد، وعودته لم تعدْ بالأمر الهيّن.

الأسابيع تمرّ لتصير شهورًا طويلة يبتعد فيها أحمد عن الحقيقة التي أصبحت شبح امرأة في خياله، امرأة تركته في الزحام وولّت أمام عينيه تجري فيتسمّر مكانه ويصرخ باسم ياسين..

كبرَ فيها عامان، الآن هو محمد صالح، لم يعد يعرف إلّا هذا، انغمس في ذلك المجتمع الجديد ليصبح من النابغين دراسيًّا ورياضيًّا، أحاطته سارة بكلّ أنواع الاهتمام والغموض، لا تصوير إلّا بعد خروجه من مرحلة الطفولة لتتغيّر ملامحه فلا يعرفه أحد، تخاف عليه من كلّ شيء، إنه أملُها الوحيد في أمومة تشعر أنها حقيقية، تشعر برباطٍ خفي يصلها به كأنه خرج من رحمها هي لا مِن رحمٍ أخرى، تتجنّب إيقاظ وخزة الضمير التي تراها في عيني صالح من آنٍ لآخر.

وجد فيها الأمَّ التي فقدها صغيرًا، ولم يستمتع بحنانها، "أسرار" طيبة لكنّها كانت فتاة صغيرة محبّة، أمّا سارة فقد صهرتها مشاعر الحرمان وسكبتها في قالب الأمومة الحقيقية، لتقتل أيّ معنى للندم في قلبها وقلب صالح.

الندم الحقيقي كان يرسو هناك في أعماق مُنى، ينتظر اللحظة التي سينفجر فيها البركان الذي يُلقي بحممه داخلها فيقتلها في اليوم مئات المرّات.

كان يذهب بها ويجيء، يشعر بألمها النفسي الذي أخرجها من دائرة الحياة، الدائرة التي لا يعلم كيف أحكمت عليها الخناق لتقتل فيها ضميرها للحظة تحقّق فيها لنفسها رغبة انتقام متجسّدة في طفل صغير!! هل كان هذا كلّه من أجله؟

هل أحبّته لدرجة تجعلها تؤذي أختها وابنَ زوجها ومِن قبلهم نفسَها!؟

وجدت محسنة في عودة هشام الخيمةَ الكبيرة التي كانت تحميها، لكنّ رياح الألم اقتلعت أوتادها، وها هي تدُقّ مرّة أخرى في أرضها، إنّه حبيبها الذي تقرّ به عيناها، الأمل والشعاع الذي يدفّئ أوصالها الهرمة:

- الحمدُ لله على عودتك، سفرك كان عقابًا أليمًا.

ضحك لها ضحكةً صافية لم ترها منذ وقت طويل، وهو يداعبها بغمزةٍ من عينيه:

- لا تنسي أنّ سفري وإنْ كان عقابًا كان طريقًا فُتح لتلتقي بخالتي.

لم تخلُ نظرات محسنة من الخبث، وهي تردّ غمزته بغمزة مماثلة:

- من أجل "أسرار"؟

سرح بعيدًا، وطال شروده، أفاق وهي تكرّر سؤالها:

- ليس من أجل أسرار، من أجلك أنت وخالتي، كلاكما وحيدةٌ في بحر الحياة، اجتماعكما سيهزم أيّ عواصف.

فاجأته بدمعةٍ وسؤال لم يتوقّعه:

- هل تظنّ أنّ لُمنى علاقة باختفاء أحمد؟

لم يتوقّع هشام أنّ ذكاء أمّه بتلك الدرجة، أم أنّ "منى" صناعتها الدقيقة التي تعرف عن تفاصيلها ما لا يعرفون.

كان عليه بالرغم ممّا ظهر على وجهه من قلق وتوتّر واستغراب أن يبعدها عن ذلك التّخمين، لا يريد أن ينهشها عذابُ الضمير، كبرت محسنة ولن تتحمّل أنّ زراعتها حصدت محصولَ الشر، كبرتْ لدرجة أنّها لم تتحمل وحدتها، وسارعت للصلح مع أختها.

أراد أن يعرف منها دون أنْ يمنحها أي جواب:

- ومِن أين أتى هذا الشك؟

- مَن يمكن أن يؤذي ابن ياسين إلّا "منى" ليُطلّق "أسرار" وتعود إلى بيت أبيها مهزومة مُنكسرة، قد لا أكون أنا مَن زرعت بذرة الغيرة في قلب "منى" لكنّني أنا مَن رويتها، أنا مَن نفخت في نار الغلّ الذي بداخلها ليحرق

كلّ ما حولها، لم أقصد كلّ هذا، أردت فقط أن أنزع من بيت "عليّة" السعادة، لم أتوقّع أن تتحوّل المشاعر إلى جريمة في حقّ أيّ أحد، وبالذات طفل صغير كأحمد، قلبي يتمزّق وأنا أرى كلّ شيء ولا أستطيع فعلَ أي شيء، لقد كتّفتنا "منى" جميعًا بحبال الألم والحزن حتى نفسها، ما يجري على لسانها الآن هو الحقيقة، حقيقة مختبئة خلف ستار سميكٍ يجب عليه إزاحته بأيّ شكل لتظهر وتنجلي وتُعالج أخطاءها وتتطهّر الأنفس.

هو على يقين.. حتى لو كانت النار قد اشتعلت في بيت خالته ستصفو يومًا وتتحوّل الكراهية إلى رماد ليصفو المعدن الأصيل بداخلهم، هو يثقُ من ذلك.. سيأتي هذا اليوم.

***

الوقت لا يقتل الحقيقة، هو فقط يئدُها حيّة ليأت أحدهم يومًا لينبش قبرها ويستخرجها، لكن كلّ ما عليه أن يتحمّل رائحتها.

اليأس يعصف بقلبها كرياح صيفٍ شديد الحرارة، لا يترك فيه قطرةَ أمل، تبخّر كلّ شيء هناك في تلك البقعة التي ما وجدت بداخلها إلّا للشقاء.

القلق يقتلها ويقتلُ هشام معها، لا يتوقّع أن يسكن كلّ ذلك الحزن قلب فتاته التي عشقها وهامَ بها حبًّا، يرى تشقّق قلبها وجفافه، ولا يقوى على إنقاذها من الهلاك حتى الآن، يتابع جلسات علاج الدكتور سامي بلهفة

وخوف يسكنان قلبه، يترقّب اللحظة التي ستصفو فيها نفس "منى" ويطفو على سطحها كلّ ما علق ليعالجه قبل فوات الوقت، مرور الشهور ليس في صالحهم.

أحمد يبتعد كلّ ساعة دهرًا، والأمل أصبح سرابًا، لكنّه سيسير خلفه في صحرائه حتى لو مات عطشًا، وعَدَها وهو الذي لم يخلف معها وعدًا.

في تلك الحجرة الضيقة التي اعتاد فيها الانتظار يجلس كما اعتاد، ينتظر خروج سامي، أقبل عليه بوجهٍ غير كلّ وجه:

- انفجر البركان.

- ماذا قالت؟!!!

قالها وهو يهبّ واقفًا ممسكًا قميص سامي بيديه كأنه هو المتّهم.

- نعم يا هشام، كنت محقًّا، هي مَن أخذت الولد وتركته في المول الكبير وحيدًا ضائعًا في بلد لا يعرفه فيه أحد، هي مَن جنت على ذلك الطفل الصغير رغبةً في الانتقام لتحرق قلبَ أختها، صرخته كانت الطاقة التي ابتلعتها لتغرقها في ظلماتِ نفسها تلومها وتعذّبها، فسقطت في فقدان الذاكرة النفسي.

- لم تقتله.. الحمد لله.

رنّ هاتفها ليقفز معه جسدُها "هشام"! تشعر أن هناك أمرًا..

- انتظريني أمام المول الكبير، أنا في الطريق.

كان يحدّثها ونفسه وروحه تلهثان، كأنه يقول ظهرت براءتك، وسأحضرها على كفّي.

"أسرار" أمام المول يقتلها القلق، لمحتْه فأقبلت عليه بلهفة، نظرت له طويلًا، فهزّ رأسه علامة الإيجاب:

- نعم هي، وتركته هنا.

وضعت يدَها على فمها واتسعت عيناها، بدأت دموعها في التساقط وهي لا تكرّر إلّا كلمة واحدة "لماذا!!"

- ليس المهمّ الآن، الأهمّ أن نسرع، كنت أنتظر مصيبة أكبر من هذا، يوجد أملٌ حتى لو ضعيف، لكنه مازال موجودًا.

- وما الذي سنفعله الآن؟

- المول ثلاثة أدوار، أعتقد أنّ "منى" تركته في الدور الأرضي، سنفترق وبكلّ جهدٍ وقوّة سنسأل عن طفل فُقد من عامين، ركّزي على عمّال النظافة ورجال الأمن؛ هُم مَن يعرفون كلّ شيء يحدث في المول.

لا تحتاج هي أن يذكّرها بالاجتهاد، ستبيع روحها لَمن يدلّها على شيء، لا لترفع عن نفسها اتّهامًا، ولا من أجل عودة ياسين، بل من أجل عودته

هو "أحمد"، داسته "منى" بلا ذنب، أخذته بين أقدامها العمياء لتصل للحظةِ انتقام.

لم يكن اليوم الأول مجديًا كما تمنّت، خرجت معه من المول تجرّ الخيبة، الأملُ الوحيد في رجل قالوا إنّه في أجازة، يعرف كلّ ما يحدث أو حدث، عمّ سعد لا ينسى شيئًا، هذا ما قيل، وهذا ما ستحيا عليه الساعات القادمة.

- يجب أن أذهب لأحضر "منى" من جلسة العلاج، لن أذكّرك.. الأمرُ سرٌّ، لن نخبر أحدًا بأي تفاصيل، لو تسرّب الخبر ووصل لياسين ستتعرّض "منى" للمسائلة القانونية، وفي حالتها النفسية سيضعونها في مستشفى حكومي للأعصاب، وسندخل في دوّامة لا يعلمها إلّا الله.

- أعرف، ما لا تعرفه أنني سأخفي السرّ حتى عن نفسي، أنا لم أسمع شيئًا إلّا أنّ أحمد ضاع هنا.. وسنجده، أليس كذلك؟

تسمّر قليلًا قبل أن يجيب، قلبها لم يحتمل أنّ أختها هي مَن ألقتها في البئر:

- ألم أعدُك، سنجده بإذن الله.

تركته يذهب لمُنى، وذهبت لمشوارها اليومي الذي لم تغبْ عنه يومًا، هناك حيث يجلس طيلة الأعوام السابقة ينتظر وينتظر، وكأنّه أدمن الانتظار،

حوّلته السنوات إلى شبح يتلمس مكانَ آخر خطواته الصغيرة، هو نفسُه لم يعدْ يدري ماذا ينتظر، كأنه أصبح على وعدٍ مع الانتظار، سينتظر إلى أن يحين الأجل، ويموت هنا حول خطواته الأخيرة، كانت ترقبُه من بعيد لا يعنيها أنْ يراها، ترقبه بقلبٍ متألّم وعين نادمٍ مستغفر عن ذنبٍ لم يقترفه، تمنّت أن تعلن له خبرَ براءتها، لكنها ليست تلك التي تنقذ نفسها وتلقي بأختها إلى هاوية الجنون السحيقة وبأهلها في الشقاء، كلّ ما عليها الآن هي الأخرى الانتظار..

كأنّهما يوم التقيا كان الانتظارُ وعدَهما المحتوم.

***

أول طريق الندم ألم، وأوسطه معاناة، وآخره حسرةٌ تكوي القلوب، ولا يشفي الندم إلّا التوبةُ النصوح، ولا تُلهَم الروحُ التوبة إلّا بالاستغفار.

الآن هي في مواجهة مع نفسها، تعي الآن ما اقترفته جيدًا، أفاقت من دوّامة الذهول لتدخل في دوّامة الندم، لا تصدّق أنّ الحقد والغيرة تشابكوا بداخلها وصنعوا حيّةً رقطاء زحفت على حياة أختها لتنهيها، وحياةِ ياسين لتشقيها، وحياةِ ذلك الصغير الذي لم تجنِ يداه أي إثم، لقد أحاطها باهتمامه الطفولي البريء، عيناه الصغيرتان المذعورتان لا تغيبان عن عينيها، صوته الصارخ المرتعش لا يترك آذانها، نظرته وصوته صنعوا حبالًا سميكة تشابكت حولها تخنقها في كلّ لحظة ندمًا وألمًا.

كانت نظرات هشام وكلماتُه الحانية هي المخدّر الوحيد الذي يقلّل آلامها ولو دقائق، يسألها عن حالها ولا يشعرها لحظة أنه قد عرف من الأمر شيئًا. الشفقة تملأ قلبَه تجاهها، اصطادتها شباكُ الغيرة وقذفتها إلى بئر الحيرة الذي أوصلها ممرّه الضيق الخانق إلى بئر الندم.. البئرُ المغلق الذي لم تصعد منه روحٌ إلى الآن.

يحاول دفعها لطريقٍ مُنير بعد كلّ ذلك الظلام الذي أغلق عينيها، ففقدت البصر والبصيرة..

- لم أكن أتخيّل من عشر سنوات أنّ حالي سيصبح ما هو عليه الآن!

- حالك! أنت شجرة ورد رقيقةٌ لم تُزهر بعد، قد يكون الفيضان أغرق جذورها، أو أنّ الشمس جفّفت تربتها، لكنّي على ثقة أنك ستنتصرين على كلّ شيء، وتزهري للحياة ورودًا تسعدنا جميعًا.

بلسمٌ شافٍ كلماتُه لكثيرٍ من جروحها العميقة، منحها وجودُه من الطمأنينة ما افتقدته، ابتسمت أوّل ابتسامة لها منذ سنوات، تعلم أن اهتمامه ليس الاهتمام الذي تمنّته، هو شفقة وعطف يملآن عينيه، نظرت له نظرة تقول "أنا مَن أحبتك"

مزّقته نظرتها، وأغرقته في بئر الحيرة الذي لم يسقط فيه من قبل، جعلته يفكّر.. مَن يستحقّ الحبّ؛ مَن يحبّ ويتمزّق لأجل حبّه، أم مَن يتركنا للأحزان؟ لكن هل هذا التمزّق والتخلّي حقيقيّان؟

في عالم الحبّ يجب ألّا نطلق الاتّهامات والكلمات هباءً..

في عالم الحبّ يجب أن يكون كلّ شيء بالقلب الذي هو موضع الفقه..

ألم يقلِ اللهُ- عزّ وجلّ- في كتابه العزيز: "أم لهم قلوب يفقهون بها.."

البئر يقذف هشام في جنباته، يأخذه هنا وهناك، الحيرة التي تملأ عينيه وصوته لم تخفَ على محسنة التي لا تترك شاردةً على وجهه إلّا وتستشعرها بكيانها، تتمنّى أن تعوّض خطأها في حقّه وحقّ الجميع:

- ما يشغل بالك يا هشام؟

- بما أنّك يا محسنة عبقرية فذّة لم تأخذ حظّها، أجيبي... مَن أحقّ بالحبّ؛ مَن باع واشترى حياته على حساب الآخر، أمّن أوقف حياته على مَن أحبّ؟

ابتسمت محسنة لإطرائه، لم تكنْ محسنة تلك المرأة التي لن تفهم ما يقصده، لقد عاركت الحياةَ من قبله، ودخلت بئرَ الحيرة ومتاهاته الذي تراه يسبحُ فيه الآن:

- اسمعْ مِن أمّك، المرأة التي لم تكمل تعليمها ولكنّها تعلّمت في مدرسة الحياة الكثير. لا يوجد أحدٌ على وجه تلك الأرض لم يسقط يومًا في بئرٍ عاتية عميقة تُدعى بئر الحيرة، لا خروج منها إلّا بشيء واحد "الاختيار الصحيح"، وإلّا ......

ثمّ صمتت وهي تتذكّر لحظات سقوطها في البئر عندما تمرّدت على إبراهيم، وفضّلت عليه أبا هشام الذي لم تذقْ معه لحظة هناءٍ واحدة.

- سنبقى في الحيرة طوالَ العمر يا محسنة؟

- لا يا ابني.. سننتقل إلى بئرٍ أعمق ليس به منفذٌ أو هواء، لم يخرجْ منه أحدٌ إلى الآن، إنها بئرٌ متوحّشة، كلّ مَن دخله كان قتيله.

- أيّ بئر؟!!

- بئر الندم يا هشام.. بئر الندم.

نظرَ لها نظرة متأمّلة كأنه لم يكن بحاجةٍ إلّا لتلك الكلمات التي أهدتهم له أمّه على طبقٍ ذهبي. لمح في عينيها الندمَ على ما فعلته، احتضنها وهو يربتُ على كتفها ويداعبها كعادته:

- لكنّك يا محسنة وجدتِ في بئر الندم هشام حبيبك الذي لن يتركك هناك، سيفتح البئر مهْما كان الوصول لسطحه صعبًا، وستكونين أوّلَ الناجين يا حبيبة هشام.

ثمّ قَبّل وجهها وجبينها، ومسح دموعها بيديه وهو يبتسم لها بعينيه السوداء الضيّقة.

***

لن تجد يومًا أوسعَ مِن قلب محبّ، ولا أغنى من يدِ كريم، ولا أبهى من حُلّة الفضيلة، ولا أهدأ مِن روحٍ مستسلمة لقضاء ربّها، ولا أجمل مِن نفس فقيرةٍ راضية.

عمّ سعد لا يعمل إلّا ليلًا، يأتي في السابعة ويذهب مع بداية النهار، منذ السادسة وهما في انتظاره، ينهشهما وحشُ القلق.

ظهر رجلٌ كبير السنّ يبدو على وجهه الطيبة وخبرة العمر، اقترب منه هشام، وسأله إن كان هو عمّ سعد؟ هزّ الرجل رأسه بالموافقة في ريبٍ من الأمر!

شعر هشام بخوفه؛ فطمأنَه:

- نسأل عن حادثةٍ قديمة قليلًا يا عمّ سعد، كلّ مَن قابلناه قال إنك لا تنس شيئًا.

أعجب الرجل بذلك الإطراء، وشعر باللّهفة التي تبدو في عينيه وعيني "أسرار":

- نعم أنا لا أنسى.

- نسأل عن ولدٍ تاه هنا في المول منذ سنتين، وبإذن الله ستتذكر.

نظر إليه نظرةَ دهشة وهو يجيب:

- كلّ يوم يتوه هنا أطفال ويجدهم أهلوهم.. مَن سأتذكّر؟

وضع هشام مبلغًا من المال في يده وهو يقول:

- حاول أن تتذكّر يا عمّ سعد، لم نجد الولد حتى الآن، ضاع ولم نجده.

رجع عمّ سعد برأسه إلى الخلف، وكأنه تذكّر شيئًا:

- تقول منذ سنتين، هل كان عمر الولد حوالي أربع سنين؟

تعلّقت "أسرار" بحبل الأمل وهبّت وهي تمشي عليه:

- هذه صورته يا عمّ سعد، حاول أن تساعدنا.. أرجوك.

نظر عمّ سعد للصورة متفحّصًا، غاب في الصورة وقتًا خافت فيه "أسرار" أن تكون الإجابة على غير ما أرادت:

- تذكّرت الآن، هذا الولد كان اسمه أحمد، تذكّرته..

قالها وهو يضرب رأسه بكفّه، ثمّ قال:

- ألم أقل لك إنني لا أنسى شيئًا يمرّ هنا. (ثمّ أشار إلى رأسه..)

- الحمد لله يا عمّ سعد، قل لي ما حدث بالتفصيل.

- هذا الطفل المسكين صرخ صرخةً هزّت المول، جعلتني أجري في اتجاهه بينما كانت امراة تجري في عكس الاتجاه، وجدته يبكي ويقول: "لا تتركيني يا طنط"، حاولت تهدئته وعندما فهمت ما الأمر كانت تلك المرأة قد تبخّرت من المكان، سألته أين أبوك؟ فعرفت أنه لم يكن معه أحد إلّا التي تركته.. لكنّي لا أذكر اسمها.

ثمّ توقّف كأنه استعاد حزنَ ذلك الموقف ليكمل:

- تمزّق قلبي عليه يا ولداه ودموعُه لا تسكت، فهمت منه أنه ليس من الإسكندرية، ولم يكن يعلم عنوانًا أوصله إليه، وقفت معه كثيرًا على أمل أن يأتي مَن يأخذه ولكن لم يأت أحد.

- هل تركته وانصرفت. (قالها هشام على عجل من فرط خوفه)

- لا، بقيت معه حتى جاء رجلٌ طيب، أحضر له عصير ليهدئه، لكنّ الولد ظلّ يبكي ويطلب أباه، تركت الولد مع الرجل وكنت من حين إلى آخر أمرّ عليهم، كان رجلًا كريمًا أحضر للولد ولي عشاءً.. لم يتركه لحظة حتى إغلاق المول أبوابه، ثمّ أخذه ليسلّمه للشرطة.

أسرع هشام ليلتقط طرفَ الخيط قبل أن يفرّ من يده:

- الرجل لم يسلم أحمد للقسم يا عمّ سعد، نحن نبحث عنه من وقتها بلا جدوى، حاول أن تتذكّر أي شيء عن ذلك الرجل.

- لكن يا أستاذ هل تذكّرتم الطفل فجأة، أين كنتم تلك السنوات؟ حكاية هذا الولد كانت تدلّ على أنّ أهله هُم مَن تركوه بإرادتهم.

- لا يا عمّ سعد، المرأة التي تركته هنا كان بيننا وبينها خلافات، وأرادت الانتقام منّا في الولد، ثمّ بعد ما فعلته أصيبت في حادثةٍ ولم تستردّ وعيها إلّا من يومين فقط، أرجوك حاول أنْ تتذكّر أي شيء.. أي شيء.

توسّلت "أسرار" بالدموع لعمّ سعد أن يتذكّر، رقّ قلبه لها وظهر عليه التأثر ظنًّا منْه أنها والدته.

- نعم تذكّرت، كان اسمه صالح لأنني بعدما فعله قلت له إنه اسمٌ على مسمّى، ولم يكن من الإسكندرية، كان من المعادى. (ثمّ أخذ يفرك شعره برأسه، وسادت لحظة صمتٍ أشار فيها هشام لأسرار بالسكوت حتى يعطي عمّ سعد الفرصة للتركيز)

كان عمّ سعد يخرج أفكاره وكأنّها تخرج كالقطرات من أنبوب ضيّق.

له كلّ الحقّ سنتان ليس بالوقت القليل، ثمّ هبّ فجأة وقال:

- نعم، وكان سيسافر في صباح اليوم الذي يليه إلى بلاد الخارج.

تبادل هشام وأسرار النظراتِ في ذهول وكان تفكيرهما واحدًا.. هل يعقل أن يكون أحمد الآن خارج مصر.. لذلك لم يستطيعوا العثور عليه؟

سأله هشام والاستغرابُ يملأ صوته يخشى ألّا يعرف الإجابة، وقتها سيضيع كلّ شيء.. كلّ شيء.

- عمّ سعد، لو تحاول أن تتذكّر لو كان قال لك إلى أين سيسافر؛ سيكون لك عندي مبلغٌ ليس بالقليل.

نظر له نظرةً طيبة وهيبة عظمة نفْسِ الفقراء، وهو يخرج ما أعطاه له سابقًا من جيبه ويضعه في يده:

- أنا فقير حقًّا لكنني أب، أخذت منك المال كنت أظنّه نظير خدمة، سأتذكّر دون أي مقابل، كلّ ما يهمّني عودة ذلك الطفل إلى أمّه المسكينة تلك. ثمّ تنهّد وهو يكمل:

- هل تدري أنني يوميًّا أتذكّره، وأتساءل هل عثروا على أهله أم لا؟ إنه الولد الوحيد إلى الآن الذي تاه هنا ولم أعرف ماذا حدث له.. سيرتاح ضميري إن قلت لك كلّ شيء.

تأثّر هشام بكلمات عم سعد وربت على كتفه وهو يبتسم له ابتسامة تقديرٍ لشخصه ولرجولته.

مَن ظنّ يومًا أنّ الفقر فقرُ مال؛ فليأتِ ليرى هذا الرجل الأصيل، ليعلم أنّ الفقر ما هو إلّا فقر النفس.. كم هي شامخة نفوسُ الكثير من الفقراء! وكم هي دنيئة نفوس الكثيرِ من الأغنياء!

- كلّ ما أذكره أنني عندما سألته إلى أين السفر، قال لي كلمة لم أفهمها. وعندما شعر أنني لم أفهم ضحك، وقال لي بلاد الإنجليز يا عمّ سعد، هذا كلّ ما أذكره الآن.

وقعت الصدمةُ على رأس "أسرار" وهشام كالجبل الذي خرّ فجأة دون إنذار، انصرفا من المول بعد أن ترك هشام رقمَه لعمّ سعد علّه يتذكّر أي شيء.. كان كلٌّ منهما تشدّه دوّامة أفكار لا تنتهي.

جلسا بعيدًا على شاطئ البحر كما تمنّى يومًا لتطفأ له شوقه، وها هُما يجلسان لكنْ ليطفأ لها النار التي اشتعلت في حياتها.

- ما العمل يا هشام؟!

- تعقّدت الأمور أكثر ممّا تخيّلت، هذا الرجل إمّا أنه سلّم أحمد في القاهرة فضاع بين دور الأيتام، أو أنه....

قاطعته..

- أنت تفكّر فيما أفكر فيه.. أو أنه سافر معه إلى إنجلترا. يمكن أن نسأل في المطار عن رجلٍ اسمه صالح سافر في صباح ذلك اليوم إلى إنجلترا.

ابتسم لها وهو يهزّ رأسه على براءة تلك الفتاة التي لم تعارك الحياة، أين هي بتلك النظرة البريئة والروح الطاهرة من خبثٍ ولؤم الكثيرين.

- "أسرار"، لا يحقّ لأحد أن يسأل عن معلومات كالتي تقولينها إلّا الجهات التي يحقّ لها هذا؛ كالنيابة والمباحث..

- ما معنى هذا؟

- يجب أن تكون هناك قضية ومتّهم وتحقيق، ومُنى مستحيل في حالتها أنْ تتحمّل كلّ هذا، سيضيع أي تحسّن بدأت فيه هباء.

- فعلًا أنا أشعر بتحسّنها، بدأت في الخروج من عزلتها والجلوس والتحدّث معنا، أبي سعيد جدًّا، ويقول إنّ الفضل يرجع لله، ثمّ لك.

- الأمر يحتاج لتفكير، نحن الآن أمام حائطٍ مسدود مرّة أخرى. كيف سنثير قضية ونتّهم "منى"؟ سيضيع مستقبلها وعقلُها في وقت واحد، سُمعة البيت كلّه ستُضر.

حملت تنهيدتها رائحةَ عبءٍ ثقيل يقبع على صدرها المتعب، طلبت من هشام الرحيل، تركها أمام البيت وانصرف، لم تصعد سلالم البيت، انتظرت حتى اختفى ثمّ غيّرت وجْهتها إلى حيث يجلس.

حاله أصبح يدمي قلب الغرباء، فما بال قلبها الذي أحبّه، لو أنّ عقارب الساعة تعود إلى الوراء ما نظرت في عينيه، ما انتظرته تلك الليلة في الشرفة، لم يجنِ مِن حبّها إلّا الشقاء، ما له هو والحقد الدفين ليدفع ثمنه فلذةُ كبده؟!!

انتظرت ذلك اليوم أطول ما استطاعت، انصرفت إلى حيث هداها قلبها.. لم تتردّد لحظة، فكلّ ما تتمنّاه الآن أن يحتضن ياسين ولدَه حتى لو أصبحت هي الضحية لهذا اللقاء.

***

الشكّ فأسٌ كبير تسقط على القلب فتحطمه، الشكّ هو الوحيد القادر على هدْم قلاع الحبّ دون إحداث أيّ ضجّة.

هدأت روحُ عليّة، بدأت "منى" في الإقدام على الحياة، بدأت أحاديثها تخلو من الحقد والغلّ على أيّ أحد- وبالذات أسرار- يظهر على وجهها

مسحةٌ من الهدوء الممزوج بالحزن اللذين لا يعلمان سرّه، بدأت في دخول المطبخ ومساعدة "علية" والتقرّب منها.

لكنّ جرحًا عميقًا يسكن قلبَ إبراهيم على أسرار، تهدّمت حياتها وأصابتها بشرخٍ عميق ، تحمل على كتفها الصغير ذنبًا تنوء به الجبال، يعرف أنها تؤنّب ضميرها كلّ دقيقة، وأنّ ظِلّ أحمد لا يتركها، لم تعدِ المسألة تعلق بشخص أو بحياة، روحها أسيرة ذنب لم تشارك به.

إبراهيم يشارك إسماعيل كلّ أفكاره وأحزانه، ومَن له في تلك الحياة إلّا صديقه. وضعت "منى" لهما الشاي في الشرفة وهو ينظر إلى الطريق بقلق:

- "منى" أصبحت في حالٍ أفضل.

- الحمد لله، الفضل لله ثمّ لهشام، إنه رجل يقف خلف البنتين بقوّة، لا أعرف ماذا كنّا سنفعل بدونه!

- ربّك لا يخذل الطيّبين، أرسل لك هشام وجَنَّده لك كما كنتَ لغيرك، لله جنود يا إبراهيم لا يعلمها إلّا هو.

- ونِعْم بالله.

لم يكن إبراهيم يعلم وهو يجلس في شرفة بيته يسامر صديقه أنّ "أسرار" قرّرت أن تلقي بنفسها في النار، لم يتوقّع هشام تلك المكالمة التي جاءت كبرقٍ

شقّ السماء بعد أمطار الحقيقة التي سقطت على رأسهما، ليتحوّل صوت "أسرار" كالرّعد في أذنه وهي تخبره:

- أنا في قسم الشرطة، اعترفت بأنني تركت أحمد ياسين في المول، أخبر أبي وعمّ إسماعيل.

ما هذا الزلزال الذي شقّ الأرض من تحته، انقلب بيت خالته في لحظة، هرول الجميع إلى حيث تقف "أسرار" أسيرة أغلالها، وبجانبها عسكري الحراسة.

وجّه لها اللومَ بصوته وملامح وجهه..

- لم يكن هناك حلّ إلّا هذا يا هشام، صدّقني، ألقيت نفسي بالنار وأنا على يقين أنك ستنقذني، يجب أن يطلب المحامي شهادة عمّ سعد ليبحثوا في سجّلات المطار، وإلّا ضاعت تضحيتي دون أي فائدة.

اقترب منهما إبراهيم وهو يضرب كفًّا بكفّ، متى سينتهي هذا العناء، هل هو حبل أطول من أن ينتهي!

- لم أعد أفهم أي شيء، لو حلفتِ لي بالله لن أصدق، لن أصدق حتى لو رأيتك تفعلين ذلك بعيني، أنت ابنتي التي ربّيتها، أعرف خلجات نفسك قبل أن تعرفينها أنت، هناك أمرٌ ويجب أن أعرفه.

تدخّل إسماعيل وهو يضع يدَه على كتف "أسرار" وينظر لها بجديّة وعبوس:

- كيف تتّهمين نفسك تهمةً كهذه؟ ولمصلحة مَن؟ ألا تفهمين معنى ما تفعلين في حقّك وحقّ الجميع!، كيف تصنعين من نفسك متّهمةً وأنتِ المجني عليكِ؟ يجب أن نفهم يا "أسرار".

اتّخذت الصمت درعًا لعينيها حتى لا تنطلق دموعها وضعفها، فيعرف أبوها وعمّ إسماعيل ما لا تريده أن يعرفاه، لن تجد إجابة لأي سؤال، كلّ ما تريد قوله يظهر في عينيها؛ خوف وألم وحيرة، لكن ما عساها أن تفعل؟

انتحى إسماعيل بإبراهيم ليتشاوروا في الأمر الذي حيّر عقليهما.. "أسرار" تربيتهما التي لن يخطئاها، في الأمر شيء.

انتهز هو تلك الفرصة ليسألها بوجهٍ متجهّم:

- حبًّا لياسين! تلقين نفسك في النار؟!

- لم يعدْ حبًّا، أصبح أكبر من ذلك، أحقاد لا دخل لهما بها، ودفعا الاثنان ثمنَها، مَن زرع الحقد؟ مَن أنبته؟ ما سببه؟ لا دخل له بكلّ هذا الهراء.. المُبكي في الأمر، مَن حصده؟

- لدرجة أنْ تضحّي بنفسك، هل تظنين أنك ستدخلين فندقًا سياحيًّا؟ ستدخلين الحبس، ألقيتِ نفسَك بالنار!

- أنا وأنت نعرف الآن أين يمكن أن يكون أحمد، وكل دقيقة نفرّط فيها نخسر معها ضمائرنا وراحة نفوسنا، لن يهمني أي شيء إلّا عودته حتى لو كان الثمن عمري بأكمله يا هشام.

- ألا تعرفين سبب ما فعلته "منى"؟

- لا أحد يعرف، كثيرًا ما سألتها أمي لكنّها لم تردّ يومًا، ولا أظنّه زواجي من ياسين.

- لا.. ليس زواجك، "منى" أوهمت نفسَها أنها تحبّني، عرفت بحبي لكِ؛ فبدأت الغيرة تنمو في قلبها، ثمّ تجمّعت الأحداث بداخلها لصنع قنبلة كان ضحيّتها الجميع، حتى هي..

- إذًا ما فعلته هو الصواب، ارتبطت عودتي الآن بعودة أحمد.. فهل سأعود؟

- ستعودين، أعدك بأغلى ما عندي، ستعودين.

ثمّ نظر في عينيها نظرةً أراد أن تصلها من سنين، لو أنها استجابت!

لم تستطعْ في ذلك الوقت أن تبادله تلك النظرة، لا تريد أن تشعر أنها تستنزف مشاعرَه في وقت ضيقها ووحدتها.

طار الخبر في الإسكندرية بأكملها، انتشرت صور "أسرار" في صفحات الحوادث لتصفها بأبشع الأوصاف وتقذفها باللّعان والسّباب في زوجة الأب

التي تخلّصت من ابن زوجها. وصفها البعضُ بالملعونة، والبعضُ بالطمع، والكثيرون بالقسوة والفظاعة وانعدام المشاعر والضمير.. شرَّحتها الألسنة وتقاذفتها الأفواه.

ليقف هو في ذهولٍ تامّ لا يصدّق ما يقرأ وما يسمع، أسرار! هي مَن ألقتْ بابنه ليلتقطه أحدهم، هل هذا معقول!؟ كان يجب أنْ يجمعهم لقاء استحال منذ سنوات.. لقد تحوّل إلى شخص آخر غير الذي أحبّته وتزوّجته، عيونه شاردة مصدومة، أنفاسه متقطعة من هُزال أطاح بجسده، عروقه تنتفض من وراء جلده كأنّها هي أيضًا تحتجّ على فقدان أحمد، أكتافه حناها عامان كأنّ كلّ عام منهما أصبح جبلًا ثقيلًا يحمله كتف، صوته يخرج كالقادم من قبرٍ عميق من طول ما دُفِن بداخل حنجرته، قسماته تحمل كلّ المعاني دفعةً واحدة، الاتهام والإنكار، اليأس والأمل، التصديق والتكذيب، بقية حنانٍ ونبتة قسوة، حتى الحبّ والكره كانا على وجهه مع كثيرٍ من الذهول..

- ممكن!! ممكن أن تكوني مَن فرّطت في ابني بإرادتها، ليس بإهمال أو تقصير.. ممكن؟!

- لماذا لا تصدّق؟

- أصدّق ماذا!! أنك ألقيت بلحم أحمد لينهشه المارّة.. ما الدافع؟

صمتَ طويلًا وهو يحرّك يديه في ذهول ليكمل:

- كنت أكثر مَن يعرف غلاوته عندي، على الأقلّ كنت تعرفين أنك لن تجني شيئًا من وراء هذا.. وأي شيء هذا.. مال! كنت على استعداد أنْ أفرش لك الأرض بالذهب.. امتلاك، منحتك عقدَ امتلاكي كاملًا، عرفتِ ما لم يعرفه أحد غيرك.. كنتِ موضعَ سرّي وجهري!!

التحفتْ بالصمت، تسمعُ ولا ترد، تركته يتكلّم ويُخرج كلّ ما في نفسه علّه يستريح..

- لن أنكر أنني عاتبتك بداخل نفسي على تقصير أو إهمال، لكن.. لم يدخل قلبي لحظة واحدة في كلّ الظلام الذي عشتُه أنّك.....

صمتَ قليلًا وضاقت عيناه، وتجعّد ما بينهما وهو ينظر لها نظرةً أطاحت بها:

- مَن تحمين؟ مَن خلف الستار؟

حبستْ دموعها طويلًا وهي أمامه متّهمة بضياع ابنه، لكنّها حاولت:

- لا أحمي أحدًا، لقد اعترفت، عذابُ ضميري لا يذيقني النوم.

- هل تعينَ ما تفعلين بي، أنت تفقديني آخر ثقةٍ في آخر إنسانٍ يمكن أن أثق به، إنْ كنت متّ يوم ضياع أحمد؛ فأنا أُدفن اليوم يا "أسرار"، كنتِ حبَّ عمري.. هل تعلمين معنى أنْ أُخذل فيكِ، قطعًا لا تعلمين..

- حبّ عمرك الذي ألقيت به إلى السعير، ورحلت دون أن تعلم ما أكلتِ النارُ منه!

مسح وجهَه بكفّه كأنه يتمنّى أن ينسى كلّ ما قيل:

- لم أطلقك كرهًا، ضياع أحمد بنى حاجزًا سميكًا بيننا، لم يكن ليجعل أيدينا تتماسك مرّة أخرى أبدًا، لم تعدِ الحياة لي، ولم تعد السعادة من حقي، توقّفت عقارب ساعتي عند زمان اختفائه.

- أرجو من الله أن تتحرك عقارب ساعتك مرّة أخرى، وتدقّ لحظة رجوع أحمد إلى حضنك.

- كنت أتمنّى الموت على أن أسمع اعترافك الذي أدعو الله ألّا يكون الحقيقة، عقلي يمتلأ بالشك، لكنّ تفاصيل اعترافك الدقيقةَ تنهش قلبي.

صمتَ طويلًا وهو يضع رأسَه المثقلة بين كفّيه، نظر لها طويلًا ثمّ قال:

- إن كان قلبي قد أصابه العمى، وكنتِ أنت مَن ألقى بابني؛ فلن أسامحكِ على سنوات عمره بعيدًا عني، لن أسامحك على كلّ لحظة ألمٍ شعر بها.. لن أسامحك.

تركها وانصرف وهو لا يعلم ما صنعَه بها، كلّ أمل بينهما يخبو ليصير نقطةً بعيدة المنال، الحبالُ التي غزلتها بقلبها تنقطع أمام عينيها بسكّين حادّ لا

تستطيع السيطرة على شفرتها التي تعبثُ هنا وهناك، تمنّت أن يعرف ياسين من نفسه ومِن عشرته بها كما عرف أبوها وعمّ إسماعيل وهشام، تمنّت ألّا يصدّق لكنه للأسف يشكّ.. والشكّ يعني أنه لم يعلم ما في قلبها تجاهه..

وفي مدينة الشكّ، لا تولد قصورُ الحبّ.

***

طعنةُ الذكريات تلك التي تشقّ القلب مرّة، لكنّها تترك جرحًا ينزف ما دام في الجسد حياة.

محمد صالح، الصبي المصري الصغير، تفوّق دراسيًّا ورياضيًّا ليصبح محطَّ تقدير مَن حوله، سارة لا تألوا جهدًا في رعايته، إنه نبتتها الصغيرة التي ترعاها لتكبر في أمانٍ بعيدًا عن الخطر الذي قدْ يحرمها منه. أيّ جنون قد يصيبها لو تخيّلت عدم وجوده بجانبها، تجلس أمام حمّام السباحة تشجّعه، وتهتف باسمه، ليس بفمها لكنْ بكلّ خلية في قلبها.

دائمًا هو الفائز الأوّل، لكنّها تعشق الهتاف "محمد صالح".. "محمد صالح"

احتضنته ووضعتْ على جبهته قبلةً وهي تمدّ له يدها بمِنشفته.. تداعب خصلاتِ شعره الناعم الأسود بيدها وهي تبتسم له في حنان، مَن يمكن أنْ يظنّ أنّ تلك المرأة ليست أمّه؟!!

- هل تحبّني يا محمد؟

- أكثر ممّا تحبّينني، أنت أمي حبيبتي.

داعبته بأناملها وهي تتنهّد تنهيدةً تعرف موطنها:

- وإنْ لم أكن أمّك سارة؟

اتّسعت ابتسامته وهو يردّ عليها:

- لأحببتك أيضًا، لكنتُ تركت مَن ستدعي أنها أمي وأسرعت ناحيتك لألقي برأسي في بقعتي المفضلة.. حضنك.

هل سيكون هذا رأيه إن علم الحقيقة يومًا؟ هل سيراها أمَّه حبيبته لو علم أنّها مَن أبعدته عن أهله؟ الأرق يخطف من عيني سارة النوم، لا تنام إلّا بالعقاقير المهدئة..

- لا أعلم لماذا تفعلين هذا بنفسك، هل وصلتِ إلى حدّ العقاقير المهدئة؟

- ألا تعرف لماذا؛ لأنّني لا أتخيّل أن تأتي لحظة يبتعد عني محمد فيها.. أحبه بكلّ ما أمتلك من طاقةٍ للحب، لو لم أدفن "محمد" بيدي هاتين لكنتُ شككت أن في الأمر سرًّا.

ربتَ صالح على كتفها، وصدرُه يحمل تنهيدة ثقيلة:

- أعرف يا سارة، أعرف جيدًا، أشعر بك، وأرى ما تفعلين، لكن..

تعلم ما سيقول مقدّمًا، تعلم أنه لم يمرّ عليه يوم إلّا والندم يعتصره، لا يستطيع النظرَ لأحمد طويلًا لأنه يذكّره بفعلتهما، وبأنهما مجرمان على حدّ قوله.

- أعرف جيدًا ما يدور في ذهنك، نحن لسنا بمجرمين، لقد ربّيناه على أحسن ما يكون، نمنحه كلّ شيء ملكنا.. المال، الاهتمام، الحب، الوقت، كلّ شيء، حتى سعادتنا أصبحت هو.. بدونه ستُمحى كلمةُ السعادة من قاموس حياتي.

- يبقى أننا حرمناه من أبيه الحقيقي، مهْما منحناه.. أبوه الذي كان يسأل عنه كلّ ثانية من عمره، والذي لا أعتقد أن ذاكرته مسحته.

استعادت القصة من أول كلمةٍ إلى آخرها.. نعم لقد كان يسأل عن أبيه بشغفِ محبّ.. ما زالت ذاكرته متشبّثة بصورة المرأة التي تركته، وباسم والده. تعلّقت هي بحجة أنّ أهله هُم مَن تركوه، لكنها تعلم جيدًا في قرارة نفسها أنها كانت الوخزةَ التي قتلت بها ضميرها فقط.

أفاق الاثنان من الشرود في تلك الذكرى على صوته، جرتْ بلهفة إليه، تعلم ما في الأمر، لكنها لا تستطيع محْوَه من خياله. ضمّت رأسه إلى صدرها وهو يتصبّب عرقًا، ويرتعش من الخوف:

- حلمتُ بنفس الحلم، لا يريد أن يترك نومي.

نظرتْ سارة لصالح وهي تسأله:

- المرأة التي تترك يدَك وترحل؟

- نعم، وأنا أصرخ بشدّة، وأقول لها "لا تتركيني يا طنط".

- اهدأ يا محمد.. نحن بجانبك ولن نتركك أبدًا، لا أعلم سرّ هذا الكابوس.. هل تخاف من شيء؟

- أنا لا أخاف من أي شيء وأنتِ بجانبي.

ثمّ ابتسم لها ابتسامةَ حبّ، ورمى نفسه بين ذراعيها لتشمله بحبّها وحنوّها الذي يشعر أنهما نعيمُ العالم.

***

يقول مصطفى السباعي

"زرِ السجنَ مرّة في العمر لتعرف فضلَ الله عليك في الحرية"

الأسر شديدٌ على نفسٍ عشقت الحرية، وانطلقت في شرفة أمام بحر الإسكندرية، استمعتْ إلى فيروز وهي تتنفّس رائحة الورد والياسمين التي زرعتهم وروتْهم بحبّها.

تلك الأسوار التي تفصلها عن العالم الخارجي تنال من روحها، الصحبة التي لم تكن تتخيّلها يومًا تأخذ من أعصابها.. لم تعدْ تحتمل ذلك الصدأ الذي

تعيش فيه بعدما كانت روحًا برّاقة ونفسًا شفّافة، لكنها الأيام التي تضعنا في الاختبار، فإمّا أن نقاوم وننجح وإمّا أنْ نفشل وننهار.

كم سُجنَ يوسف لتظهر براءته "بضع سنين" ضحّى بحريته حتى لا يسقط، دعا الله بالسجن حتى لا يعصيه، انتقلت من البئر إلى السجن لتتساءل مرّات ومرّات: "هل الحبّ ذنب لنُعاقب عليه بالجُبّ والسجن؟"

لم يكن يُهدِئ مِن روْعها، ويخفّف عنها في تلك الأيام إلّا زيارة هشام، كانت تمنحها القوةَ لاجتياز الاختبار. لتأتي زيارة أبيها وأمها فتمزّقها قِطعًا، لا تستطيع النظر في أعينهم، تخشى أن تجد فيهم آثار اتّهام أو يجدون هما آثارَ اعتراف، لم تعدْ تقوى على رفض الزيارة ولا تحملها.

وجود هشام أصبح هو الدفء الوحيد الذي يصل إلى جسدها المتجمّد في صندوق الخوف..

- طمّنيني على أحوالك يا أسرار، القلق يعتصرني وأنا لا أعرف كيف تقضين وقتَك هنا، ومع مَن؟

- لا يوجد بديل يا هشام، لن أخفي عليك.. لم أكن أتوقّع أنّ بالعالم مكانًا كهذا وسيداتٍ كهؤلاء، التعب يحلّ بجسدي وقلبي، أتظاهر بالثبات بينما أنا كالقشّة في الماء أو كالريشة في الهواء.

- هانت يا أسرار، المحامي وعدني أن يُخرجك الجلسة القادمة بكفالة.

انخرطتْ في بكاء عنيف وهي لا تستطيع السيطرة على بحر الدموع الذي يموج في عينيها..

- تماسكي، موقفك كان في منتهى الشجاعة والأخلاق، تماسكي يا...

كان يتمنّى أن يقول لها يا حبيبتي، لكن لم تكنْ في وضعٍ يسمح بتلك الكلمة.. وهو!! هل ستخرج من أعماقه كما كانت تخرج من قبل.

- أنا لا أبكي لأنني لا أستطيع التحمّل..

منحها نظرةً تَحمل حنان العالم وهو يسألها عن سبب بكائها..

- لم أكن أتخيّل أن ياسين سيشك أنني فرّطت في أحمد بإرادتي!!

أهذا سبب البكاء، ما زال وهْم الحبّ يسبح في أعماقها، لو تعلم أنها لم تحبّه يومًا، لو تعلم أنّ صائغ الحبّ شكّل لها سوارًا مزيّفًا على أنه سوار ذهبي، لكنْ سرعان ما تبدّل لونُ قشرته.

- اعذريه، الألم الذي عانى منه سنوات أفقده القدرة على الاتّزان، ألم الفراق صعبٌ يا أسرار.

- تتكلّم وكأنّك جرّبت ألم الفراق!

كانت نظرتُه المعاتبة هي مَن دفعها للندم على السؤال، تمنّت ألّا يجيب.. لم يعدْ في قلبها موضعٌ لجرح آخر، لقد فاض بها كلّ شيء.. ليته يعرف ذلك ولا يعاتبها، تعلم أنها أذاقته ألَمَ الفراق حين تزوّجت غيره، وأجبرته على الرحيل. لكنّه كان أرقى وأحنّ مِن أن يلومها يومًا..

كان يعصر روحَه ليحقّق شيئًا واحدًا، إن استطاع أنْ ينسى فلينسى، وإن لم يستطعْ فليرحل.. لكن أن يجعل من ألمه سوطًا يجلدها به.. ليست تلك الرجولة التي سقاها لنفسه حتى ارتوى.

طال الصمت وسكن السكونُ المكان، ألقت رأسها بين كتفيها باستسلام وهي تقول:

- سامحني.. لم أقصد يومًا أن أجرحك.

- أنتِ لم تذنبي في حقي لأسامحك، لم تعديني بشيء، لم تتخلّ عن وعدٍ، هل أعاتبك على شعورٍ أراه بداخلك كأنني أنظر من خلال لوح بلّوري، أم أحاسبك على حبّ ملأ قلبي أنا؟!

التجربة التي مررنا بها جميعاً ستجعل الكلّ يفتح دفاتر أوراقه وينظّمها من جديد.

***

مواجهة الحقيقة تبقى أفضلَ بكثير من مواجهة الهزيمة، فمهْما كان الوضع الذي تقف فيه؛ فعليك مواجهتها.

القلقُ يعتريها، هي الوحيدة التي على يقين مِن براءتها..

لماذا أقرّت على نفسها بما لم تقترف؟ هل علمت ما فعلتُه؟ هل تفديها الآن، وتحمل عنها وزرها؟

لا تستطيع الاقتراب منها والنظرَ في عينيها.. مشاعر الندم والخوف والقلق يجدلوا حول رقبتها ضفيرتهم لتختنق بهم. تتوه كثيرًا في عالمها الذي لا يغلق أبوابَه ليلَ نهار..

- ما الأمر يا "منى"؟ أين أنتِ؟ (سألها هشام)

كان سؤاله مجرى نهرِ دموعها التي حبستها كثيرًا، حنيّة سؤاله جعلتها تعترفُ له بكلّ شيء.. ومِن وراء قلبٍ مجهَد قالت:

- هشام، أنا مَن تركت أحمد في المول.. أنا مَن جنيت على هذا الطفل البريء الذي لم يكن له ذنبٌ إلّا أنه ابن ياسين زوج "أسرار".. أنا.. أنا يا هشام، أنا مَن يجب أن تكون خلف القضبان وليست هي، يجب أن أدفع ثمنَ الغيرة والحقد اللذين تغَلْغلا في قلبي فصارا ماردًا فعل بأحمد ما فعل. لو كنت أعرف أنه سيتقزّم بداخلي ويتحوّل إلى رماد؛ لما فعلتُ ما فعلت..

الفرق الوحيد بين البشر ليس في وجود المارد بداخلهم، لكنْ في الانتصار عليْه في اللحظة الفارقة بين توحشّه وتقزّمه.

كان يستمع إليها وهو لا يصدّق أن هذه هي مُنى، ما سرّ الحكمة التي جرتْ في عقلها قبل لسانها، والشجاعة التي استولت عليها لتعترف بخطئها وسببِه في نفس الوقت!! هل يجب أنْ نُذيق مَن حولنا المُرّ لنفيق؟!!

- أريحي بالك، نعلم أنك مَن وراء كلّ هذا، اعترفت "أسرار" لحمايتك، أعصابك لن تتحمّل ما تراه هي الآن، كان الله في عونها.

- لن أتحمّل! أنا مستعدّة أن أتحمّل نتيجة جُرمي أفضل من أنْ تُلقى "أسرار" في السجن بريئةً بذنبٍ لم تفعله!

- "منى"، إذا دخلت أنتِ بدلَ "أسرار" من السهل أنْ يثبتوا أنّك تمرّين بحالةٍ عصبية ونفسية، سيوجهونك توجيهًا لن تتحمليه، ثمّ إنّ "أسرار" يمكن أن تمتلك دافعًا للتخلّص من ابن زوجها؛ الغيرة أو الامتلاك أو الطمع. ما دافعُك أنت؟ مِن المفروض أنك لا تمتلكين أي دافع.

تقف أمامَه كطفلةٍ صغيرة أخطأت، وتخشى من عقاب أبيها:

- أنت تكرهني يا هشام.. صحيح؟

- لا تقولي هذا. كلمةُ الكره يا "منى" كلمةٌ كبيرة، ككلمة الحبّ تمامًا، كلّنا نخطئ.. صحيح أنّ خطأ يختلفُ عن آخر، لكنْ في النهاية كلّها أخطاء.

- لقد تحوّلت الدنيا بالغيرة في عيني إلى بقعةٍ سوداء، لم أكن أعلم أنني أحفر محرقةً كبيرة سنكتوي بنارها جميعًا.. حتى أنت يا هشام.

نظرت له نظرةً تمنّت أن يفهم ما تحمله من معنى.

- لو كنت تقصدين سببَ كرهك لها فهي ليست السبب.. أنا مَن أحببتها، "أسرار" لم تدفعني يومًا لحبّها.. أنا مَن هامَ بها حبًّا.

همَّت لتنطق ما يعرفه جيدًا فأسكتها بحركةٍ من يده تدعوها للصمت..

- لا أظنّ يا "منى" أنّ ما توهّمته كان حقًّا، الحبّ يهذّب النفس ويسمو بالأرواح، يخرج من القلب الوداعة والرّقة لا الوحش الكامن بداخلنا ليقتصّ لنا ممّن ليس لهم ذنب، وخصوصًا إن كان طفلًا بريئًا لم يتجاوز الأربع سنوات. راجعي حسابات قلبك، ستجدين أنك لم تحبّي يومًا إلّا نفسك فأردت أن تثأري لها مهْما كان الثمن، ومهْما كان قُبح الجرم وحجمُه، "أسرار" التي أحبّها من يوم أنْ رأتها عيني، تركتني وتزوّجت ياسين، هل كان هذا مبررًا للثأر لعمري وكرامتي!؟ أتعلمين.. لقد تمنّيت لها السعادة من كلّ قلبي؛ لأنني أحبّها حبًّا حقيقيًّا. حتى "أسرار" عندما علمتْ ما فعلتِه بأحمد، هل كان طلاق ياسين لها مبررًا أن تسكت وتتركه في ألمه لتأخذ بثأرها؟ هل غدرك بها جعلها تُلقيكِ في السجن أو تفضح أمرك، راجعي حساباتك، وحاولي أن تغلقي هذا الدفتر القديم الممزّق، ابدئي كتابة سطور جديدة في دفتر الحياة.

كانت تلك الكلمات هي الحبالَ القوية التي رفعته من بئر الحيرة قبل أنْ يسقط في بئر الندم كما أوصته أمّه، استراحت نفسه عندما أطفأ لُمَنى آخر شعلةٍ في ذلك الموقد المشتعل في صدرها لينتهي لهيبُ قلبها، وتبدأ مشوار شفائها من الماضي بأكمله.

لم تستطع "منى" الردّ بعدما قيل، هل هو على حقّ! ألم تكن تحبّه؟

هل صوّر خيالها هذا لغيرتها من "أسرار"؟

صدق عندما قال إنّ الحبّ يهذّب وينقّي، فأين النقاءُ فيما فعلته؟

استسلمت "منى" للحقيقة التي فرضها كلّ شيء، فابتسمت راضيةً وهي تقول:

- لم يكن الفارق بيني وبينها يومًا في السنّ والجَمال.. لقد كان في القلب والرّوح معًا.

***

"لولا أنّ القلوب توقن باجتماع ثانٍ لتفطّرت المرائر لفراق المحبّين"

أخرج سيفَ الجبروت الذي احتفظ به طيلة حياته في غمده، يطعن به تلك المسافة اللعينة التي تفصله عن ابنه، يحارب بكلّ ما يملك من قوّة ومال ونفوذ، فهل يمكن أن يعود أحمد إلى أحضانه؟ يلمس خدّيه مرّة أخرى

بشفتيه، يشتمّ رائحة أنفاسه، يطمئنّ عليه ويراه بخير قبل أن يترك تلك الحياة التي لم تعدْ تساوي في عينيه شيئًا بعده؟

وهل يعقل أن تكون الفتاة التي عشقها وتاهَ في عينيها من أوّل وهلةٍ هي مَن ألقت به! هل يمكن لتلك البراءة أنْ تكون خدعة!! هل يمكن أن ننخدع في البشر بتلك السهولة، نراهم ملائكة بشرية تشع نورًا داخليًّا من وراء حاجز نتخيّل أنه زجاجي شفّاف، ثمّ ما نلبث أنْ نكتشف أنه كان حاجزًا مُعتمًا، وإنّ النور الذي عمى أعيننا ما هو إلّا الجحيم الذي أضاء حولهم لنحترق به، لكن بعد فوات الأوان!!

كل الأسئلة التي لا يوجد لها إجابات تمرّ من أنبوب ضيّق مُختنق إلى رأسه التي أصبحت كبالونٍ اقترب من الانفجار.

نفس الأنبوب الذي لم تتخيّل "أسرار" الذي كان يملأ قلبها حبّ الحياة أنْ تختنق بداخله.. السجن والقضبان أشقى من الشقاء ذاته.

الوقت تحوّل إلى كهلٍ لا يرى ولا يسمع، يستندُ على عكّاز التباطؤ ليقطع مسافة قليلة في سنوات، تستعصي الستون ثانية أن تمرّ لتتحوّل إلى دقيقة، تعاندها الستّون دقيقة لتتحوّل إلى ساعة، أمّا الأربع وعشرون ساعة فقد صاروا عمرًا بأكمله.

لم تعدْ تخشى الموت أو القبر كما كانت في الماضي عندما تسمع أنّ أحدهم دُفن، ففي القبر ستكون وحيدة بين يديِ الله يؤنسها قرآنُها وصلاتها وعملها

الصالح، أمّا هنا فقد ذاقت ما هو أفظع من الدّفن في تلك الحجرة الضيّقة مع أشباه أحياء تخافهم ليلَ نهار، كلّ ما تتمنّاه الآن أنْ تعود إلى حجرتها تطمئنها عينا أمّها الطيبة وحنان أبيها، وصداقة ورجولة هشام..

هشام الفارس الذي ألقته من على حصانِ خياله كسيرًا جريحًا، لكنّه بالرغم من كلّ شيء تحاملَ على جرحه، وعاد ليشفي جراحَها من طعنات غدر وخذلانِ البشر، والأيام. فهل ستمنحها الحياة الفرصةَ لتشفى آلامه وجروحه التي سبّبتها؟

استدعى وكيلُ النيابة عمّ سعد للشهادة بناءً على طلب محامي "أسرار" ليتعرّف عليها.. أقرّ عمّ سعد بكلّ شيء كما قاله لأسرار وهشام، ولِمَ الخوف وهو لم يجنِ شيئًا.. كلّ ما يهمه أن يعثروا على الطفل الذي مزّق قلبه بصرخته وحيرته وبكائه.

سأله وكيلُ النيابة إن كان يمكنه التعرّف على المرأة التي تركت أحمد ياسين وحيدًا، وغادرت؟

أقرّ عمّ سعد بأنه سيعرفها قطعًا؛ لأنها جرتْ من نفس الاتجاه الذي جاء منه وهو يهرول ناحية الصرخة، عرض طابورٌ من نساء في مثل عمرها وكانت هي بينهم:

- مَن فيهم يا عمّ سعد التي تركت أحمد؟

تفحّص الوجوه مرّة أخرى، ثمّ توقّف قليلًا عندها:

- ولا واحدة يا باشا.. ليست بينهم.

- متأكّد يا عمّ سعد؟ (لماذا توقّف قليلًا أمام هذه؟ ثمّ أشار لأسرار)

- نعم يا باشا متأكّد، يمكنني أن أخرجها من وسط ألف.. لكنّ هذه الفتاة جاءت إلى المول هي ورجلٌ معها، وكانوا أول مَن سألوني عن الطفل، ورويت لهم كلّ شيء.

وجّه وكيل النيابة نظرةً إليها متعجبًا، سألها إن كانت ذهبت إلى المول وقابلت عمّ سعد؟ وكيف عرفت أنّ أحمد تاه في ذلك المول بالتحديد؟ ولماذا اعترفتْ على نفسها إنْ لم تكن هي مَن تركت أحمد كما أقرّت؟

بدأت في سرد ما اتّفقت عليه هي وهشام:

- لم يكن أحد يعرف أن أحمد ترك في ذلك المول، وإلّا لكنّا ذهبنا هناك من سنوات، لكنْ عند عودة ابن خالتي الدكتور هشام من الكويت اقترح عليّ أن نبحث في كلّ مولات الإسكندرية، فكر أنّ مَن اختطفه قد استغلّه في أحد المولات في الشحاتة مثلًا، بعد بحث طويل جمعتنا الصدفة بعمّ سعد وتعرّف على صورة أحمد، لكن كان يجب أنْ تتحرك قضية لتستفسر النيابة عن قوائم السفر، وتعرف كلّ شيء عن صالح الذي اختفى وأحمد معه، فاعترفت على

نفسي لأحرّك تلك القضية، ذنبُ ضياعه منّي يخنقني ويميتني كلّ يوم ألفَ مرّة.

لم يكن من الصعب على المحامي بعد شهادة عمّ سعد طلبُ خروجها من الحجز، ولو بكفالة حتى نهاية التحرّيات.

أمرَ وكيلُ النيابة- الذي تعاطف معها- بخروجها بكفالة على ذمة التحقيق، كما أمر بالرجوع إلى سجلّات السفر إلى الخارج في ذلك اليوم إلى إنجلترا باسم صالح.

خرجت "أسرار" من محبسها الذي دام شهورًا طويلة، تشعر أنّها كالميت الذي عاد من رحلةٍ في جهنم، ذاقت لهيبَ النار التي لن تسمح أن تلمس جسدَها مرّة أخرى، تلك المحنة لن تتركها تمرّ هباءً، تريد الآن أنْ تكون رحلتها الكبرى إلى الجنة.

فراشته تحرّرت من شرنقة أحكمت قبضتها عليها لتولد أقوى وأنقى، ابتسم لها وهو يداعبها:

- الفراشة الجميلة خرجتْ من شرنقتها، لا أريد أنْ أرى إلّا ألوانك الزاهية، امسحي شبح الاكتئاب، لا حزن بعد الآن خصوصًا بعد الملوخية وورق العنب اللذيْن صنعتهما "علية" ومحسنة على شرفِ خروجك.

دمعت عيناها وهو يفسح لها الطريق للمرور أمامه، كأنه يفتح لها طريقًا أخطأته.. لكن ها هي تعود.

- هل يمكن أن يأتي اليوم الذي يعود فيه أحمد إلى حضن أبيه، وأعود أنا إلى "أسرار" القديمة؟ هل يمكن أنْ أضحك بسعادةٍ مرّة أخرى ويلمس قلبي نورَ الحياة؟

- المحن ليست نهاية الحياة، بل قد تكون بدايتها الحقيقية.

تنهّدت بعمق لتمتلئ رئتاها بهواءٍ نقي.. ليس كالهواء الفاسد الذي ملأهما الأيام السابقة.

- تظنّ!!

- واثق.

- وسبب الثقة؟

- النقاء.

نظرت إليه بعينيها اللتيْن ملكتاه عمرَه بأكمله، وبدأت دموعها في التساقط:

- وما حدث.. ذنبُ مَن؟

- ليس ذنبًا.. إنه مغفرة.

- مغفرة! الله..

أراحت تلك الكلمة الجميلة قلبَها وروحها، فابتسمت أولَ ابتسامة لها منذ سنواتٍ من أعماقها، وتنهّدت وهي تلقي أحْمالها على عتبة هدوئه واتّزانه والأمان الشديد الذي تشعر به في ظلّه.. إنّه الشجرة الوحيدة التي كانت- ومازالت- خضراء في أرضٍ تصحّرت حولها فجأة، ولم تنلْ منها إلّا حريق الألم ولدغة أقرب الناس إليها.

استقبلوها بالدموع التي لم تسلم منها عينا أبيها لأوّل مرّة في حياته، ارتمت "أسرار" في حضنه، مسحت دموعَه بكفّيها الرقيقتين، وهي تطلب منه عدم البكاء الذي جرح قلبَها..

- لا أستطيع أن أحبس دموعي يا حبيبتي.. وحشتني أنفاسك التي خلا منها البيت.. صوتك الذي لم يكنْ يملأ أذني بعد كلام الله إلّا هو.. أشعر أنني كالجبل الذي خرّ.

ربت إسماعيل على كتفه، وكلماته الأخيرة تبعث الدموع في عينيه، علا بكاؤها وهي تنظر إليه وترجوه ألّا يقول هذا.

حوّل إبراهيم نظره إلى هشام الذي كان يقف وسطهم سعيدًا باجتماعهم:

- الله لا يحرمني منّك يا هشام.. لا أعرف ماذا كنت سأفعل بدونك! أنتَ ابني الذي تمنّيت أنْ أرزَق به، ولكنّ الله عوّضني بك.

أنهى هشام ذلك اللقاء الصعب بتلك الابتسامة الذي زرعها على وجه الجميع، حتى "منى" التي استراحت لعودة أختها، والتي لم تكن تتخيّل في الماضي أنها ستشتاق إليها يومًا..

- الأكل.. المحشي والملوخية.. "أسرار" ستقع من طولها جوعًا.

التفّ الجميع، ولأوّل مرّة، حول الطعام، الكلّ يتمنّى ألّا يحرمهم الله من لّمتهم التي تشدّ عودهم.

فالفُرقة والنزاعُ مدفنُ الحياة.

كان الحمّام الدافئ والاستلقاءُ في سريرها الذي غابت عنه كثيرًا بعد هذا الحبس؛ هما الجنة بعينها. هذا السرير الذي شاركها أحلامَها وأيّام حبّها الأول، ثمّ أحزانَها ودموعها..

ارتمتْ عليه، ومِن فرْط تعبها غابت في نعاسٍ عميق.

***

الحبّ الحقيقي ذلك الشبح الذي نطارده ويطاردنا، لم نلتقِ به، لكنّنا نسمع أنّه موجود، ما زال قلبي يحدّثني أنّه سيأتي يومًا ليتلبسني، وحتى يأتي ذلك اليوم فأنا بخير.

يجلس بمفرده في شرفةِ بيته يفكّر في كلّ ما حدث، يصل كلّ الحبال ببعضها، أنهى أمره في قضية "منى"..

ليبقى الحبّ الطاغي الذي ملك روحَه وقلبه ونفسه..

لم ينتهِ بعدُ مِن أهمّ حيرة في حياته، حبّه لأسرار..

الأيّام الطويلة التي تحمل فيها حرمانَه وهي ملكُ رجلٍ غيره..

الغيرةُ التي مزّقته، واللوعة التي أحرقت قلبَه، والحرمان الذي خطف روحَه وأسَرَها في قفص الشوق..

هل يمكن أن يعود أحمد إلى أحضان أبيه، وبعودته يفتح ياسين حضنَه مرّة أخرى لها؟ وهل ستستجيب؟

عقلُه يملي عليه أنّ تلك العودة مستحيلة، لكنّ قلبه يعانده بأنها مُمكنة، وبين المستحيل والممكن يكمنُ شقاؤه أو سعادته. لكنْ لو صدق عقله فهل سيعود هو نفسُه كما كان، هل ستشفي الأيام قلبَه؟ لماذا يظنّ أنّ "أسرار" ستعود إليه، يمكنها أن تبتعد بقلبها عن الجميع، لا يستشعر في عيونها حنينًا أو شوقًا، كلّ ما يلحظه امتنانٌ واتّكاء في ضعف.

طوى أفكاره بجُملةٍ واحدة حدّث بها نفسَه: "عدْ يا أحمد، وأحضر معك المرآة التي ستُرينا خبايا نفوسنا"

وبينما هو غارقٌ في تفكيرٍ يشعر أنه لا نجاةَ منه، كانت "أسرار" غارقة في نوم عميق لم يسكن عينيها منذ فترة طويلة.. لم ترَ فيه جبًّا أو سجنًا، لم ترَ ظلامًا أو تسمع آهاتٍ.. رأتْ بحرًا واسعًا تقف على شطّه، يسبح أحمد في اتجاهها كالنور يحملها ويرتفع بها، يلمس وجهها دفء الشمس ونسيم البحر، ارتفع أكثرَ حتى لامست يدُها السحاب فاغتسل قلبُها..

- "أسرار".. "أسرار"، ياسين بالخارج، يريد لقاءك.

انتبهت على يدِ أبيها تهزّها بلطف، أفاقت من حلمٍ تمنّت أنْ تحيا فيه:

- ياسين! (قالتها بتعجب)

- نعم، في الشرفة، لم أصدّق عيني وأنا أفتح الباب لأجده أمامي.

- ماذا تظنه يريد؟

- حاله لا يخفى على أحد، المسي على قلبه بحنان، هو يتلمّس الآن أي كلمة تمنحه الأمل.

في تلك الشرفة التي نقشت رسالةَ الحبّ الأولى، وأيّام صفائهما على جدرانها. جلست أمامه لتشهدَ على بداية نقش صفحةٍ أخرى.. صوتُه يرتعش أكثرَ من يديه، قلبه زائغٌ أكثرَ من عينيه وهو يقول:

- أمرت النيابة بمراجعة كشوف السفر صباح يوم اختفاء أحمد، هل يمكن أن يعود؟!

- أشعر أنّ عودته باتت قريبة، أشعر بأنفاسه تقترب.

- وهل سيعود كما رحل، أحمد بن ياسين، أم أنّ السنين أخذت منه وأعطته، سيعود وقد اقترب عمرُه من السابعة، اكتمل وعيُه بعيدًا عنّي يا "أسرار".

ثمّ فاجأها وهي في صمتها تفكّر فيما يقول:

- لست أنتِ مَن تركت أحمد لكنّك تعرفين، تعرفين مَن حكمتْ عليّ محكمة قسوتها بأصعب حكمٍ على وجه الأرض"الإعدام على قيد الحياة".

نظرت إلى الأرض ولم تجِب ليكمل:

- انتهي من أمر أحمد، ثمّ أبدأ فيمَن تركته. المهمّ أنها ليست أنتِ.

لم يدّخر ياسين جهدًا ولا مالًا ولا واسطة لتتحرّك المياه مع تعاطفٍ شديد من ضابط المباحث كامل معه، يعلم قصته التي انتشرت في أرجاء الإسكندرية، قرّر ألّا يترك أيّ أثر يمكن أنْ يقتفيه ليحلّ ذلك اللغز، هو الآن في المطار لاستخراج قوائم السفر كلّها في ذلك اليوم.

"كامل عمران" يعمل مع أكفأ وكيل نيابة "رشدي ثابت" الذي إذا تولّى قضيةً لا يتركها إلّا بعد أن يأتي بعمقها.. لم يغلق قضية أو يحفظ قضية ضدّ مجهولٍ يومًا..

الحقيقة بين أيديهم، والسجلات أمام أنظارهم، ولن يتركوا بلدًا ولا توقيتًا إلّا وسيبحثا فيه، لم يخيّب ظنّهما.. أقوال عمّ سعد مطابقةٌ لكشوف السفر..

- صالح سباعي.. الرحلة إنجلترا، الثانية عشر صباحَ يوم الاختفاء.

قالها كامل وهو يضع أصبعه على الاسم، ويجري بنظره ليعرف بقية المعلومات التي سبقه إليها رشدي بعينه التي كانت تأكل الكشف:

- سافر هو وزوجته وابنه محمد خمس سنوات، هل تلاحظ رابطًا يا كامل، أريد أن أعرف كلّ شيء عنه وعن زوجته وابنه، في الأمر شيء أشمّه في الأوراق، الهمّة يا بطل، الأمر كبير وأنتَ لها، القضية باتت رأيًا عامًّا، الناس والإعلام ينتظر عودة الابن الضال.

قالها وهو يربتُ على كتفه بيده..

- سنفعلها، وسترى.

***

لا شيء يمكن أن يُخفي الحقيقة، قد تبهت، قد تضعف، قد يخفت ضوءها لكنْ لا شيء يستطيع أن يخمده، سيلمع يومًا ليشير إليها.

لم يعدْ تلك المرّة إلى الشارع، يقف أمام البحر في شرفة الفندق، الشمس تسقط في قلب البحر، وقلبه يسقط معها من فرط القلق والشوق، تحدّثه نفسُه

أنه سيجتمع بأحمد قريبًا، لا يتمنى الآن إلّا تلك اللحظة التي سيضمّه فيها، وعندها سيعرف مَن تلك الملعونة التي تركته هناك لقيطةً لِمَن يريد، التي عرفت كيف تصوّب سهم الموت الحي إلى قلبه.

حضنُ سارة كالبحر الواسع لكنّه لا يضم إلّا أحمد، أصبح روحها التي لو سحبَ منها سحبت معه الحياة، خلقت منه صبيًّا يتمتع بكلّ شيء، ويحبّه الجميع، إنه ابنها التي أهدته لها الأقدار، وهي تحافظ على هديتها حقّ المحافظة.

رنّ جرسُ بابها ليفتح صالح، وجدَ مَن يقف على عتبته يحمل أوراقًا..

- الأستاذ صالح؟

أشار له صالح بالموافقة، فأكمل:

- حبيبٌ مِن السفارة المصرية، حضرتك مطلوبٌ هناك حالًا وضروريًّا، أنا في انتظارك.

حاول الاستفسار عن السبب، لكنّ الرجل لم يكن ليعرف أكثر من أنّه مطلوبٌ هناك بأقصى سرعة مُمكنة.

لم يثرِ الأمرُ انزعاجها، إجراءات للتأشيرات والإقامات وتجديدها..

- لا تتأخّر يا صالح، تمرين محمّد بعد ساعتين من الآن.

أشار لها بيده، قبّل أحمد وانصرف.

جلس طويلًا في انتظار مقابلة أحد، أطلّ عليه رجلٌ بوجهٍ متجهّم وعيون يملؤها شيءٌ غامض لا يستطيع تفسيره، ليس هو المسئول عن التأشيرات، شيءٌ ما حرّك في قلبه خوفًا..

بنبرةٍ حادّة وجّه الرجل كلامه:

- أمامي تقريرٌ من النيابة بمصر أنّك اصطحبت طفلًا اسمه أحمد ياسين بزعم أنه ابنك محمد إلى هنا، سيتمّ ترحيلك أنتَ وزوجتك والطفل.

بُهت صالح من وقع الكلام، لقد نسي تلك الليلة تمامًا، السنوات التي مرّت جعلتها ذكرى باهتة، هل جاء الآن مَن يسأل ويتّهم؟ هل عادت الذكرى من قبْرها الذي دُفنت فيه لتشهد أنّها حيّة لم تمت؟

انتابَ الارتباك حركات صالح، ووجهه وصوته:

- ما معنى أن يكون ابني محمد هو هذا الأحمد ياسين؟!

امتعض الرجل وهو يردّ:

- أستاذ صالح، نحن لسنا جهة تحقيق، سترحّل إلى مصر بأمرٍ من النيابة وستواجه الاتّهامات هناك، لا أنصحك بفعل أي شيء، مندوب السفارة سيذهب معك إلى البيت، سلّمه جوازات السفر، وتذاكر الطيران حُجزت غدًا لكم أنتم الثلاثة.

حاول صالح أن يعرف أكثر:

- أين ما يثبتُ هذا الهراء، هل ترحّلون كلّ من يُقام عليه ادّعاء مخرّف؟

- لا طبعًا، ولو أنه ليس من شأني، لكنْ هذه شهادة وفاة ابنك محمد صالح منذ أكثر من أربع سنوات، فكيف خرجَ معك من المطار، جهّز نفسك وأسرتك للترحيل غدًا، السلطات المصرية ستكون في انتظارك في المطار، موقفك مُخزٍ وغيرُ مشرّف لكلّ مصري موجود بالخارج، قضيتك في مصر باتت رأيًا عامًّا، وستضرّ بسمعتنا كثيرًا.

لا يستطيع أن يقف على قدميه من فرط الصدمة والذهول، كافح كثيرًا ليقود سيارته بأيدٍ مرتعشة وأقدام غير ثابتة متجهًا إلى بيته، لم يلحظْ طريقًا ولم يشعرْ بمسافة، لم يرَ في زجاج السيارة إلّا أحداث الليلة التي وجد فيها أحمد، المشاهد تمر أمامه كأنها فيلم قديم أبيض وأسود لشريط ذكرى تخيّل أنها باتت في قبر النسيان، ليأتي الآن مَن يخبره أنّها لم تمت، وأنها خرجت من قبرها تحاسبه وتقتصّ منه. أنفاسه متقطعة لا تغذّي رئتيه بأيّ هواء، ووجهه انسحبتْ منه الدماء معلنة عن قرب توقّف دورته الدموية، فتح باب بيته وبدأ قلبُه الذي جاهد وتحمّل تلك الدقائق بإيلامه كأنّه هو أيضًا يعاتبه على فعلته، أخذته يدُ سارة لأقرب كرسي، ألقى بنفسه وبأحماله دفعةً واحدة، فكّرت في كلّ شيء إلّا الشيء الذي عاد به..

- خيرًا.. ما الذي حدث؟

رفع وجهه وهو ما زال يضع يدَه على جانب قلبِه يريده أن يهدأ، بدأت العاصفة ولن يهدأ بعدها شيء، ليلة الإسكندرية نوّة عمره التي لم تفاجئه بأمطارها ورعدها وبرْقِها إلّا اليوم، جاء السيل ليجرف أمامه الماضي والحاضر والمستقبل، تحطّم السدّ وثارت الأمواج لتجرفه إلى حيث لا يعلم، كلّ ما يفكّر فيه الآن كيف يرفع سارة فوق أحد التلال حتى لا تغرق معه..

- مصيبة يا سارة، مصيبة.

أيّ مصيبة التي قد تلحق بهم في تلك البلاد البعيدة، صالح أمامها وأحمد ينام في غرفته..

- مصيبة!! أيّ مصيبة؟

- سنرحل غدًا إلى مصر، عرفوا كلّ شيء.

ألقى بقنبلة الخبر فانفجرت في صدْرها، وتناثرت شظاياها في كلّ أنحاء جسدها، أغلقت عينيها التي بدأت في إخراج حطامها دمًا لا دمعًا.

- كيف عرفوا؟!

- لا أعرف بالضبط، تكلّم الرجل معي بأسلوبٍ كلّه امتهان، كان معه ضابط أمن السفارة، نظراتهم كانت قاتلة، لأوّل مرّة في حياتي أعامَل كمجرمٍ وخاطف أطفال.

أغمض عينيه...

ما سرّ تلك الهوّة التي فُتحت ذلك اليوم تحت قدميه وابتلعته، التهمه بئرُ الحيرة في تلك الدّقائق الفاصلة بين اصطحاب أحمد أو تسليمه في قسم الإسكندرية لينتصر عليه، ويلقيه الآن فريسةً سهلة إلى بئر الندم.

ألقت سارة بنفسها تحت قدميه، وهي تلمح أوّل حصاد لفدادين الألم في قلبه تجري في عينيه:

- تلومني داخل نفسك، سامحني.

أحاطها بذراعيه برفق، وهو يهزّ رأسه، وحرقةُ العالم تخرج من أنفاسه:

- ما ذنبك يا سارة؟ بكلّ أمانة ليس لك أي ذنب، أنا مَن أتى بأحمد، وأنا أعرف أنك محرومة من الإنجاب، أتيت به لتقولي لي استبقِه.

الاختبار كان اختباري.. عُرضت عليّ الأسئلة، وأنا مَن أجبتُ عندما أحضرت أحمد.. فمَن الذي يجب أن يحصل على الصفر يا سارة، ويرسب في اختبار الحياة؟

***

كوب الشاي الساخن في تلك الشرفة، عرفت هناك أنّها نعمة ما كانت لتشعر بها لولا ما حدث..

- أحمل لك خبرًا انتظرتِه طويلًا، وجدوا صالح على كشوف السفر وبصحبته طفلٌ في الخامسة، عرفوا مكانه بالفعل في إنجلترا.

- قد يكون ابنه.

- سأكمل لك المفاجأة، بالفعل كان لصالح ابن اسمه محمد يقترب من عمر أحمد، لكنه مات بعد ولادته بعام، ياسين حرّك القضية بصِلاته القوية بشخصيات كبيرة، لن يمرّ وقت طويل حتى تظهر الحقيقة يا أسرار، سيعود أحمد. (سكت قليلًا)

- تستطيعين وقتها العودةَ إلى ياسين، يعلم الآن أنه ظلمك في الوقت الذي كنت تضحّين فيه من أجل عودة ابنه.. أعلم أنك تحبّينه.

لم تُزيّف "أسرار" يومًا مشاعرها، ما تشعر به وتحسّه هو ما ستفعله..

- لا أعرف إنْ كنت أحببتُه أصلًا أم لا، ما أعرفه الآن أنني مدينةٌ له بولده وفقط.

- لأنّه طلّقك! لم يرتكب الرجل جرمًا، أحمد ابنه يا أسرار، قطعة منه.

- لو أوقعت كلّ أزمة محبًّا فلن يوجد مَن يبقى على حبّه، ألا يوجد حبّ حقيقي على وجه الأرض يا هشام؟

شعر أنها ترمي إلى حبّه لها لكنْ من بعيد، لكنها لم تكن تعرف أنّه هو نفسه لم يعدْ يعرف، هل وقف بجانبها لأنّه مازال يحبها، أم ليثبت لنفسه أنّ هجرها وألم فراقها لم يلوّثه؟ إنّه الآن منقسمٌ بين الحبّ واللّا حبّ. ومَن إلّا محسنة هي التي تعرف ما يدور في عقله وقلبِه..

- ما بك يا هشام؟!! هل شرودك في أسرار، ألاحظ أنّكما لا تفترقان، والمفروض أن يجعلك هذا سعيدًا لا شاردًا.

- هل تظنّين يا محسنة أن قلبي ما زال يحمل حبّها؟ أم أن حبّها كان ابن قلبي الذي أجهضته الخبطات المتكرّرة؟

- لأنها اختارت ياسين وتزوّجته؟

هزّ هشام رأسه، وتنهّد وهو يقول:

- كلّ ما أعرفه أنّ حبي لها كان كالبلورة النقية أراها من ورائها ملاكي.. أخشى أن تكون تلك البلورة أصابها شرخ لا أشعر به، أرى غيامةً لا أستطيع تفسيرها.

- هشام، تعلّمت من الحياة ألّا أتسرّع، فقد لا يعيد الندمُ ما فرّطنا فيه.

- لا أرتاح إلّا عندما أتكلّم معكِ يا محسنة، عندك كلّ الحقّ.

لا بدّ أن أخرج من بئر الحيرة إلى الحياة، وليس إلى بئر الندم.

***

جميلٌ أن يموت الإنسان وهو يضحّي تضحية كبرى، لكن الأجمل أن يحيا ليضحّي أكثر، التضحية الكبرى شرفٌ أمّا التضحيات الصغرى المتواصلة فتعلو فوق أي شيء.

يومان يفصلان ياسين عن ابنه بجدارٍ فاصل بين الموت والحياة، يريد أن يحطّم أحجاره حجرًا حجرًا، ولن يحطّمها إلّا الصبر والاعتصار مع كلّ دقيقة ودقّة ساعة، يبكي وهو يتحرّق شوقًا إلى رؤيته في سجدات طويلة يتضرّع فيها إلى الله أنْ يبقيه تلك الساعات على قيد الحياة حتى يراه ويطمئنّ قلبُه عليه، وليحدث بعدها ما يحدث.

لو يعلم أيّ قلوب قاسية تآمرتْ عليه وعلى صغيره، هل يُعقل أن تكون "أسرار"؟ هل آلمها وجود أحمد وهي تنتظر طفلًا، فأرادت أن تفسح له الطريق؟ هل يمكن أن تتخيّل أن ينسى أبٌ طفلًا بطفل حتى لو كان يعشق أمّه؟

نفس اليومين كانا جدارًا لأسرار يفصلاها عن البراءة.. هل سيتذكرها أحمد، أم نسي دفء حضنِها وجمّدته ثلوج البلاد البعيدة؟ هل سيذكر مَن تركته هناك ورحلت، حقًّا كان صغيرًا لكنّ لحظة الألم كالحريق تحفر خطوطَها على الأجساد وتأبى أن تزول.

يومان غير أي يومين في حياة هشام يفصلاه بين الشكّ واليقين، سيعود أحمد، لكن هل ستعود "أسرار" من الصندوق الذي تركها فيه ياسين، وألقاه في البحر؟ هل ينتظره قلبها عند شاطئ عودة أحمد؟

الساعات تتمهّل، تمهّل الطفل في خطواته الأولى، لا يتخيّل أنه يقف الآن في انتظار قدوم أحمد في المطار، وحوله السلطات، ومِن بعيد تقف "أسرار" بصحبة هشام وإبراهيم وإسماعيل.

يا لها من لحظة لقاءٍ بعد سنوات جفّ فيها قلبُه من الدماء، وجفّت عينه من الدموع، وغاصت روحه في بئر الندم.. فليأت أحمد لينتشله منه، فليأت الصغير ويلقي بحبلِ الحبّ لينقذه، ويروي ظمأه بعد أن ظنّ أنه سيموت عطشًا إلى لقياه.

أحمد ومَن معه يظهرون على سلّم الطائرة، عينا ياسين لا تصدّق ما ترى، فتح ذراعيه ليحتوياه، لكنّه لم يسرع إليه ليحتضنه ويذيب برودة تلك السنوات، لم يعدْ أحمد كما رحل، رآه متمسّكًا بالمرأة التي بجانبه حدّ التمسّك، حتى عندما أخبره أنه والده لم يهتمّ، وظلّ في صحبتها التي لم يستطع أحد أن يرغمه على غيرها.

ابتسم هشام إلى "أسرار" ابتسامةَ رضا، ودونَ أن تشعر ألقتْ له بيديها لتلفّها يداه لأول مرّة وتضغط عليها في حبّ، عيناه تقول ما لا يفهمه قلبُه ولا يحسمُه، هل مازال حبّها قابعًا هناك في تلك المضغة التي بين ضلوعه؟ هل كان بالقوة التي تشبّثت بلحمه ودمائه وتغلغلت داخل شرايينه؟ إنّها هناك تتربّع على عرش كيانه ووجدانه، لكنْ أين هو منها؟

لم يتوقّع أحدهم عددَ الناس الذين تجمّعوا بالمطار يلتفون حول ياسين، الدموع في العيون والشفاه تهنئه، ما زال هناك قلوب طيبة مهما عصفت القسوة بالحياة.

تَعرّف عمّ سعد على صالح وأحمد، تغيّر قليلًا لكنّه لم يخطئه، يقف أحمد في خوفٍ لا يعلم ما الذي يحدث حوله، ما هذا الزلزال الذي يضرب عمرَه للمرّة الثانية!!

وكيل النيابة يحاول التودّد إليه، ونزعَ الرهبة من قلبه:

– لا أريدك أن تخاف من شيء يا أحمد، عرفت منك أنّك ما زلت تذكر طنط التي تركتك في المول وهربت، هل هي تلك الفتاة التي تقف هناك؟ (ثمّ أشار إلى "أسرار")

نظر أحمد تجاهها، يتذكّر وجهها الذي لا يمكن أن يُنسى.. براءة عقول الأطفال وصفاؤها تفتح لكلّ شخص كتابًا تلقي فيه ما تشعره لتكتب سطوره مشاعرُهم النقية.

هزّ أحمد رأسه علامةَ الرفض وهو يقول: ليست هي.

ارتاح وكيل النيابة لإجابة أحمد، كان تعاطفُه معها في محلّه، ذلك الصفاء لا يمكن أن يعكّره شيء، ثمّ عاد من خياله إلى أحمد:

– هل ستعرفها إنْ رأيتها يا أحمد؟

هزّ رأسَه تحت وطأة ذلك الضغط النفسي الرهيب علامة الإيجاب، ليلحقه وكيلُ النيابة بسؤاله:

- ومِن أين عرفت أنك ستتعرّف عليها؟

بدتْ في عينيه نظرة ألمٍ لو رأتها "منى" يوم أن تركته بلا ذنب لتثأر لقصاصٍ غير عادل ما تركته:

- أحلم بها دومًا تترك يدي وتهرب وأصرخ، لكنّني لا أتذكّر اسمها.

ثمّ أخذ يبحث في كلّ الوجوه التي في الغرفة عن سارة، لكنّه لم يجدها ليشعر بالطمأنينة التي رحلت معهم في الطائرة وتركته عند بابها. أمرت النيابة بتسليم أحمد إلى أبيه، والإفراج عن "أسرار" نهائيًّا، والتحقيق مع صالح وسارة.

- صالح، أنت متّهم وزوجتك بخطف طفلٍ واصطحابه خارج البلاد بصفةٍ مزوّرة غير صفته، تهمتُك خطف وتزوير وانتحال صفة، وكلّها مجتمعة تهمٌ ليست سهلة.

ردّ صالح باستسلام:

- معترفٌ بكلّ شيء، لكنّ سارة لا ذنب لها فيما حدث، كلّ ما تعرفه أنني تبنّيت طفلًا مِن ملجأ ليسافر معنا أعوّضها به عن الأمومة وأهدئ أعصابَها المنهكة، ثمّ إنّ البعثة باسمي وليست باسمها.

- معنى هذا أنّك تقرّ أنك المسئول الوحيد، وأن زوجتك بريئة وغير متحمّلة لأي مسئولية؟ اتفقنا، لكن ما الذي دفعك لاصطحاب أحمد خارج

البلاد بصفةٍ مزوّرة بدلًا مِن تسليمه في قسم الإسكندرية؟ لا تنس أنك قلت لعمّ سعد إنك ستسلم الولد في القسم، وهذا ما دفعه لتركه معك.

- مِن قصّته ودموعه فهِمت أنّ مَن تخلّت عنه من أهله، ظننتها أمّه وأرادت التخلّص منه، خفتُ عليه من مصير أسود في الملاجئ والإصلاحيّات. لم أكن امتلك الوقت لأتبنّاه، وأكبر دليل ما تراه على أحمد من حسن تربية.

أمر وكيل النيابة بالإفراج عن سارة بعد توقيع صالح على أقواله، واستمرار حبس صالح.

***

"نعرف قيمة الملح عندما نفقدُه، وقيمة الأب عندما يموت" مثل صيني.

خرج يُمسك بيد أحمد الصغيرة التي تاهت عن يدِه لسنوات، يبحث عن الدفء الأبوي الذي افتقده في عينيه الصغيرة، والتي لم تتوه عن سارة لحظةً واحدة، لكنّه لا يجدها..

كلّ ما يحدث غريبٌ، كلّ شيء في حياته يتبدّل، أمّه التي أحبّها من كلّ قلبه لم تكن أمّه الحقيقية.

أخذه ياسين ليذهبا سويًّا إلى حيث ينتمي، لا يصدّق أنه سينام ليلته في حضنه، ركبا معًا السيارة وهو لا يصدق أنّه بجانبه..

- حمدًا لله على سلامتك يا أحمد.

نظر إليه في صمت وهدوء وبرود..

- أنا بابا يا أحمد، هل نسيتني؟

لا يستطع أحمد أمام الدموع التي تظهر في عينيه أن ينكر ما يقرّه قلبه، صحيح أنه يعشقها، لا يتمنى أمًّا غيرها لكنه لم يشعر يومًا بأن صالح أبوه، ظلّت صورة ياسين حاجزًا بينهما، لم يستطع صالح اختراقه، فأجاب بهدوء:

- أتذكّرك.. أنت بابا.

ابتسم له ياسين بحبّ العالم الذي يحمله له في قلبه:

- ألست سعيدًا بلقائنا بعد كلّ تلك السنوات؟ ظننت يا حبيبي أنني سأموت قبل أن أراك.

ثمّ قبّل كفّ يده بحبّ وشوقٍ وصلا إلى قلبه من فرط دفئهما، لتظهر في عينيه نظرةُ تمزّق لم تُرح قلب ياسين.

- وماما سارة لن أراها ثانيةً؟

- سارة ليست والدتك، ولا صالح أبوك، هُما مَن خطفاك وحرماني منك.

- أعرف أنك بابا، لا أريد بابا صالح، أريدك أنت، لكنّي أيضًا أريد ماما سارة وأحبّها، إنها أكثر مَن يحبّني في الدنيا.

نظر ياسين إلى ابنه نظرةً غابت عنه من لوعة مشاعره، يظهر عليه عناية فائقة في كلّ شيء، ملابسه، شعره، أدبه، أسلوبه، كلّ شيء يدلّ على أنّ تلك المرأة احتضنته أكثر ممّا تحتضن الأم أبناءها، هل كان الحرمان هو مَن فعل ذلك؟ هل أرادت أن تعوّض أحمد عمّا سرقته منه من حبّ فطريّ غريزي يملأ قلبه لأبيه ويملأ قلب أبيه له؟

احتضنه حضنًا تشوّق إليه منذ سنوات لتلمس شفاهه وجناته الطفولية الناعمة:

- أنا أيضًا أحبك يا أحمد، أحبّك لدرجة أنني لا أستطيع أن أعيش بدونك، أنا أيضًا ليس لي سواك.

حتى أحمد الطفل ذو السبع سنوات لم يسلمْ من تلك البئر الملعونة التي تستعذب حيرةَ ضحاياها، صمتَ لكنّ عينه كانت تحمل الكثيرَ من الألم والكلام، وكأنّ ياسين تذكّر أمرًا:

- هل يمكن أن تصف لي المرأة التي أخذتك وتركتك في المول.

بدأ أحمد في الهدوء نسبيًّا، لقد عاد قلبه من حيث جاء لكنّه يتمزّق على فراق سارة:

- لن أستطيع وصفها، لكن إذا رأيتها سأعرفها، لكنّها ليست طنط التي رأيتها هناك.

تنهّد تنهيدةً خرجت معها أنفاس الشكّ التي كانت تملأ صدره.

- الحمد لله، كان إحساسى في محلّه، "أسرار" مستحيل أن تفعل هذا، سنتناول غداءنا في أجمل مطعم سمك، ثمّ نذهب معًا مشوارًا قصيرًا نعود بعده إلى بيتنا الذي أتمنّى أن ندخله ثلاثة لا اثنان.

أراد أن يردّ لها اعتبارها الذي انهار، فتحت "منى" الباب عندما دقّ ياسين جرسه، وما أن رآها أحمد إلّا وبدأ في الصراخ والإشارة إليها، لم يتحمّل ياسين منظرَه في ذلك الصراخ العنيف الذي جعله يرى صورة الحادثة وصرخة ابنه المفزوعة وهي تتركه، هي.. تلك الملعونة التي استطاعت أنْ تنال من حياته وعمره وروحه.

- هل هذه المرأة التي تركتك في المول!؟

وبغضب كلّ أيام الشقاء والحيرة والتمزّق لم يستطع ياسين السيطرة على نفسه بالرغم من حضور كلّ مَن في المنزل؛ لطَمَها على وجهها لطمةً أردتها

أرضًا، ليتفوّه بكلمات لم يتخيّل يومَ أن دخل باب بيتهم أوّل مرّة أنْ تصدر منه:

– لم أكنْ أتخيّل يومًا أنني سأضرب امرأة، أخرجتِ من داخلي أيّتها الشيطانة كلَّ ما هو رديء، لن تهنأ لي حياة إلّا عندما أراك حبيسة الأسوار.

ثمّ بدأ صوتُه في الارتفاع وهو يردّد بجنون: "ما الذي فعله لك هذا الطفل البريء يا شيطانة؟"

حاول الجميع تهدئته، الآن فقط افتضح أمرُ "منى" ليعلم الجميع ما اقترفته.. وقفت وسطهم لا تدري أين تستتر مِن عيونهم، طفت جريمتها على سطح الحقيقة لتعاقب عقابًا مِن نوع آخر، عقاب أسرُه أقوى مِن أسْر الحديد، عقاب ستقتلها فيه النظراتُ كلّ يوم آلاف المرّات.

سحبت "أسرار" ياسين بهدوء إلى الشرفة، والدموع تملأ عينيها:

– أستحلفك بكلّ غالٍ عليك، لو أحببتني يومًا، لو شعرت أنك ظلمتني بشكّك فأردت أن تعوضني، عوضني في "منى".. أختي.

أثارت كلماتها غضبَه أكثر، ذكّرها كيف كانت حياتهما قبل أن تُفسدها.. ذكّرها بجنينها الذي راح.. ذكّرها بطلاقهما التي كانت السببَ فيه.

– انسَ كلّ شيء، انسَ حتى أنك قابلتني، تذكّر فقط أن أحمد الآن بجانبك ومعك، انسَ أنّك طرقت باب بيتنا يومًا، لكنْ لا تجرح قلبَ الرجل والمرأة

اللذيْن فتحا لك قلبهما قبل بيتهما، ولم يضنّوا عليك بابنتهما، يكفي ما هما فيه، لن يتحمّلا أكثر مِن هذا، سيخرّ أبي الذي كبر عشرين عامًا في هذين العامين، طلّقتني.. أتريد الآن أن تُيتّمني!!؟

- وعذاب السنين والفراق يا "أسرار"؟

- صدّقني لقد دَفعت ثمنَه، يكفي أنها بالنسبة للجميع مريضة نفسية، مَن سيقترب منها بعد الآن؟ أيّ حياة يمكن أن تصنعها؟ آذاها الانتقام أكثر ممّا آذانا، استرددنا الضائع أمّا هي فلم تستردّ شيئًا.

لم يستطع أمام رقّة قلبها وإحساسها المرهَف أن يرفض رغبتها ليعوّضها عمّا فعله بها، وعن شكّه فيها:

- أعرف صدمتك بطلاقي وشكّي، أعطني أنا أيضًا عذرًا، أيّ عذر.

نظرة العتاب تبقى أقوى من كلماته، انطلقت من عينيها لصدره فشعرَ بما تريد..

- سأعذر ياسين الذي كان زوجي وأسامحه، لكنني لن أعذر ذلك الياسين الذي ظننته حبيبي، لقد تشرّخ ما بيننا وهو على وشك الانهيار.

- هل تشكّين في حبي، بالطبع أحببتك، لكنّ هناك صدمات في الحياة تشلّ كلّ شيء فينا حتى عقولنا.. ضياع أحمد خدّر مشاعري وأحاسيسي تجاه أي أحد حتى نفسي، عندما يكون لك ابنٌ ستعرفين.

- كانَ وضاعَ هو أيضًا.

- لا تظلميني وتحكمي عليّ، سأنتظرك دومًا، سأنتظرك حتى آخر أنفاسي.

- لن يفيد الانتظار شيئًا، لن يفيد.

خرج وتركها خلفه، وقد ألحقت بها الحياة أوّل هزائمها وأعظم خسائرها.. تشعر بالفقد والوحدة والحرمان ملقاة في بئر الحيرة.

تقف "منى" أمامها تنظرُ لها نظرةً مململة تخفيها دموعٌ امتلأت بها عيناها وتستعصي النزول، احتضنتها لتنزل تلك الدموع كأنّها نهرٌ حبسته سدود الغيرة والغيظ، لكنّه الآن انطلق ليغزو تلك السدود، ويجرفها أمامه، همّت أن تفتح فمَها لتعتذر وتطلب غفرانها، وضعت يدَها على شفتيْها قبل أن تنطق بأيّ كلمة:

- انسي أيّ شيء، لقد تحرّرنا الآن مِن أي ذنب أو لوم، عاد لياسين ولده، يجب أن نعود نحن إلى والديْنا، يجب أن نخرج جميعًا من ذلك الجبّ حتى لو تركنا الإسكندرية بأكملها.

شهقت "منى" شهقةَ حياة خرجت من قلبها المهزوم:

- يا ريت، يا ريت يا "أسرار"، أريد أن أقول لك شيئًا.. هشام يحبّك وأنا ليس في قلبي أيّ شيء تجاهه، اكتشفت أنني لم أحبّ أحدًا، ولا حتى نفسي

التي حطمتها بفأس الانتقام، يجب أن أبدأ في حبّ مَن حولي حتى تعود لي نفسي وحبّ الحياة.. مثلك يا "أسرار".

اغتسلت النفوس بماءِ العفو والحبّ الفطري الذي يجري في الدماء.. الطيبة التي تملأ قلبَ "أسرار" والعودة الحقيقية التي طرقت عقلَ وقلبَ "منى".. تذكّرت "أسرار" صوتَ المعلمة وهي تقول: قال تعالى: "قالوا يا أبانا استغفرْ لنا ذنوبنا إنّا كنّا خاطئين"

فردّدت:

– فلنستغفرْ يا مُنى، فلنستغفر.

***

هل تولدُ الأمومة مِن الرحم فقط، أمْ يمكن للأمومة أنْ تولد من القلب؟

هل الحبلُ السرّي وألمُ المخاض هما مَن يضخّوا معنى الأمومة في شرايين المرأة، أم يمكن أنْ ينشأ حبلٌ سرّي آخر بين امرأةٍ وطفل لا ينقطع مهْما تعرّضت لألم مخاضه وفراقه لها؟

جرسُ الباب في بيت ياسين يُعلن عن زائر يشتاق له أحمد.. ارتمى في حضنها كمَن وجد ضآلته بعد رحلةٍ شاقّة ذاق فيها معنى الفراق، شوقٌ

ينبعث من قلب طفلٍ ليس له إلّا معنى واحد "الحبّ" بكلّ نقائه وصفائه، فالأطفال لم تلوَّث مشاعرُهم بعْد.

سارة عيناها تنزف وهو بين يديها بعد أن طار بعيدًا عنها.. قلبها يتمزّق ويلقي بأحزانه وآلامه دموعًا وآهات.

بينما يقف هو مكتوفَ الأيدي أمام ما يرى ويسمع، يتمنّى لو يلقي بها خارج المنزل، لكنّه لا يريد أن يظهر في عيني ابنه بصورةِ الأب القاسي، إنّهما في مرحلة مدّ حبال الودّ والأبوة بينهما، يتمنّى استرجاع قلبه الذي ضلّ الطريق، لن يتسرّع كما تسرّع في أمر "أسرار".. يجب عليه أن يكبح جماحَ نفسه التي ترغب في تمزيقها ليستخلصَ منها الحقيقة التي سترفع أحمد فوق الحيرة والمعاناة.

استقبلها وعلى وجهه علاماتُ الامتعاض:

- تفضّلي، أهلًا بك.

تعلم سارة جرمَها، لم تترك نظرةُ الخجل عينيها وهي تردّ عليه السلام، وأحمد ملتصق بها يلفّ يديه حولها..

- اشتقت لأحمد، تمنّيت أن أطمئنّ عليه، لن تتخيّل ما يعني لي. مهْما وصفت لك حبّي له لن تصدقه، أردت أيضًا أن أوضّح لك الأمور كما حدثت، لكن أرجو أن يدخل أحمد إلى غرفته.

كل كلمةٍ تخرج من شفاه سارة مغلّفة بالخجل والحبّ، يشعر فيها بصدق مشاعرها لكنّها ستبقى هي وزوجها معنى الحرمان من أحمد وأسرار وابنهما، عاش بسببهما أيّامًا لا يمكن لأحد أن يحياها.. ذاق آلامًا لم يتجرّعها أحدٌ سواه.. استوى عنده الليل والنهار، الجوع والشبع، الحر والبرودة، احتضنه الشارع، وتألّم مِن أجله أكثر مِن ألم البشر..

- آسف، يجب أن يسمع أحمد كلّ شيء، هذا من حقّي وحقّه.

حكت أحداث تلك الليلة كأنّها تصوّر مشهدًا سينمائيًّا، كلّ شيء واضح، كلّ كلمة تهوى من فمها كأنّها ثلج يُلقى على قلب ياسين المكتوي..

- سمعت يا أحمد، أنا لم أفرّط فيك، بحثت عنك في كلّ مكان، لو سلّموك هناك لوجدتك، لكنّهم سافروا بك حتى لا أجدك.

قاطعته سارة برعشةٍ تمتلك يدَها فتعصرها:

- لم نقصد أن نؤذي أيّ أحد، ظنَنّا أنّ أمّه هي مَن تركته، أحببته.. لن أقول لك مثل أمّه، لكنّني كنت أمّه.

نظر لها نظرةً مؤلمة جعلت عينيها تركع وهو يستخفّ بكلماتها:

- حقًّا أنتم لم تقصدوا أيّ أذى، أنتم فقط حرمتم أبوه منه، وحرمتموه من أبيه لتعوّضوا حرمانكم، لا تخدعي نفسك، عرفت منه أنّه سألكم كثيرًا عنّي.

"هو على حقّ" أرادت أن تعوّض أمومتها فحرمتْه أبوّته، فأيّ تعويض ذلك الذي يأتي على حرمان الآخرين!!

- لن أنكر حجمَ الأنانية التي تعاملنا بها، كلّ ما أرجوه أن تنظر لي بعطف، أحمد هو كلّ ما تبقّى لي بعد ما حدث لصالح، حرماني منه يمزّقني.

ثمّ راحت في بكاء، نظر إلى عيني أحمد اللتين لا تفارقان وجهَها بنظرة حبّ وحزن، فشعر أنّها عوّضته عن حرمانه من الأم، سقط ياسين في بئر الحيرة، وذاق مرارها، ولن يسمح لأحد أن يلقي بابنه بها بعد كلّ ذلك العناء:

- كفى بكاء، لم يعدِ القلب يحتمل حزنًا أكثر من ذلك، أهلًا بك في أيّ وقت.

لم تصدّق سارة آذانها، ارتدّت لها روحها وتنهّدت تنهيدة راحة، ثمّ بدأت وبدون طلب منه في شرح مستوى دراسة أحمد، والتي ترتفع سنتين عن عمره، طريقة تغذيته، هواياته، الأشياء المحبّبة لنفسه، الألعاب الرياضية المميّز فيها.. كأنها تعطي لياسين خريطته التي عرفت هي معالمَها وأتقنت كلّ تضاريسها.

غسلت تلك المقابلة قلبَ ياسين من غلٍّ كان قد بدأ، شعر بعقله المتوازن أنّ أحمد امتلك أمًّا حقيقة لفترةٍ من الزمن، وهبتْه حبًّا لم يكن من السهل العثور عليه.. وعرف أحمد مدى حبّ أبيه له، وألمه الشديد طيلة السنوات الماضية على فراقه.

لكنّها عادت تجرّ معها أذيال الخزي ممّا فعلت، لم يقابلها الرجل بعداء كما توقّعت بل بعقلانية نادرة، ويبقى الندم الأكبر في حقّ زوجها الملقى الآن أسيرَ محبسه، ضلّ وأتى بأحمد لكن كان عليها أنْ تردّه عن خطئه.

فما فائدة مشاركة الحياة إنْ لم يكن الشريك هو العينَ المبصرة لحظة العمى والنور الهادي لحظة الضلال!!

كلّ ما تمنّته في ذلك الوقت مقابلة صالح والاطمئنان عليه، لا تعرف كيف ستراه حبيسًا مكسورًا، تعرف عزّةَ نفسه وكبرياءه.

خلف تلك الأسوار العاتية كانت المقابلة، جلست تسأله عن حاله الذي يبدو مِن غير سؤال:

- الأمرُ ليس سهلًا، الاتهامات كثيرة؛ خطف وتزوير وانتحالُ صفة.

حبل الندم يلتفّ حول رقبتها، يخنقها، ولا يوصلها للموت "سامحني" قالتها وهي تبكي حدّ الانهيار:

- أرجوكِ، لا تعذبي نفسك وتجلديها، أنا نفسي لا أعلم لماذا أتيت به ولم أسلّمه هناك، أنا مَن فتح باب الشيطان فمررْنا منه معًا.

- كان يجب أن أساعدك على غلق الباب لا المرور منه، ساندتك فنزعت الرهبة والخوف من قلبك، لو أنني عارضتك..

سكتت لتكمل بكاءً أضاف لصالح ذلًّا فوق ذلّه:

- حدث ما حدث، المحامى قال يمكن الرأفة في الحكم لأنني وجدت أحمد بشهادة عمّ سعد، ولم أخطفه ولحسن تربية أحمد. في جميع الأحوال ضاع بالنسبة لي أي كلمة تعني القادم. (ثمّ سكت طويلًا ليكمل):

- أريد أن أعطيكِ حريتك.

- إيّاك أن تقولها مرّة أخرى، تعاهدنا يومًا على الخير والشرّ تحت أي ظرفٍ وفي أي حال.

- ليس ظرفًا. إنه عُمر.

- حتى لو كان عمري كلّه.. أنا معك وبك.

....

سحابة شتاء ثقيلة أمطرت على بيت إبراهيم، حوّلهم الصمت إلى تماثيل متحركة، لم تعدْ "منى" تقوى على رفع عينيها في وجْه أحد، تشعر بالندم والخزي، دمّرت حياتهم جميعًا، النظرات حولهم مُريبة، حتى بعد براءة "أسرار".

دبّت الوحدة جذورها في بيتهم، فأنبتت شجرة الألم واليأس، لم يعدْ هشام يأتِ كما كان، يريد هو أيضًا وقتًا ينقّي ذهنه من أيّ تشويش، فعندما تزداد

الضغوط تنحني الأكتاف وتخرّ راكعة لحياةٍ قد تشقى بها.. تمنّى لو استطاع السفرَ دون رؤيتها، وقتها كان سيشعر أنه يستطيع الاستغناء، لكنّ حبال الشوق واللهفة تشدّه من كلّ مكان.

حارب نفسَه كثيرًا، ثمّ يستسلم ويرفع لها الراية البيضاء، طلّت عليه "أسرار" بعينيها الزرقاء ووجهها الحزين الذي يحاول أن يَعبُر كلّ آلام الماضي ولا يستطيع..

- لم أستطع السفر دون أنْ أراكِ، لن أكذب كنت أتمنى لكنّي لم أستطعْ. أعرف أنك ستفهمين أنني في حاجةٍ لأخلو بنفسي، أحاول استردادها.

- أحسدك لأنك ستأخذ هدنةً من الحياة حتى ولو كانت قصيرة، كم أتمنّاها لكن كيف؟ كيف لي أن أترك أبي وأمي.. ومُنى؟

- عمّ إبراهيم وخالتي معًا لا تخشي عليهم شيئًا. الخوف كلّ الخوف على مَن لا يجد شريكًا، الوحدة والحيرة هم أعداؤنا الحقيقيّون.

- عندك حقّ يا هشام.

- أسرار، سأسعى لفتح عيادة في القاهرة، أحتاج أن أشتغل كثيرًا، وأعيد حسابات أكثر.

شردت "أسرار" لحظة، ثمّ استردّت وعيَها سريعًا وهي تقول:

- ذكّرتني بشيء، كيف نسيت، كتب لي ياسين فيلا صغيرة في منطقة راقية في الهرم، ما رأيك لو نحوّلها إلى مستشفى صغير، مستعدّة أن أشاركك، استمتع بهدنتك وعندما تعود نقرّر ما يكون.

- يوجد في عينيكِ نظرة بحثت عنها طويلًا، هل ما أشعر به حقيقي، أم أنّه سراب أتوهّمه من فرط العطش والتّيه؟

ابتعدت بعينيها لئلّا يغوص فيهما أكثر من ذلك، فيرى ما لا تريده أن يراه.. ولم تنطق بكلمة.

تنهّد وهو يقول:

- سأستمتع بهدنتي، ثمّ نقرّر ما يكون.

***

غريبان، غريبان، سنبقى نبحثُ عن زمان ومكان لحبّنا، نخشى أن يخاف اللقاء منّا؛ فنفترق.

كانت بالماضي تعرف ما تريد، أرادت الحبّ فخذلها.. أصابتها طعنتُه التي نفذت إلى صدرها، ألقاها خارجه دون كلمة وداعٍ أو شفقة على حالها، أحبّها نعم.. لكنّه كان حبًّا غير مكتمل، كان ينقصه التوحّد في روح واحدة، الآن فقط تشعرُ بقسوة ما فعلته بهشام عندما صفعتها الحياة بنفس الضربة، كان

محقًّا، بذرة حبّها كانت لنخلةٍ عملاقة تشقّ قلبها الآن، لكن.. فات الأوان. طعنتْه وتخلّت عنه كما طعنها ياسين، فكيف تريد منه ما لن تستطيع؟

لم يخرجها من تفكيرها إلّا يدُ أبيها تربت على كتفها بحنان:

- هشام رجل حقيقي، لولاه ما استطعنا حلّ الكثير من أمورنا التي تعقّدت فجأة.

- نعم يا أبي، هشام رجل حقيقي.

نظر إبراهيم لابنته نظرةً فهمتها بعمق، فابتسمت ابتسامةً خفيفة فهِمَ منها شيئًا:

- هل ما أشعر به في عينيكِ حقيقيّ؟

- لم أعدْ أعرف، أخاف أنْ أظلمه مرّة أخرى، رفضته وتحمّل، كأنّ الحياة أرادت أن تردّ لي الصفعة، طلّقني ياسين وأنا الآن أرفض العودة.. لماذا يعود والأمرُ واحد؟

- الوضع مختلف يا ابنتي، كلامك قد يكون صحيحًا لو أنك ارتبطتِ بهشام بأي وعد، كنت عند رأي واحد.. ياسين كان زوجك ومع أوّل اختبار حقيقي تركَك خلفه، وحتى لا أظلمه الاختبار كان صعبًا، جاءه في نقطة ضعفٍ مُميتة، لكن كان يمكنه أن يتركك هنا حتى يحلّ الأمر نفسه، ولم يكن ليلومه أحد، وخصوصًا أنك كنت حاملًا.

ما أجملَ أن يكون هناك مَن نفتح جراح قلوبنا أمامه بلا أدنى خوفٍ أو شك في أنه سينظّفها قبل أن يغلقها.

- هل هذا رأيك يا أبي؟ هناك فرق في الحالتين.

- الفرق كبير، لم أتدخّل عندما أراد ياسين العودة، لكنّني احترمت رفضك، لا أحد يعلم ما تخبئه الأيام، لن أكون مطمئنًّا عليكِ معه ليلقي بك مع كلّ عاصفة.

- لو كان هناك فرصة لنخرج من الإسكندرية، أفكّر في مشاركة هشام بالفيلا لنحوّلها إلى مستشفى صغير، أنا لن أتصرّف إلّا بمشورتك.

- سيكون هذا أصوبَ قرار نتخذه بعدما حدث، ضاق علينا المكان. نظرات الناس تلاحقني في كلّ مكان لكني أكتم بداخلي؛ حتى لا أسبّب لكم ألمًا أكبر، لا يصبّرني على الحال إلّا إسماعيل وأمّك، في بعض الظروف يجب أنْ ننسلخ من أماكننا قبل أن ننسلخ من نفوسنا.

ارتمت "أسرار" في حضن أبيها موضع الأمان والحبّ الحقيقي الذي لا تعوّضه الأيام مهما أعطت.

ما أجمل أن تهبك الحياة إنسانًا مِن دمك تلقي بأحمالك على أعتابه، وأنت تثق أنه سيتحمّلها معك، سيدلّك، سيرشدك بلا أيّ تضليل أو زيف.

- استراح قلبي وعقلي، إن شاء الله نرتّب الأمور مع هشام لنبدأ جميعًا حياة جديدة، نشتمّ فيها أنفاسنا المحبوسة، نكسر القيود التي أحاطت بأرواحنا.

***

يبقى الشعورُ بالأمان هو الوحيد الذي يستحق أن يتربّع على عرش الحبّ دون أي شعور.. يترسّخ في النفوس فتعبر المحنَ والصعاب دون أنْ تتفرّق الأيادي.. يملأ القلب فيطمئنّ ويهدأ.. يُغذّي الروح فتنعم وترضى.

ياسين لم ييأس مِن أن يدقّ باب "أسرار" علّه يحظى بالغفران، يقف أمامها ينظرُ إلى عينيها يبحث فيها عن بقاياه، لا يجد إلّا انحصارًا لبحر الحبّ الذي كان يملؤهما، لا يطفو عليهما إلّا الحزن والألم والحيرة.

- لمَ الحيرة يا أسرار؟ لمَ لا ننسى ونكمل طريقنا؟

- لا أستطيع، أنا في بئر الحيرة لا أستطيع الخروج منه، قبل أن ألقاك كنت أتمنّاك وأنتظرك، أمّا الآن...

- ها هي يدي ممدودة إليكِ، فلتتمسّكي بها لأخرجك.

- مَن يضمن لي أنّه لن يحدث أي شيء فتتركها، وأقعُ تلك المرّة بلا رحمة.. وحيدة.. مشروخة؟!

كان حديثها لا يعني إلّا عدمَ الثقة والخوف من الغدر، وعدم الشعور بأدنى درجات الأمان.

- الخيانة والغدر ليسا من صفاتي وأنتِ تعلمين. الأمر كان فوق احتمالي، أخرجني الحدث الذي تسبّبتْ فيه "منى" عن نفسي وشعوري. كان الحدث فوق كلّ شيء.

- ألم يكن فوق أن تذهب لمأذونٍ وتطلّقني، الحدث كان يجب أن يُنسيك حتى أنني زوجتك.. كان يمكنك أن تتركني في بيت أبي، كان سيكفيني الأمل، ألم تفكّر لحظة في طفلي الذي مات في أحشائي.

- لك الحقّ، أريد أن أعوّضك عمّا حدث، حاولي.. أنا في انتظارك.

غاب ياسين عن ناظريها، لا تصدّق أنّ تلك المشاعر هي ما تبقّى بينهما، لم تظنّ يومَ انتظرته في الشرفة أنّ ذلك الدّفء الذي سرى بينهما سيتحوّل مع الأيام لكتلةٍ من المشاعر الباردة الباهتة التي لا ملامح لها.. وأنّ نار الحبّ التي اشتعلت بينهما والتي ذاقتها واستعذبَتْها ستصبح كومةً من رماد.

حبالُ الاهتمام بأحمد باتت تجدل خيوطًا حريرية دقيقة بين سارة وياسين.. سمح لها بالتدخّل في حياته لينقذ ابنه من الانقسام الذي قد يؤدّي به إلى الجنون، يعشق أمومةَ سارة التي غرق في حنانها، والذي زاد أكثر بعد الفراغ الذي تحياه، وحبّه الفطري لياسين يجري في دمائه.. وجودُه بين الاثنين منحَه

التوازن الذي جعل ياسين يشعرُ بالارتياح تجاه ابنه الذي ظنّ خسارته نهائيًّا.

لا يهمّ الآن أنّه يستحوذ على جزءٍ منه.. المهمّ أنه بجانبه.

حُكم على صالح بعشر سنوات ليقرّر إعطاءَ سارة حريتها، ومنْعها من زيارته، أراد لها أنْ تطير بعيدًا عن الأسوار، أطلق صالح لها العنان، وحرّرت "أسرار" ياسين من بحْر عينيها فسقط الاثنان في ذلك البئر العميق الذي يبتلع كلّ مَن يقترب منه بلا شفقة أو رحمة.

دوّامة البئر تُحطّم رأسه، يشعر بما فعله بأسرار عندما خذلها وهي التي لم تخذلْه يومًا.. يتمنّى مِن كلّ قلبه أن يحقّق لها وعدًا وعَدَها إيّاه بأن ينتظرها ما تبقّى له من عمر، لكنّ ظهور سارة أوقعه في الحيرة.

هل يبدأ معها حياة جديدة ناسيًا قلبه ضامنًا لأحمد أمًّا لن يعثر على مثلها أبدًا، يرحل بذكرياته من بحرها بسفينة التخلّي ليسقط وللمرة الثانية من عينيها، أمْ يبقى على وعدِ قلبه وحبّه لها، ينتظر علّه يحظى بصك الغفران؟ لكن... ماذا لو لم تغفر؟ ماذا لو وجدت اليدَ التي ترفعها من بئر الحيرة الذي ألقاها هو فيه؟

هشام لم يتخلّ عنها للحظةٍ واحدة، بالرغم من رفضها له.

سارة لم يعدْ يهنأ لها عيش بدون أحمد الذي ربطها بياسين في رباطٍ أقوى من الحبّ.. رباط التعايش والتفاهم والتعوّد. لم تعدْ تطيق الابتعاد عن أحمد وتسعدُ بقرب ياسين الذي يمنحها الحماية والأمان في وحدتها القاتلة. إنها بلا عائلة، لا أم، لا أب، لا أخوات، كان صالح كلّ الناس.. تمرّ ساعات قربها منْها حلمًا جميلًا تصحو منه على صوت المفتاح يدور في باب شقتها لتدخل وحيدة لتبدأ رحلة المعاناة.. لكنّها لا تقوى على الاقتراب أكثر؛ فصالح حبُّها الذي سكن قلبها ورفيقُ مشوارها، ضحّى بنفسه من أجلها، فهل يكون التخلّي والخذلان نصيبَه من تلك الحياة البائسة؟ هو أيضًا سيدور في دائرة الوحدة بدونها، طلّقها لكنها تعلم حبّه لها، ورغبتَه في أنْ تبدأ حياتها بعيدًا عن حياته التي يظنّ أنها انتهت.. لو يعلم أنّ ما يربطهما أقوى من أنْ ينهيه بعضُ الحبر على ورق! ستظلّ في انتظاره مهْما رفض زيارتها، ومهْما قال.

لا يهمّ تلك الكلمات التي تنطقها الشفاه، الأهمّ هو صوت نبض القلب التي تعرف أنه ينبض بها ولها.. ستنتظر فجرًا يُشرق على ليلهما ليفتحا له ستائرَ الودّ الذي لن ينقطع بينهما بورقةٍ يلوّثها قليلٌ من الحبر.

***

ابتعدَ على قدرِ ما استطاع أنْ يبتعد، ثمّ اشتدّ عليه الحنين ليذيقه مرّ التمزّق؛ فعاد.

عاد ليلقي بنفسه على أعتابها، لكنْ بهدوء محبٍّ يتمنّى أن يعود له حبُّه الغالي على جناح الاشتياق، لا على جناح الحياء من معروف، كلّ ما تمنّاه مع أوّل ظلّ له على أرض الإسكندرية أن يسمع صوتها..

- أوّل خطوات لي على أرض الإسكندرية لم أستطع أن أحرم نفسي من رؤيتك، أنا أسفل البيت، فهل سأحظى بنظرةٍ من جولييت الإسكندرية؟

لم يستطعْ أحد أن يبعث ابتسامتها بعد كلّ ما حدث مِن مرقدها إلّا صوته وحضوره:

- لا لن تحظى بنظرة، بل بغذاءٍ من أجمل ما تتخيّل، صنع ابنة خالتك.. تعال، لن أفتِن لخالتي أنك جئت عندنا قبل أن تذهب لها.

صعدَ هشام نفس السلم الذي صعدَه ياسين من قبل، وقلبُه يدقّ من شدّة حبها، لا يعلم إلى أين سيؤدّي به سلّمه.. إلى صحرائها أم إلى واحتها؟

استقبلته بوجهٍ تعلوه طمأنينة وأملٌ تسأله بلهفة عن الأخبار، يفهم قصدها، فقط أراد أن يداعبها بمكرٍ فاصطنَعَ عدمَ الفهم. فقالت:

- في انتظارك لنقرّر أمر المستشفى، المشروع الذي سنبدأ به حياةً صافية جديدة بعيدًا عن الغيوم والضباب.

داعبها وتدلّل عليها وراقبها وهي حائرة، لكنْ لم يقوَ قلبه أن يسبّب لها لحظة حيرة واحدة، فأسرع يقول:

- أمري لله سأشاركك، أنت بالفيلا وأنا بالمال الذي ورثته عن أبي.. كلّمت أصدقاءَ لي، وسيتعاونون معنا في العمل.

- الحمد لله يا هشام، الحمد لله، أسرع بخروجنا من هنا، الكلّ يختنق.

- طلبات سيادتك أوامر.

ابتسمت "أسرار" ولمعت عيناها بعد انطفاء.

تمنّى أن يعبّر لها عمّا في قلبه، المشاعر تجتاحه لكنْ لا بديل عن الصمت، لا يريد اختراقها، يريد أنْ ينفذ إلى قلبها بهدوء، تاهت قليلًا فلتعدْ على مهل، يريد عودةً حقيقية في طريقٍ يجمعهما معًا يمحو أثرَ كلّ الطرق المتعدّدة التي ساروا فيها.

تطفو أفكاره على سطح عينيه لتقرأها "أسرار" بسهولة، تريد هي أيضًا هدنةً تلتقط فيها أنفاسها التي لهثت في السنوات الماضية.. لن تتسرع كما تسرّعت من قبل، تريد أن تصل إليه وهي ممتلئة العقل والقلب به، وبمشاعرها تجاهه..

- لا أعرف يا هشام ماذا كنت سأفعل بدونك؟

- وكيف بدوني!! أنتِ بي طيلة عمرك، وستظلين.

ثمّ ابتسم وهو يذكّرها:

- هل تذكرين يا "أسرار" الشاب الصغير الذي كان يمشي وراءك في كلّ مكان من المدرسة، وإليها، وأنت في إعدادي؟!

ضحكت "أسرار" مِن قلبها وهي تتذكّره، أدمن ملاحقتها فألحق بها خوفًا لم تعتاده. كانت صديقاتها يدعونه مجنونَ "أسرار"، لم يكن هشام بالإسكندرية بل كان في عام تكليفه خارجها، لم تشكُ لأبيها بل انتظرت هشام حتى عاد فانطلق في صوتها رنينٌ حجبته الأيام وهي تقول:

- انتظرتك حتى أتيت ولم أخبر أحدًا، فوجئت بك اليوم الذي يليه ورائي دون أن أشعر.

ضحك هشام ضحكة أذابت في قلبه كلّ ما لحق به من ألم وهو يشعر بسعادةٍ تحيطهما بعد شقاء:

- هذا الشاب اتْرزع علقة بعد انصرافك لا تتخيّليها.

نظر الاثنان إلى بعضهما كأن ضوءًا خفيًّا يصل تلك الذكريات الجميلة بشعاع الحبّ..

- عرفتِ.. لقد كنت دومًا بي.. وستظلّين.

لم تستطعْ "أسرار" أن تخفي نظرةً بدا فيها بداية فَجْرٍ تتجمّع خيوطه في قلبها، لكنّه مازال محاطًا بليلٍ لم ينقشع بعد.

***

في بعض الأحيان يجب علينا أن ننسلخ من أماكننا قبل أن تنسلخ أرواحنا ونفوسنا.

قالها إبراهيم وتحقّقت.

انتقلت الأسرتان من الإسكندرية إلى القاهرة في شقّتين بالقرب من المستشفى بمنطقة الهرم لا تبتعد كثيرًا عن منزل ياسين.

كان الانتقال نفسًا عميقًا بعد اختناقٍ دام سنوات في قاع بحر من الأحزان والحقد والانتقام، صعدوا إلى السطح لتدفئ مشاعرهم شمسُ الحياة، وتمتلئ صدورهم بهواءِ الأمان.. الشقتان أمام بعضهما في مبنى واحد.

عليّة وجدت أختها محسنة كما لو كانتا في بيت أبيهم لينعموا معًا بالونس بعد الوحدة.

إبراهيم هربَ من نظرات الشفقة والاتهام التي كانت تملأ عيونَ مَن يحيطون به.. ارتفع عنه ضغط أبٍ لابنتين أحدهما مريضة نفسية والأخرى متّهمة باختطاف ابن زوجها حتى بعد براءتها؛ فألسنة الناس لا ترحم. شقّ على نفسه فراقُ صديق العمر الذي لم يكن يمرّ عليه يوم إلّا وهو معه يسرّ له بأحزانه ويفرحه بفرحه. إسماعيل الرجل الذي لم يعرف قلبُه إلّا الحبّ والخير لكلّ مَن حوله.. ينتظر في كلّ لحظة أنْ يغيّر قراره ويأتي ليقف بجانبه كما كانا دائمًا.

مُنى وجدت لنفسها عملًا في إدارة المستشفى، خلقت مجتمعًا وصديقات، رحلت عنها نظراتُ الشفقة والعطف ممّن حولها، وهمْهَمات النساء وغمزاتهنّ التي لا ترحم، بدأ الأمل يدبّ في ذلك القلب الذي تيبّس من اليأس، تلمح اقترابَ هشام من "أسرار" وتسعد به، لقد فجّرت حادثة أحمد كلّ حقد ملأ قلبَها فحوّلته إلى أشلاء كنَسَها نسيمُ الودّ والعطف.

تنهّدت وهي تقول: "السعادة مهْما غيّرت مسارها يومًا ستظلّ نصيبَ الأنقياء"

ابتلع الإعداد للمستشفى وقتَهم وجهدَهم، ومنحهم مناخًا صحيًّا.

أراد أن يقترب علّه يجدُ منفذًا ينفذ منه إلى قلبها.. قلبُه لا ينسى حبَّها وعقله دائمًا يذكّره بروعة عشرتها.. يا لتلك المخلوقة التي أفسدت عليه كلّ شيء.. لولاها لكانت "أسرار" الآن في أحضانه وابنهما يلعب مع أحمد ليصنعا سويًّا أسرة رائعة.

تمرّ الأيام ولا يصدّق أنّ سارة تلك الإنسانة المهذبة ارتكبتْ تلك الحماقة هي وزوجها، هل فقدانها لابنها كان شديدًا على أنفسهم لتلك الدرجة!؟ أسرار أيضًا فقدت ابنها ولم يجعلها هذا تكرهُ أحدًا، أو تتجاوز في أفعالها فكيف يمكنه أن يعوّض ذلك القلب مرّة أخرى؟

تلمّس نور عينيها الذي لا يغيب عنه، وجدها هناك حيث الأمل الجديد الذي احتضنها وقد غابتْ نظرة الحزن والألم التي كست عينيها ليظهر

صفاؤهما كما رآهم أول مرّة بلمعة حبٍّ تتلألأ بهما.. لمعة امتلكها من قبل، فهل تلمع له أم لغيره؟

- حياتي من غيرك أصبحت جمادًا لا روح فيه، كنتِ روحَ الحياة يا "أسرار".

لم تستطعِ الردّ على كلماته، لقد قالت كلّ ما يجب أن يفهمه.. نظرت إلى قدميها، وعندما رفعت رأسَها لتردّ عليه بادرها بقوله:

- هل نسيتني لتلك الدرجة! لا أجد شيئًا منّي في عينيكِ.

- تلك هي الحقيقة، لقد تعبت كثيرًا حتى أمحي أوراقك من كتاب حياتي لأبدأ من جديد من غير أحْمال أجرّها خلفي أو ذنوب تتعلّق بثوبي أو شكّ يمطر من عينيك.

- هل آذيتك لهذه الدرجة؟

- لو عاتبتك فأنا لم أنساك.. حتى العتاب لا يلزمني، لم أطوِ صفحة أيّامك حتى لا أقلب فيها يومًا. لقد مزّقتها ولم تعدْ في كتاب أيّامي. أثقُ أنّ حياتك لن تتوقّف عليّ.. الحياة لا تقف على مَن استطعنا أن نفرّط فيه، الحياة تقف عند مَن لا نستطيع العيش بدونه.

لم يجدْ ما يقوله، اضطرّ للانصراف بخجلٍ لن يفارقه ليلمحه واقفًا بعيدًا ينظر إليه نظرة المُنتصر، لم يستحقّها يومًا بل هو مَن استحقها دومًا.. دفع

عمره في انتظارها، وقف بجانبها في أضيق أوقاتها، مدّ يده إليها عندما ألقاها هو. تنهّد تنهيدة الخاسر لينصرف معه آخرُ قطرة علقت بها من بئرِ الحيرة التي جذبها منها هشام، ليس بيده لكنْ بقلبه المحبّ.

انصرف ياسين إلى ما ظنّه قدره.. إلى سارة التي تمتلك مفاتيح أحمد، وقلبَه، ليصنع معها حياةً كالتي صنعها من قبل مع والدة أحمد. كأنّ تلك الحياة الباردة قدرُه، امرأة تحيا معه وكلّ كيانها مع آخر.

فهل ستقبل سارة عرضَه لتلك الحياة؟

***

"بل الإنسان على نفسه بصيرة"

كلّنا حجة على أنفسنا، نعلم ما يجول فيها مهْما ادّعينا العكس أو أنكرنا المعلوم.. نعلم مواطنَ ضعفنا ونسترها بسترِ الخالق، نعلم أي اختبار سيُخرج بواطننا ويجعل مساوئنا تطفو على سطح المحن والأزمات. كلّنا ضعافٌ أمام ما تخضع له رقابنا. القليلُ مَن ينتصر على نفسه وهواها، والكثير مَن يستسلم ليصل إلى قاع الهاوية ليظلّ منّا عالقون يتردّدون بين سطح النجاة وقاع الغرق.

سارة تقف أمام المرآة تُحاكم نفسَها.. تشعر بما يدور في عقله ويظهر في عينيه كلّما قابلته، ليتَه لا يصرّح، ليته يترك الأمر على ما هو عليه، يرحمها ولا يلقي لها بحبال عرْضِه بالزواج لتسحبها إلى بئر الحيرة، تعلمُ تردّده في علاقته بها، وبما يريده من العودة لأسرار.. تلك الفتاة التي لم تكنْ تعلم يومَ وافقت "صالح" أنها جنتْ على حياتها وابنها الذي كان مازال ينمو في أحشائها.

نظرت في المرآة نظرةَ عبوس لذلك الوجه الذي يطفو على سطحها.. صحيح أن "صالح" جنبها شرّ محكمة البشر لكنْ عليها هي فقط أن تبدأ محاكمة الروح والنفس، وتنهي قضيتها بما يليق بقضائها العادل؛ لتبدأ محاكمةٌ عادلة لا ظلمَ فيها ولا تهاون.

"محكمة"

هل فكرتِ وأنت تقرّرين السفر بأحمد عددَ الضحايا التي ألقيتِ بهم وارتفعتِ على أشلاء حياتهم لتعوّضي نفسك حرمانها من الأمومة؟ تألمتِ ألمًا لم يشعر به أحدٌ يوم ولادتك لمحمد، استأصلوا الرّحم للحفاظ على حياتك، كان محمد هو الفرصة الوحيدة لكِ.. تجرعتِ الآهات والعذاب النقي عندما استردّه الله، فلماذا لم تتطهّر روحك وتفكري في آلام غيرك، ألهذا الحدّ توحّشت بداخلك الأنانية؟ هل تستمتعين بحبّك لأحمد وحبّه لك ورغبة ياسين في خلق أسرةٍ ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب؟ وصالح! أتتركينه للهاوية التي أنقذك منها، لولاه لكنتِ أنتِ الأخرى خلف الأسوار، ولَمّا أعارك ياسين أي اهتمام؟! إنّه القلب الذي ضحّى لتهنئي والعينُ التي سهرتْ لتنامي.. هل تعلمين أن ياسين بالرغم ممّا يمتلكه من كرمٍ ماديّ وأخلاقي لا يمتلك القدرة على التضحية؟ لو كان ياسين هو صالح هل كان سيضحّي من أجلك؟ لقد ألقى بحبّه خلفَ ظهره ذبيحة فور اختفاء ابنه، كيف أطاح بتلك المخلوقة الجميلة؟ أنت الآن يا سارة في بئر الحيرة الذي يمتلئ بصرخات الحائرين أمثالك، وعليك أن تنقذي نفسك، لا تمتلكين اليدَ

القوية التي ستمتدّ لترفعك.. تلك الوقفة النقية أمام نفسك قد لا تعوّضها لك الأيام مرّة أخرى.. إنها منحة الله، وعليك إدراكها.

انتهت من المحاكمة، وعليها الآن النطقُ بالحكم.. لا تأجيل، لا استئناف، لا نقض.

"حكمت عليك محاكمةُ نفسك أن تقفي أمام البئر لتنتظري يدَه لتنتشليه فوْرَ ظهوره، تنفضي عنكما غبار الماضي الذي علقَ بكما، حتى لو كان الثمن التضحية بوجود أحمد"

تبدّلت نظرة العبوس لوجهها بابتسامةٍ خفيفة تملؤها الطمأنينة لعدالة الحكم الصادر من ثنايا قلبها وعقلها معًا.

***

مَن قال إنّ الشوق والحنين يكون بين العاشقين والمحبّين.. فليأت مَن قال ذلك ولينظر إلى وجه إبراهيم، كالطفل يبحث عن أبيه في زحام حياةٍ اختطفته منه.

اتّصلت به ليأتي صوته لا يقلّ لهفة وشوق لهم:

- عمّ إسماعيل، أعرف أنك تقدّر حالنا، كلّنا هنا سعداء لأننا كسبنا ولم نفقد شيئًا.. أبي هو الوحيد المتعَب بيننا.. أبي الفاقد الوحيد.

لم تكن "أسرار" تعلم أنّ صمت إسماعيل دموعٌ تخنق كلماته، هو أيضًا ضلّ عن رفيقه وجنّ عليه ليلٌ لا يشعر له بنهار. ومِن وراء دموعه أجاب:

- يعلم الله يا ابنتي أنّ الدنيا لم تعدْ دنيا من غيركم، الأيام تمرّ لا أعرف ليلًا من نهار، ولا حلوًا من مرّ. إبراهيم كان وقتَ وطعمَ الأيام، لكنّي سأكون حِملًا على حمولكم. الغربة هي غربة الناس ليس غربة المكان.. أنا غريبٌ هنا بعدكم يا "أسرار".

- المستشفى تحتاج كلّ يدٍ وكلّ شريك، نحن في انتظارك لتشاركنا بمالك وجُهدك، نحتاجك يا عمّ إسماعيل كما كنّا طوالَ العمر.

يا لرقّة تلك الفتاة، تعلم بقلبها ما الذي يمنع إسماعيل من الاقتراب، لا يريد أن يكون أجيرًا لأحدٍ، ففتحت له طاقة النور التي يمكنه أن يعبر منها إلى أبيها لتنقذ وحدته.

ما الفائدة لو بحثنا عن سعادتنا ومَن حولنا لا يفارق وجوهَهم الشقاء!

السعادة الحقيقة ليست التي نشعر بها فُرادى، بل التي نمنحها ونراها حبًّا في عيون الآخرين.

تهلّلت أسارير إسماعيل وهو يسمع كلماتها:

- إن شاء الله سأكون عندكم في أقرب وقتٍ مُمكن، سعاد ستفرح جدًّا بقُرْبها منكم ومن عليّة. (خنقته الدموع وهو يكمل): لا أتخيّل أنني سأعود لأرى إبراهيم كلّ يوم، وأشرب معه الشاي ونلعب الشطرنج. سترِدّ لي روحي يا "أسرار".

- سأبدأ في البحث عن شقةٍ مجاورة لنا ونفاجئه. عمّ إسماعيل أسرع، أريد أن أسمع صوتَ دقّات كفّك على الباب.

***

هل كانت الصفعة بتلك القوّة؟

ما السرّ في أنّ النساء يغفرنَ كلّ شيء إلّا لحظة الاستغناء بالطلاق؟

ألهذا شدّد الله على تلك اللفظة، ولم يعطِ حقّها إلّا للرجل لأنها الحبلُ الذي إذا انفلت غرقتْ سفينة الحياة؟

لم ينتبه ياسين من شروده إلّا على صوت أحمد يقفز، وهو يسرع إلى الباب، ويردّد "ماما سارة.. ماما سارة"

لتلتقطه وتخفيه بين ذراعيها وتتنهّد تنهيدةَ حبٍّ صافية لابنٍ لم تحمله ولم تلدْه، لكنّ قلبها أرضعه حبًّا ولم يرضَ فطامه.

ابتسمت لياسين ابتسامةً يظهر فيها أنّه يوجد ما تريد قوله، هو أيضًا لديه ما يريدُ قولَه.

كان الجوّ يميل للحرارة وهما يجلسان أمام بعضهما في النادي تحت شجرة ضخمةٍ تحجب عنهم حرارةَ الشمس، لكنّها لا تحجب الأفكار المتدفّقة في رأس كلٍّ منهما:

- أريد أنْ أعرض عليك عرضًا يا سارة.

سمعت صوت حجر البئر يتحرّك ليلتهمها، سارعت بجذب يدِها في حركةٍ تلقائية لأفكارها وهي تقول:

- أنا أيضًا سأتعشّم في أن أطلب منك طلبًا كبيرًا، أعرف أنّك رجلٌ ستعاملني بكرمٍ بالرغم ممّا فعلت.

- التقينا في ظروفٍ صعبة فقط لكن لا أحدٌ كبيرٌ على الخطأ.. لم أرَ أنا وأحمد منك إلّا الخير، كأنّ الله رتّب ما حدث ليكون لأحمد أمٌّ حقيقية.

تشعرُ باقتراب عَرْضه الذي يجب أن يقف في حيز أفكاره، يجب عليها الآن وسريعًا أن تلقي له بكلّ أفكاره في نهر الحياة لتتقاذفها الأمواج بعيدًا:

- الحقيقة كنت أريدُ فتح مشروعٍ صغير على قدْر مالي، بعتُ الشقة وبثمنها أبدؤه، أكبّره وأنمّيه إلى أن يخرج صالح من السجن.

المحكمة حكمتْ بعشر سنين، والناس ستحكم بالإعدام.

كان على وشك أن يعرض عليها الزواج، وهو لا يشكّ لحظةً في موافقتها لتفاجئه، ليس بانتظارها لصالح بل بأنّها تعدّ له العدّة لحياةٍ أفضل.

- طلقك ولا يريد مقابلتك، كنت أتخيّل أنّ علاقتك انتهت به.

تنهّدت وقد تأكّد ظنّها فيه.. هل هكذا تنتهي العلاقات؟!

محنة يعقبها إلغاء للوجود!

- علاقتي به انتهت!! طلّقني ولا يقابلني، لكن ليس لأنّه لا يحبّني.

جرّة القلم التي كتبها صالح كانت كلّ حرفٍ منها تعني "أحبّك"، سأنتظره لو انقضى عمري في الانتظار، سأبدأ المشروع حتى يخرج ونتبنّى طفلًا صغيرًا نعطيه حبّنا والباقي من عمرنا.

- هل تحبّينه لهذه الدرجة؟

بدأت دموعُها في الانطلاق بغزارة وهي تجيب:

- أحبّه كلمةٌ قليلة لما بيننا. صالح هو حبّ عمري، زميل مدرّج كلية العلوم، نحن مرتبطان عاطفيًّا من أوّل يوم، الحبّ كلمة.. والتوحّد في روح واحدةٍ كلمة أخرى، أنا بدونه ناقصة وهو بدوني ناقص. معًا نحن روحٌ مكتملة، ضحّى بأبوّته من أجلي، ثمّ أخيرًا بحريته.

ابتسم في نفسه ابتسامةَ سخط، لقد أعطته سارة أكبر درسٍ في حياته، درس لم تمنحْه الحياة الفرصة لفهْمه إلّا بعد الامتحان والرسوب فيه، تنتظر شخصًا تفصله عنها أسوارُ السجن، لكنّه شخص امتلكها بتضحياته، فهل كان هو المختلّ الوحيد؟ ساعدها ليُجسّد معنى الوفاء وقيمة التضحية التي لم يهبها لها.. أسرار في كلّ لحظةٍ هنا، معه، في قلبه.. ضحّت بأكثر من خمسة عشر عامًا بينهما.. ضحّت بجمال البدايات لتبدأ زوجةً وأمًّا، لماذا لم يضحّي ويصبر ليعبروا الخندق الذي حفرته الحياة أمامهما كما يفعل سارة وصالح؟ لماذا ألقاها فيه، ومضى دون أي التفاتة؟

غزتْ عينيه نظرةُ أسى لتحتلّها، واستقبل طيفها الذي لا يفارقه ليعيش معه ما تبقّى له من حياة.

فالرائعون لا يتكرّرون.

***

مَن قال إنّ الإنسان راحتُه في الوحدة؟ لو كانت الوحدة راحتَه ما جعل الله الجنة موعدًا لالتقاء الأحبة والأهل والذرية والإخوان، لما جمع المحبّين في ظلّه تحت عرشه الكريم، لَمَا جعلهم على سررٍ متقابلين.

خَلقُنا طينٍ وماء يقول.. "الوحدة نار الله على الأرض"

الوحدة تشعل الأرواح، تجفّف ماءها، تتشقّق طينتها، ليخرّ الإنسان مفتّت الروح والقلب.

أمطرت سماءُ الصفاء بعد أن حجبتها الغيوم حبًّا ورضًا على النفوس فغسلتها، النارُ التي اتّقدت لتُظهر حقيقة المعادن ويصفو الذهب.

لم يصدّق عينيه وإسماعيل ينزل من عربة النقل التي تحمل منقولاته، احتضنه بلهفةٍ وشوقِ الغريب الذي عاد إلى حضن الوطن.. انطلقت الضّحكات والغمزاتُ على صداقة العمر التي لم يقتلها أزمة، ولم ينهيها رحيل. الجميع يشارك في وضع الأثاث... اكتملت العائلة.

تبتسم عيناها ولا يفارقهما ذلك المشهدُ الأخير الذي اختتمت به المعلّمة قصة يوسف وإخوته.

الرّفعة التي حقّقها بصبره وإيمانه وهو يواجه كلّ المحن بقلبٍ مؤمن محبّ لله..

لم يُظلِم قلبَه حقدٌ، ولم يُزيغه هوى، فأحسن الله إليه وأخرجه من الجُبّ والسجن، وجاء بإخوته من البدو.. وجمعه بأهله أجمعين.

همس لها وهو يرى شعاعَ الحبّ الذي يسري في عينيها:

- في الحياة علاقاتٌ لا يهدمها شيء مهْما قابلت من عواصف، كالبحر.. مهما ابتلع جوفُه رمالًا يظلّ صافيًا.

أذابته ابتسامتُها، فانتظر قليلًا ليكمل:

- ما أخبار بحْرنا؟

اقتربت منه لتضع عينيها أمام عينيه، وبتنهيدة حبّ اختبأ كثيرًا في كهوف قلبها، صدق عندما قال إنّ حبّه كنواة النخلة العملاقة لا تظهر على السطح إلّا بمشقة، لكنّها إن ظهرت خلقت معنى الشموخ..

- أنت مَن سيعرف.. حتى أكثر مِنّي.

- صدقت عندما قلت إنّك بي، ولن تكوني بغيري.

أغمضت عينيها وهي تشعر أنه لم يغزُ قلبها يومًا حبٌّ إلّا حبّه.. كلّ ما ظنّته كان سرابًا.. خدعتها ظهيرة عمرها في صحراء وحدتها لتظنّ شعورها بياسين حبًّا.. لقد كان أي شيء إلّا حبًّا.

أومأت برأسها علامةَ الموافقة، ليكمل:

- في كلّ الكلام..

- في كلّ الكلام.

نظر في عينيها ليجد نفسَه يبحر فيهما بمركبِ حلمٍ قديم لم يطفُ على السّطح إلّا عندما جرف التيارُ كلّ الشوائب العالقة حوله.

رآها تصعد على سطح مركبه ليتلقّاها بحنان عمْرٍ بأكمله لم يستطعْ أن يمنحه لغيرها.. ليجدّفا معًا بمجداف الحبّ إلى شاطئ السعادة.

تمّت


دار البشير للثقافة والعلوم